د. علي عقلة عرسان

المثقف العربي والمتغيرات

- دراسة -



منشورات اتحاد الكتاب العرب

١٩٩٥

المثقّف العربي والمتغيّرات

د. علي عقلة عرسان

المثقَّف العربي والمتغيِّرات

- دراسة -

منشورات اتحاد الكتاب العرب

١٩٩٥

تصميم الغلاف الفنان : أنور رجا

مدخل:

مطروح سؤال الناس على المثقفين وعنهم، وعلى الثقافة وعنها: ما العمل بعد كل ما حصل ؟! وما هو البديل الممكن لما حصل ؟! وكيف السبيل إلى مواجهة شافية نخرج منها بعافية ؟! وما الطرق والتوجهات التي تفضي بنا إلى مستقبل يُستَشْرَفُ على أرضية واقعية تعيش فيها المعطيات وتتفاعل بموضوعية وواقعية ؟!

وما الذي يستطيع المثقف أن يقدمه تأكيداً لمصداقيته وتعزيزاً لسلامة رؤيته، في وقت تغيم فيه الرؤى ويضيق الفضاء، ويخفق الكلام في أربعة أركان الأرض بأجنحة رمادية مبشراً بالشيء ونقيضه، مسوغاً كل فعل، عابثاً بالقيم، ينتقي منها ما يشاء ويلغي ما يشاء ويتغاضى عما يشاء ويعطي ظهره لما يشاء؛ ثم يرتمي من بعد هو وأهله في ظل السياسات كسيحاً أو شبه كسيح، يتفرج على الممارسات المجترئة وهي تفترع طهر النفوس ونقاءها وحقوقها، وكل عوامل الوجود الحي في ساحات الحياة، وكل المساحات المقدسة في الضمائر والعقول؛ وتأخذ بقوة الفعل الذي تقيمه قوة عمياء أو مصلحة أكثر عمى، وهي تصرخ بوجه كل من يرفع نظره إلى سماء من أي نوع قائلة: هذا هو الذي يشكل الواقع القاسي بحرّه وقره، وهذا هو قوام جرعة " الحقيقة " التي يعطيها بما لها من طعم ولون وكثافة ومرارة وتأثير. هذا هو الفضاء الفعلي الذي يمكن أن تُبنى فيه أعشاش لا تسحقها الأقدام، ولا يعبث بها العابثون، ولا يقال: إنها من فصيلة ما يقدمه الوهم وتمحوه الصحوة؟!

مطروح سؤال الناس أيضاً: من –هو– المثقف المعني بخطاب نوعي

يأتي في ظرفه وتوقيته ويحقق تأثيره وأهدافه، خطاب يستمد قوامه وحضوره مما يعتمل في الحاضر، ويكون قادرا في الوقت ذاته علـــى توظيــف القــوى والقدرات لجلاء صورة المستقبل وتحقيقها، وله تأثيره فـــي صـــوغ التوجــه والقرار؟ وهل يملك المثقف يا ترى من الأمر شيئا؟ أم هو مجرد دعي له قدرة الحرباء على التلون، وقدرة الخلد على فتح منافذ لا حصر لها في أعماق ظلام التربة، يتوغل فيها خوفا ممن يلاحقونه بأشكال الملاحقة وأنواعـــها؛ وحيــن يخف ضغط الأحداث وتزول وطأة الخطر، يستعير من الطاووس ذيـــلا، ومـــن البلبل صوتا، ومن الصقر منقارا، ومن الأسد لبدة ومخالب، ويـــأخذ بـــالتذمر والتضجر والتكبر، مصعرا خده للعالمين، ينفض ريشه ليخيف أو ليجلب الوهـم بأنه قادر على أن يخيف وعلى أن يظل بظله من يشاء؛ وله مـــن وراء ذلــك العرض أو الاستعراض غايـــات مســـتورات لا يعرفـــهن إلا أصحـــاب العلـــم والخبرة؟؟

مطروح سؤال الناس عن المثقف وعلى المثقف: ماذا نفعل؟ !

وما الذي يجعلنا نقتنع بأن ما يدعو إليه خطـــاب الثقافـــة حـــق وفيـــه خلاص، وما الذي يجعلنا نسير وراء معترض، أو محرض، أو رافض لا يعجبه العجب ولا الصيام في رجب، يطوف بنا على أجنحة الكلام والانفعالات، وحيــن يجد الجد وتأتي ساعة الحسم والمواجهة يهرب ويتوارى زاعما أن دوره الآن قد انتهى وأتت ساعة آل فيها الفعل والأمر إلى سواه ؟!

مطروح سؤال الناس البسيط على الثقافة وأهلها: هل أنتم منا أم علينا، أم لا منا ولا علينا ؟ وهل أنتم مع من يزقكم لتكبر حواصلكم وتسمن أبدانكـــم فتضيعون ألوانكم وأصواتكم وخطاكم، ولا تحسنون من بعد إلا اللقق الذي يتبع الزق ؟ !

مطروح سؤال الناس على المثقفين: لقد أتخمتمونا بـــالتحليل والتعليـــل والتفسير والتبرير، ولقد جابهتمونا بكل ما يكسر ظهورنا ويكثف الظلام فـــي دروبنا... أفما لذلك كله من غاية أو نهاية ؟! وإذا كان الرد بالإيجـــاب: فـــإلام ترمون ومتى تنتهون ؟! فيقول قائلكم لنا، بعد أن يحاصرنا بمنطقه ويجلدنـــا

بسياطه: هذه هي طريق الخلاص فاسلكوها، وهذا هـــو الـذي إذا فعلتمــوه خرجتم من الظلمات إلى النور ؟ !

فهل يأتي يوم نسمع فيه كلاما شافيا نظيفا واضحا صريحا، يضع النقاط على الحروف، والأقدام على الطريق، والسواعد في دوائر الفعل البناء، أم أن سيل الكلام سيبقى يتدفق في كل اتجاه، فيغرق الرؤى وواحات الوجــدان، وأن الذاكرة ستظل مثقوبة فلا يكون في ذلك إلا عمه وبعض راحة لمن ينشــدها ؟! أم أنكم يا أهل الثقافة لن تتعبوا من جلدنا والتعالي علينا والارتقاء على جثثنـــا ؟! ويحكم هلا اهتديتم إلى حقيقة أنكم لن تقنعونا بشيء إلا إذا كنتم قدوة فيــه، وتلاقت آراؤكم وأقلامكم عليه، ودخل صدقه إلى قلوبنا، ومنطقه إلى عقولنا ؟! أفلستم تذكرون رائدكم وتتذكرونه في كل وقت، وأنتم تلوحـــون لنـــا بكــلام وتمارسون بعده فعلا لا ينم عليه، حيث قال ذلك الرائد:

لا تنــه عـــن خلـــق وتـــأتي مثلـــه

عـــار عليـــك إذا فعلـــت عظيـــم ؟!

مطروح سؤال الناس على الثقافة والمثقفين إذ يقول: هل تملكون قلوبــا تبصرون بها، وعيونا تعقلون بــها، وشــجاعة تقودكــم إلــى الثبــات فــي المواجهات، وإلى خوض خير الجهاد : " كلمة حق في وجه سلطان جــائر"!! هل تنصرون الحق إذا حصحص، وترمـــون الليـــل بشــهبكم إذا عســعس، وتفتحون بوابة للأمل في القلوب التي أناخ عليها اليأس بكلكله ؟! وهل تراكم تجتمعون على موقف ورأي وكلمة... أم أن ترجمات الخلف علـــى ألســـنتكم، وبؤر الاختلاف تعشش بينكم، وهناك من يلقي رحلـــه منكــم علـــى أبــواب السلطان فلا يرحل عن أعتابه إلا وقد تخلى له عن روحه ووجدانه ووجهه واللسان، ورهن عنده قلما من أقلامه، لأن لديه جعبة من أقلام ـــ سهام يلقيها على الصيد إذا وثب أمامه!؟

يقولون إن جبهتكم أكثر الجبهات تأثيرا إذا اتحدت، فما بالكم تعظوننا

بما لا تتعظون به، فتدعوننا إلى الوحدة والتضامن وأنتم لا تجمعـــون أمركـــم بصدق على شيء، ولا تتحدون بمواجهة قضية من أهم قضايا الناس والعصر وأعدلها ؟!

ومطروح سؤال الناس على الثقافة وأهلها: هل أنتم متفقون علـــى رأي فيما يخص أعقد المشكلات التي تدعوننا إلى مواجهتها ؟! أفلا يليـــق بكـــم أن ترتبوا بيتكم أولا ثم تدعوننا للدخول إليه، والاستماع فيه إليكم، والاقتداء مـــن بعد بكم؟!

وهل لكم من التأثير والحضور في الأمور ما يجعلكم أصحاب تأثير فـــي القرار أو في الساحات التي تحيط به، وينهل منها أشعة رأي ورؤية ؟ أم أنكـــم غبتم أو غيبتم عن ذلك لأسباب لا تستطيعون حتى التصريـــح بـــها خوفـــا أو طمعا، ورضيتم من الغنيمة بالإياب؟!

يا أهل القلم... قد غنم من علم، وفاز من عمل بما علم، وتجنب الدخول في زكائب من يجمعون الرمم ويحشون جيوبهم بالأشخاص الدمى، يخرجونـــهم عند اللزوم ويعبثون بهم فيلعبون لهم حسب الحال المطلوب. فـــإذا كنتـــم لا تملكون أن تخلصوا أنفسكم من مصير تكرهونه.. أو لا تملكون أن تخلصوا فئة منكم مما تكرهون لها ولكم، فكيف بالله تقتحمون العقبة الكأداء، وتريـــدون أن تخلصونا مما نحن فيه أو تخلصوا بنا أوطانا وأمة مما هي فيه، ونحن لا نملك لأنفسنا خلاصا، بل لا نملك أمر أنفسنا ولا تملكون أمر أنفسكم ؟!

يا أهل الثقافة... الحر يحرر، والعبد لا يصنع حـــرا ولا يحـــرر أرضـــا وإنسانا، ولا يقيم أود الحرية والقيم والإنسان بما تحتاج إليه من روح الوعـــي وريح الوجدان، وأنتم ما لم تباشروا السير في ذاك الدرب، فلن تعرضوا علينا دربا نراها ونسير فيها نحو المستقبل بأمان واطمئنان.

مطروح سؤال الناس على الثقافة وأهلها: هل تملكون حريـــة قـــرار، وأنتم إلى الأمن من جوع وخوف أحوج ما تكونون، وتلـــهثون آنـــاء الليـــل وأطراف النهار لتحصلوا على ما يقيم أودكـــم وأود أســـركم، وتضطـــرون أو تضطر كثرة منكم إلى تقديم البضائع الرائجة والمستساغة والمطلوبـــة فـــي

سوق الكلام، الذي فسد وأفسد وأمر بالفساد أو ران عليه، لكي تستمر حياتكم في حدود العيش الأدنى؟! فمتى وكيف تصلون إلى حياة الانعتاق من كوابيس الحاجة، فترون بحرية، وتعبرون من دون خوف، وتضعون حدا للشرانق التي تحيط بنا وبكم، وتفلحون في إيقاد شمعة تحرق الشرانق وتنفر الخفافيش التي تكاثرت في هذا الليل البهيم ؟!

يا أهل الكلام نعرف أن اختياركم الحر لموقف حر أعلى شأنا من كل أنواع الحاجة وقيودها، ولكن كم هم أولئك النفر الذين يختارون ذلك ويقدرون عليه من بينكم، وكم هم أولئك الذين يشدونهم من أرجلهم نحو الطين والقيود والخوف، ويبيعونهم ألف مرة قبل صياح الديك كل يوم، من بينكم أيضا ويشترون بثمنهم كأسا من الجعة ولذة عابرة ؟!

يا أهل الكلام... نعرف... ونعرف... ونعرف... ولذلك فإننا نخاف حتى ونحن نستمع إلى الكلام، لأننا أخذنا نشعر أن الكلمة فخ... وهذا مؤذ لنا ولكم، فمتى وكيف تخرجوننا من ساحة الخوف تلك، التي انتم أسراها، إلى صبح الأمن والاطمئنان والمصداقية والرؤية الصادقة؛ ومتى نلهث وراء كلمة منقذة من دون خوف، ونطمئن إليها اطمئنانا مطلقا فننام على وسادتها ونحلم أحلاما جميلة ؟!؟

سؤال الناس مطروح على أهل الثقافة... وسؤال الناس وأسئلتهم مشروعة... ولكن أليس لأهل الثقافة أسئلة تطرح على الناس وأولها قولهم لهم: لا تقولوا لنا ما قالت اليهود لموسى :

{... إنا لن ندخلها ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون...} سورة المائدة : الآية ٢٤.



المثقف العربي في عالم متغير

العالم يتغير، والعالم دائما في تغير ولا يمكن أن يكون إلا كذلك، لأنه محكوم بقانون الحركة الذي هو قانون الحياة ذاتها، فالحياة حركة على نحو ما، وحتى حين تكون حركة هدم فهي تؤسس لحركة بناء، وتثبت قانون التحول أو التغيير أو إعادة التكوين، أو تجديد ذلك التكوين. وليس بالضرورة أن يكون ذلك محصورا في تغيير الشكل، فتغيرات المحتوى العام ـ الروحي ـ والفكري والشعوري ـ تغير الرؤية والقيمة والسلوك والفهم والنظرة إلى الحياة وإلى الآخر فيها، وإلى العلاقة بين الأشياء والأحياء، كل ذلك يعطي معنى للتغيير ويثبت حضوره واستمراره.

الحياة حركة، وهذا تعبير يصدق على معظم ظواهرها وجواهرها فالحرارة حركة، والسكون ـ في نظر العلم ـ نوع من الحركة، وكل شيء فينا ومن حولنا محكوم بهذا القانون إلى حد كبير؛ ولكن الحركة بالنسبة للفكر والسياسة والمجتمعات لا تتم دائما حسب قانون واحد ثابت ساكن ذي مدار وحيد، لأن الإنسان يعيد توظيف الطاقة والأشياء والمعلومات والعلاقات والقوانين في ضوء المعرفة والمعطيات الجديدة المتجددة، استنادا إلى التجربة السابقة والمصلحة القائمة والهدف المنشود، وفق منهج يلبي حاجاته ويحفظ وجوده، ويجلب له الأمن والاطمئنان والمتعة والرفاه والسعادة. ولأن المعرفة في تجدد مستمر، ولأنها غنى، وإحساس بالفقر والحاجة يدفعان باتجاه الاغتناء عن طريق الكشف والتحصيل، فهي دافع مستمر لتلبية حاجة إنسانية مستمرة تكاد تكون غاية بحد ذاتها.

والمثقف بالمفهوم الشامل أو الواسع للثقافة، هو أكثر الناس صلة

بالمعرفة، أو هكذا ينبغي أن يكون، وحين يكون هذا هو شـأنه فإنـه يشـعر بالحاجة إلى تواصل مزدوج الاتجاه:

- تواصل مع المعرفة يجعله في حالة حياة، أو إن شئت في حالة حركة مستمرة تؤدي به إلى التجدد وتجديد الرغبة في التجدد.
- وتواصل مع الآخر لينقل إليه المعرفة، تحت تأثيرات ودوافـع شـتى وتحقيقا لأهداف وقوانين تواصل عديدة.

فالمثقف المتصل بالمعرفة والمتواصل مع تطورها ونموها وتجددها من جهة، ومع الآخر والحياة من جهة أخرى، هو كائن قريب جـدا مـن وظيفـة سادن من سدنة الحركة النوعية، على الرغم من أنه محمول في الوقت ذاتـه في تيار الحركة الصخاب؛ وموقعه هذا يفرض عليه أن يستفيد من التيار الـذي يحمله، وأن يجعل ذلك التيار مستمر الاندفاع، وأن يوظف حركته ما اسـتطاع أو يعقلنها أو يكتشف توجهاتها وقوانينها، ليتلاءم معها ويتحكم بها إن أمكـن ذلك، وليجعل من ذلك كله شيئا مفيدا وممتعا له، ومساهما في بقائه وتقدمـه وإسعاده. كما يفرض عليه تواصله مع المعرفة تكاليف معينة لا يفرضها علـى شخص سواه بالدرجة ذاتها وبالحساسية الخلقية ذاتها، ويرتـب عليـه مـن المسؤوليات التي يفرضها الوعي ما لا يرتبه على سـواه، فـهناك إذن ذلـك التمايز المكلف والمرهق والممتع في الوقت ذاته، بين المثقـف الواعـي ذي المسؤولية الخلقية والموقف الإنساني والرؤية المبدعة فـي الحيـاة، وبيـن المثقف الذي يستهلك المعطى المعرفي الإبداعي جزئيـا، وينشـره ويفسـره ويسوغه، وقد يتعيش منه ويرتزق عليه ويسيء إليه، وبين ذينك الصنفين في أنموذج المثقف من جهة وبين مستهلك الثقافة العام والمحتاج إليها والموجهة إليه أو المتوجهة إليه من جهة أخرى. فالأخير إما أن يكون جاهلا يثقل عليـه الزاد، أو راغبا في المعرفة يحصل عليها بمقدار تتحكم فيه إمكاناته الذاتيـة أو المادية، وظروفه والظروف المحيطة بانتشار الزاد المعرفي وبانتقاله وتوفـير إمكانات الاستفادة منه، وإما أن يكون حالة ظلامية تخشى نور الوعي فتنكمش ولا تنمو إلا بانتشار الجهل، أو حالة إجرامية بحق الإنسانية تخشـى انتشـار

الوعي فتحاربه، أو حالة بشرية متورمـــة الأطمـــاع والمطـــامح والنزعـــات والشهوات تفرض على الآخر مناخا يلائم استمرار حياتـــها ونموهـــا كحالـــة مرضية، وتجد لزاما عليها أن تحارب ما يوقف نموهـــا، ولا ســـيما الوعـــي المعرفي، وتحرر الإرادة، والإحساس بالمسؤولية الذي تقيمـــه الثقافـــة فـــي الناس، والحرية التي تحرك الإرادة في مسارات الحياة بإصرار واقتدار.

وهذا المناخ العام، بكل معطياته ومقوماته، يفرض صراعا بين أطـــراف تتواصل مع المعرفة / الثقافة / سلبيا أو إيجابيا، ويقودها ذلك الصـــراع إلـــى مناخ للتحرك يزداد اتساعا أو ضيقا بمقدار انتشار المعرفة وتعدد مســـاراتها، وتدفقها هي في تلك المسارات. ولا يعنيني الدخول في تفصيلات هذا الجـــانب من الموضوع الآن، ولم أرم إلا إلى مجرد الإشارة إليه من بعيد، وسوف أركز جهدي في إضاءة جانب رميت إلى تركيز الجهد فيه وهو المثقف العربي فـــي عالم متغير، وأحدد ذلك العالم بعالمنا اليوم بعد "الحرب العالمية الثالثة" التـــي حدثت وما زالت نتائجها تظهر وتتجلى بأشكال مختلفة، تلك التي بدأت حـــرارة ظهورها بعد عام ١٩٨٧ وانتهت بوقف إطلاق النار في حرب الخليج الثانيـــة يوم ٢٧ــ ٢٨ شباط ١٩٩١ الساعة الرابعة وعشر دقائق بتوقيت دمشق. نعم أقول الحرب العالمية الثالثة انتهت، وكانت أقل الحروب العالمية خســـارة فـــي الأرواح، وأكثرها حصرا لجبهات المواجهة الساخنة، وأثقلـــها وطـــأة علـــى العرب، وأشدها تأثيرا عليهم، وأكثر الحروب فائدة للمنتصر فيها، وأعظمـــها اعتمادا على أسلحة الإعلام، والثقافة، والجاسوسية، والاقتصاد.

لقد تهاوى نظام مركب الأقطاب سيطر على العالم سبعين سنة تقريبـــا، وكان يستخدم القوة تحت شعارات وأيديولوجيات ليحقـــق المصـــالح، ويـــأخذ بشعارات أخلاقية ليخوض في ظلها حروبا قذرة من أجـــل النفـــوذ والتوســـع والسيطرة واستغلال الآخرين ونهب ثرواتهم، وكان دائما يـــترجح بيـــن قـــوة السلاح وقوة الشعار : الشيوعي والرأسمالي، ليكسب أكثر، وينتشـــر أكـــثر، ويفتك بالآخرين أشد. وتهافت أو قل انتهى صراع بين إيديولوجيتين، رأسمالية واشتراكية، شغلتا العالم بحرب باردة مكلفة. وإذا كانت الحرب العالمية الثانيـــة

قد جعلت الشيوعية والإمبريالية / البرجوازية ــ الرجعية ــ الاستعمارية المستغلة ــ السوداء ــ الشريرة... الخ / تتحالفان ضد النازية والفاشية، فإنها لم تستطع أن تجعلهما بمنجى عن التنازع والتصارع والاقتتال، وإن كان أكثر اقتتالهما يتم بالوكالة، كما أنها لم تجعل أي طرف من الأطراف المنتصرة ــ المتحالفة، يقصر عن رؤية مصالحه أو عن السعي لامتلاك القوة ــ كل أشكال القوة النووية وغير النووية ــ للدفاع عن نفسه وعن مصالحه في وجه حلفاء الأمس قبل أعدائه، وضد الشعوب والحكومات المستضعفة، وضد كل أولئك الذين سحقوا بأشكال مختلفة وقاموا من رمادهم بأشكال مختلفة أيضا.

لقد حسم الأطلسيون آخر صراعاتهم مع أطراف حلف وارسو، أو قل حسم الإمبرياليون حربهم مع الشيوعيين، في معركة أشباح تشكل نهاية حرب بين أعداء وبداية حرب بين حلفاء، كما كانت الحرب العالمية الثانية نهاية حرب الحلفاء مع النازية، وبداية حرب الحلفاء فيما بينهم. وكانت تلك معركة المصالح والشعارات والعقائد التي جرت آخر فصولها على أرض العرب، ودفع ثمنها العرب، وأتت على كثير من مقومات القوة والحيوية والوجود لدى العرب، وأعني بها حرب الخليج الثانية، التي أعقبت احتلال العراق للكويت، وأخرجت العراق مدمرا بعد خروجه من الكويت. فما هي ملامح العالم الجديد، أو النظام العالمي الجديد، أو بعبارة أدق ما هي ملامح التغيير التي أصابت عالم ما بعد الحرب العالمية الثالثة تلك، التي تمت بأقل الخسائر وأدت إلى أعمق النتائج ؟! سوف أحاول أن أسجل بعض النقاط التي تساهم في رسم الصورة، ثم بعض الملامح لعالم اليوم ــ عالم الغد، بعجالة، لأنتقل بعد ذلك إلى رؤية المثقف على أرضية ذلك العالم؛ مع الإشارة إلى أن المثقف لم ينفصل يوما عن حروب العالم وصراعاته، عن سلمه ونكباته وكوارثه... فهو صانع الإيديولوجيا ومسخر السواعد والعقول معا لخدمتها، وهو حامل الشعارات، ومصنع الزعامات وشريك الإعلام في صنع الأعلام وترويج الآلام؛ ومن تلك النقاط... الملامح أذكر أنه :

١ــ غابت عن ساحة الصراع الرئيسة، سياسيا وفكريا واقتصاديا وعسكريا : الشيوعية، والمجموعة الاشتراكية، وفلكها العالمي

المحيط بها، وانعكس ذلك على العالم الاشتراكي بشكل صراعات وانقسامات ومآس ومجاعات، وحروب محتملة، بدأنا نرى حرائقها في مساحات منه. كما انعكس على المرتبطين به ومعه بأحلاف أو معاهدات، أو باتفاقيات اقتصادية وثقافية وعسكرية... الخ انعكس عليهم بأشكال مختلفة أثرت تأثيرا مباشرا على أحوال أولئك المرتبطين وأهدافهم ونضالهم وقضاياهم الرئيسة وعلى أوضاعهم، حتى الداخلية والفردية منها في بعض الحالات والأماكن.

وإذا أخذنا العرب، من بين أولئك، نجد أن الدول التي كانت عازمة على خوض الصراع مع العدو الصهيوني حتى التحرير أخذت بمقولات التسوية السلمية والتنازلات الإقليمية، وحاولت أن تلائم نفسها مع واقع جديد، تسود فيه قوة عدو لها انتصر بانتصار حليفه، أو ازداد غطرسة بسقوط حليفها هي وباستعدادها للارتماء على عتبة القوة.. أية قوة. وفي توضيح لذلك أشير إلى حادثة قد تشكل استطرادا ولكنها تدخل في صلب الموضوع وتوضح ما رميت إليه : في الزيارة الأولى التي قام بها جيمس بيكر إلى سورية بعد نهاية حرب الخليج الثانية وبداية العمل من أجل مؤتمر مدريد، حاول جيمس بيكر أن يعامل سورية كدولة مهزومة في الحرب، على الرغم من كونها عضوا في التحالف الذي قادته الولايات المتحدة الأميركية، وعلى الرغم من وقوفها ضد احتلال العراق للكويت، وإرسالها قوات إلى هناك، ولم يكن ذلك الموقف إلا وليد اقتناع أميركي تام وشامل، بأن الاتحاد السوفييتي ـ الذي كان حليفا للعراق، وهو حليف لسورية أيضا، وتربطه بالعراق اتفاقية دفاع مشترك ـ أنه لم يستطع أن يفعل شيئا لحلفائه، وثبت سقوطه أو عجزه أو تسليمه أو انهياره أو اختياره موقف المتفرج المحايد، أو المتواطئ الصامت في درس الحرب الأخير، ومن ثم، فإنه، أي بيكر، يعامل كل حلفاء الاتحاد السوفييتي معاملة واحدة، وسورية من ذلك الصنف من الحلفاء. وقد كان لسورية موقف متشدد من ذلك حال دون معاملتها معاملة المهزوم بالكامل على الأقل، أمام

حليف الولايات المتحدة الأميركية الاستراتيجي "إسرائيل"، ومن دون إسقاط حقوقها ومواقفها النضالية النابعة أصلا من التزام سورية بحقوق الأمة العربية ونضالها من أجل القضايا المصيرية، وعلى رأسها قضية فلسطين.

٢ ــ انهارت منظومة حلف وارسو، ثم انهار الاتحاد السوفييتي وانتهى، وتقسمت جغرافيته السياسية بعد أن تفكك الجص الذي ربط جغرافيا البلدان التي ألحقت بروسيا أو صنعت الاتحاد السوفييتي بقيادة روسيا، ولم يعد لذلك حضور سياسي أو عسكري أو ثقافي أو اقتصادي أو اجتماعي، الأمر الذي ترك نتائج كثيرة وهامة في كل مناحي الحياة، ليس في تلك البلدان فقط وإنما في بلدان العالم النامي وتلك التي في طريق النمو، وباستراتيجيات تلك البلدان على الصعد المشار إليها جميعا. وانعكس ذلك في العلاقات الدولية وفي مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة والمنظمات والهيئات الدولية المنبثقة عنها؛ وأصبح مجلس الأمن، على سبيل المثال، مؤسسة أميركية إلى حد كبير [١]، بعد أن كان مؤسسة شبه معطلة بسبب الصراع الذي كان يدور داخلها. وسوف أشير لاحقا إلى ما نتج عن ذلك من ازدواجية معايير ومكاييل في مجلس الأمن الدولي.

٣ ــ انتهت الحرب الباردة في العالم وبدأت حروب من نوع آخر تتمخض عنها الأحداث وصراعات المصالح وسوف يظهرها الزمن القريب ومن ذلك مثلا:

ــ الحرب التجارية بين أميركا وأوروبا الغربية التي توشك على الانفجار، وكلما اقتربت من ذلك تعطى لها المسكنات وتجمد إلى أن تحقق أوروبا الغربية حضورها كقوة ذات استقلال شامل، بعد وحدتها، الأمر الذي يواجهه الأميركيون بتحالفات جديدة في الشرقين الأدنى والأقصى والخليج العربي، وفي أماكن وجود الطاقة والأسواق التجارية ومناطق النفوذ الهامة والمؤثرة.[٢]

- محاولة استقطاب قوى جديدة تصبح ذات عضوية دائمة في مجلس الأمن الدولي، على أرضية ما حققته من تقدم وازدهار ونجاحات في المجال الاقتصادي بالدرجة الأولى، مثل اليابان وألمانيا الموحدة[٣].

وذلك بغية كسب قوى أخرى تكون أطراف التحالف المقبل، في حال انفجار الصراع البارد أولا فالساخن أخيرا الذي أذنت الحرب العالمية الثالثة بولادته، بين أوروبا الموحدة وأميركا، وهي حرب على المصالح والنفوذ، وسوف تكون ذات وجه اقتصادي ثقافي بالدرجة الأولى.

- محاولة البحث عن صيغة للعلاقات ولكيفية اتخاذ قرارات مختلفة عن تلك التي كانت سائدة (النظام العالمي) في أثناء الحرب الباردة، ولا سيما في مجال القرارات الدولية وفي الأطر والهيئات التي تصنع تلك القرارات. ولكن ذلك بقي على مستوى اللعب بالأوراق في إطار امتصاص موجات السخط في العالم، وتهدئة غضب بعض الشعوب، وتقديم أجوبة استهلاكية حول قضايا وأسئلة جوهرية تطرحها الدول والشعوب، ولا سيما بعد أن أعلن جورج بوش أمام مجلسي الكونغرس، بعد نهاية حرب الخليج الثانية، أن القهر والخوف لم يعد لهما مكان في العالم وأن عهدا جديدا من العلاقات الدولية سوف يسود العالم، وأن حلولا ملائمة لكل القضايا المطروحة سوف تجد طريقها إلى الوجود، وأن هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن سوف يستعيدان حضورهما وهيبتهما، وستراعى مبادئ العدالة الدولية.. إلى آخر ذلك من إعلانات إيجابية زرعت الآمال في نفوس ودول وشعوب، ولكن الإعلانات تبقى دائما شيئا مغايرا للتطبيق، لا سيما في لعبة المصالح التي تلعبها القوى الكبرى[٤].

٤ - احتل الأقوياء المنتصرون في الحرب العالمية الثانية / أي الحلفاء / بعد أن سووا خلافاتهم وانتهوا من صراعاتهم، احتلوا مجلس الأمن بقيادة موحدة أجبروا على الانصياع لها أو اختاروا

الرضا بها، وأصبح لزاما عليهم أن يأتمروا بأوامرها تحت تأثير القوى والمعطيات والمؤثرات الآتية:

- قوة السلاح النووي والتقليدي معا بعد انهيار قوة الاتحاد السوفييتي، أو إبطال مفعولها المناوئ للقوة الأميركية، واطمئنان الولايات المتحدة الأميركية إلى تفوقها الشامل في العالم؛ وقد أشار إلى ذلك بوضوح وزير الدفاع الأميركي " ديك تشيني " حين قال : " لا توجد دول حليفة معادية لمصالحنا، بل إن قوى دول العالم، وأكثرها إمكانات وقدرات، هي دول صديقة لنا. وليس هناك منطقة في العالم تشكل خطرا على مصالحنا ويسيطر عليها حكم معاد وغير ديمقراطي(٥)."
- قوة الاقتصاد الأميركي وارتباطاته المؤثرة وسيطرته على النفط، لا سيما في الخليج العربي كله بعد إخراج العراق من السوق.
- قوة الإعلام الأميركي المؤثر بوسائل تقنية متقدمة، وانتشاره، وسيطرته، مع أخذ القوى الغربية الموالية تقليديا للولايات المتحدة الأميركية ـ لا سيما بريطانيا ـ بعين الاعتبار.
- قوة تأثير الجاسوسية الأميركية أو الـ C.I.A على مواقع قرار متعددة سياسيا في العالم.
- سيطرة الولايات المتحدة الأميركية على سوق السلاح العالمي بالدرجة الأولى؛ حيث أصبح مكانها هو المكان الأول، بعد أن تراجعت مبيعات الدول المنافسة، لا سيما الاتحاد السوفييتي، وبعد فتح أسواق مبيع جديدة تمت السيطرة عليها كليا من قبل أميركا، وهي أسواق الخليج العربي : السعودية ـ الكويت ـ الإمارات العربية المتحدة ـ قطر ـ عمان ـ البحرين...الخ وتبين الأرقام الآتية ارتفاع المبيعات الأميركية في السنوات الأخيرة مقارنة مع مبيعات سواها :

/ الأرقام بملايين الدولارات الأميركية /(٦)

	١٩٨٥	١٩٨٦	١٩٨٧	١٩٨٨	١٩٨٩	١٩٩٠
الولايات المتحدة	٨٩٤٣	١٠٣٠٤	١٢٥٩٦	١٠٥٠٣	١١٧٤٩	٩٥٢٨
الاتحاد السوفيتي	١٣٤٥٨	١٤٧٣١	١٤٩١٦	١٢٥٥٩	١٢٢٢٠	٦٣٩٧
فرنسا	٣٩٧٠	٤٠٩٦	٣٠١١	٢٣٠٠	٢٥٧٧	١٨٢١
انكلترا	١٨٤٧	١٥٠٠	١٨١٧	١٤٠١	١٨٠٠	١٢٣٦
الصين	١٣٥٢	١٤٦٣	٢٥٥٣	١٨٦٨	٨٧٤	١٠٠٣

ومن المعروف جيدا أن الولايات المتحدة الأميركية وفرنسا وبريطانيا تحديدا، قد زادت مبيعات كل منها في عام ١٩٩١ و١٩٩٢ عن الدول التي كانت تزاحمها، لا سيما في أسواق الخليج العربي، بعد أن توقفت مبيعات الاتحاد السوفييتي تقريبا إلى أهم المستوردين لأسباب معروفة(٧).

وبسبب من هذا كله أصبح القرار السياسي الأميركي هو قرار عالمي ملزم / طوعا أو كرها / للآخرين، وممهور ببصمات ممثلي الدول الأخرى المقهورة أو المشتراة أو المبهورة بخاتم السيد الأميركي في حلته الجديدة.

٥ ــ إن صورة المواجهة القادمة بين أقوياء ما بعد انتهاء الحرب العالمية الثالثة، التي تجلت في مراحل ونتائج منها : الحرب الباردة ــ وحرب الخليج الثانية ــ واحتلال منابع النفط، والسيطرة على الطاقة والأسواق التجارية، لا سيما أسواق تجارة السلاح(٨)، صورة تحدد معالمها بالدرجة الأولى المقومات والاحتياجات الآتية:

ــ تأمين المصالح الرئيسة المتمثلة بالطاقة، لا سيما البترول، بالكميات والأسعار المطلوبة(٩).

ــ تأمين الموارد البترولية اللازمة للتقدم الصناعي / إعادة الدولار البترولي إلى الولايات المتحدة الأميركية /.

ـ تأمين بعض النفوذ للحفاظ على الهيبة والمصالح والأسواق والهيمنة.

ـ المشاركة في القرار السياسي للآخرين : المالكين للقرار والمؤثرين فيه.

ـ الصراع الخفي لتوسيع دائرة المكاسب والمصالح، وتأمين السيطرة على الأسواق التجارية الواعدة (١٠)

ـ التوسع النسبي بامتلاك التقانة " التكنولوجيا " العالية، والتصنيع النووي، والقوة الاقتصادية.

ومن ذلك نستنتج أن الحروب القادمة سوف تكون حروبا اقتصاديه بالدرجة الأولى ــ ثقافية إعلامية بالدرجة الثانية ــ وتقوم قوة الردع في تلك الحروب على الأسلحة الاستراتيجية (نووية وغير نووية) بالدرجة الأولى، وعلى الأسلحة التقليدية وذات القوة التدميرية العالية بالدرجة الثانية، ولكنها لا تستخدم إلا عند الضرورة. ومن أجل إبعاد شبح حرب بين الأقوياء بدأ تصنيع أعداء جدد، ورسم أهداف استراتيجية جديدة وخطط ذات بعد زمني مديد، ليتسنى للأقوياء الاستمرار في نهب الضعفاء أولا، والتقليل من الاحتكاك المميت بين دوائر نفوذهم ثانيا؛ وإعادة ترتيب الأولويات في ضوء التعايش الفعال فيما بينهم، والاستمرار في خلق بؤر توتر وشياطين جدد، وأعداء مشتركين، تاريخيين أو غير تاريخيين، لتبقى هناك مسوغات لترويج السلع السوداء، ولخلق مناخ تزدهر فيه تجارة الدم والسلاح والأسواق السود المرتفعة التكاليف من كل نوع. وكبعض المؤشرات على ذلك نذكر قول : دجرجيان مساعد وزير الخارجية الأميركي في ٤/ ٦/ ١٩٩٣ إذ قال :" الإسلام هو الأيديولوجيا المعادية للغرب " غلاف مجلة الإيكونومست.

ولإبعاد شبح الحاجة والبطالة والتضخم والمجاعات والكوارث عنه، بدأ الغرب أو الشمال عموما، بتأجيج صراعات والتسبب في خلق مشكلات وكوارث من أنواع مختلفة، وتشجيع أوضاع وتنفيذ خطط للقضاء على:

ـ القنابل السكانية المتفجرة في آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية.

ـ المزاحمة الاقتصادية الممكنة في بعض البلدان لا سيما اليابان ـ والنمور الأربعة ـ (كوريا الجنوبية ـ تايوان ـ هونغ كونغ ـ ماليزيا.... الخ). ومما لجأ إليه: ـ رفع وتائر تهديد الجوع والقهر والنهب المنظم، ليبيد الناس بعضهم بعضا، ولتنشأ صراعات مميتة، وكوارث تمحق غير الغربيين، ولا بأس، حسب وجهة نظرهم، من السكوت على انتشار الأمراض وتفشي أنواع البؤس (على حد تعبير هنري لوبين اليميني الفرنسي مثلا)، وذلك باللجوء إلى:

ـ تشديد الضغط على البلدان المتجهة نحو النمو، التي لا تستطيع تسديد فوائد ديونها للدول الغنية.

ـ نشر أشكال الفساد والانحلال الاجتماعي والخلقي .

ـ تخريب البيئة عن طريق دفن النفايات النووية، والتشجيع على قطع الغابات لسداد الديون، ونمو المرض والجهل، بهدف التخلص من أكبر قدر ممكن من البشر ما دام ذلك المد السكاني مستمرا بالانتشار.

ويمكن، من خلال قراءة الأرقام التالية، الوقوف على حالة العالم التي خلقها، أو تلك التي استمر في المحافظة عليها، النظام الذي يسمي نفسه عالميا وجديدا.

* " يشير تقرير التنمية البشرية الصادر عن الأمم المتحدة عام ١٩٩٢ إلى أن ٦٠% من سكان العالم يحصلون على ٥٥، ٥% من الدخل العالمي ويملكون ٨٤ر٤ % من التجارة العالمية. بينما يحصل خمس السكان في العالم على ٨٢.٧% من الدخل العالمي وعلى ٨١،٢% من التجارة العالمية وعلى ٦، ٩٤% من الإقراض التجاري. ويستهلك الشمال، حيث يوجد ربع سكان العالم فقط، يستهلك : ٧٠% من طاقة العالم ٧٥% من معادنه و ٨٥% من أخشابه و ٦٠% من غذائه " (١١)

* " يبلغ دخل الفرد السنوي في دول الشمال ١٧٠٠٠ دولارا ولا يتجاوز دخل الفرد في البلدان النامية ٣٤٠ دولارا في العام "(١٢)

* "إن مجموع ديون البلدان النامية قفز من ٦٥٠ مليار دولار عام ١٩٨٠ إلى ١٣٥٠ مليار دولار عام ١٩٩٠ ولا تجد البلدان النامية سبيلا إلى مقاومة أزمتها الاقتصادية سوى في تصدير السلع الأولية إلى دول الشمال التي لجأت بدورها إلى تخفيض الأسعار. وهكذا تقع الدول النامية في حلقة مفرغة فكلما ازدادت في دفع ديونها ازدادت هذه الديون " (١٣)

هذا فضلا عن الأوضاع الناتجة عن استقطاب الطاقات العالمية وهجرة العقول وتفاقم الأوبئة والجوع والقهر في العالم المتفائل بالنمو.

٦ ـ برزت بشكل جلي وفضاح ازدواجية المعايير والمكاييل في مجلس الأمن الدولي، ولدى الأقوياء الغربيين المسيطرين عليه، لا سيما الولايات المتحدة الأميركية، وسوف أتوسع قليلا في هذه النقطة لأنها أكثر ما يكشف حقيقة ما يسمى " النظام العالمي الجديد " وتوجهاته، وحقائق المتغيرات الدولية وانعكاساتها على العرب، وعلى الصراع العربي الصهيوني، والقضية الفلسطينية، وما يتصل بالأمة العربية والعالمين العربي الإسلامي بشكل عام.

لقد كان الغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة الأميركية، منحازا دائما إلى جانب "إسرائيل"، وقد عمل ضد العرب بانحياز واضح، منذ أن فكرت بريطانيا في الأربعينيات من القرن الماضي بإنشاء كيان صهيوني في الوطن العربي، واستمر هذا الأمر إبان فترة الاستعمار المباشر وبعدها. وحين أقيم الكيان الصهيوني رسميا، على أرض فلسطين باعتراف دولي في الأمم المتحدة، كان الغرب يتسابق مع الشرق / الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي خاصة/ لدعم ذلك الكيان، وكان كل من الشرق والغرب يتطلع إلى أن يكون ذلك الكيان أداته لتأمين أهدافه وسياساته ومصالحه وتطلعاته وأحلامه. ومنذ

عام ١٩٤٨ لم تحترم "إسرائيل" قرارا دوليا واحدا صدر عن الأمم المتحـــدة، ولم تنفذ شيئا مما طلب إليها أن تنفذه، واستمر هذا الوضع مع استمرار حماية الغرب لها وتصاعد تلك الحماية، إلى أن أصبح كل قرار يصدر عـــن مجلـــس الأمن والأمم المتحدة معروفة نتيجته مسبقا، ومعروف موقف الولايات المتحـدة الأميركية بالذات منه: فهي ضد العرب، وهي متعـــهدة تعـــهدا تامـــا بحمايـــة "إسرائيل" من القرارات " المؤذية "، ومتعهدة بحمايتها من تنفيذ أي قرار دولي ضدها، فضلا عن استخدامها المستمر لحق النقض " الفيتو" لصالح "إسـرائيل"؛ ونادرا ما استخدم قرار نقض من أية دولة ما، من الدول التـــي تتمتـــع بذلـــك الحق في مجلس الأمن الدولي لمصلحة العرب، وربما كان ذلك لأنـــهم كـــانوا دائما يتقدمون بالشكاوى ويقفون على أبواب المنظمة الدولية ومجلس الأمـــن طالبين الإنصاف وتنفيذ القرارات ورفع العدوان والكف عن العبث بمقدراتـــهم، ومجلس الأمن مع الأقوياء وليس مع الضعفاء.

في ٢٤/ ١١/ ١٩٥٣ صدر أول قرار إدانة لإسرائيل هو القـــرار رقـــم ١٠١ " يحمل استنكارا شديدا " لهجوم "إسرائيل" على قبية وتوالت القـــرارات منذ ذلك التاريخ:

١٠٦ ــ ١١١ ــ ١٢٧ ــ ١٦٢ ــ ١٧١ ــ ٢٢٨ ــ ٢٣٧ ــ ٢٤٨ ــ ٢٥٠ ــ ٢٥١ ــ ٢٥٦ ــ ٢٥٩ ــ ٢٦٢ ــ ٢٦٥ ــ ٢٦٧ ــ ٢٧٠ ــ ٢٧١ ــ ٢٧٩ ــ ٢٨٠ ــ ٢٨٥ ــ ٢٩٨ ــ ٣١٣ ــ ٣١٦ ــ ٣١٧ ــ ٣٣٢ ــ ٣٣٧ ــ ٤٢٥ ــ ٤٢٧ ــ ٤٤٤ ــ ٤٤٦ ــ ٤٥٠ ــ ٤٥٢ ــ ٤٦٥ ــ ٤٦٧ ــ ٤٦٨ ــ ٤٦٩ ــ ٤٧١ ــ ٤٧٦ ــ ٤٧٨ ــ ٤٨٤ ــ ٤٨٧ ــ ٤٩٧ ــ ٤٩٨ ــ ٥٠١ ــ ٥٠٩ ــ ٥١٥ ــ ٥١٧ ــ ٥١٨ ــ ٥٢٠ ــ ٥٧٣ ــ ٥٨٧ ــ ٥٩٢ ــ ٦٠٧ ــ ٦٠٨ ــ ٦٣٦ ــ ٦٤١ ــ ٦٧٢ ــ ٦٧٣ ــ ٦٨١ ــ ٦٩٤ ــ ٧٢٦ ــ ٧٩٩ .

إضافة إلى القرارين الشهيرين /٢٤٢ ــ ٣٣٨/ وهناك قـــرارات مـــن بينها وافقت عليها الولايات المتحدة الأميركية ولكن أيا من هذه القرارات الـــ ٧٠/ الصادرة عن مجلس الأمن، والقرارت الصادرة قبل عام ١٩٥٣ ابتـــداء من القرار ١٨١/ لعام ١٩٤٧ مرورا بالقرار ١٩٤ الذي ينـــص علـــى حـــق

العودة وعشرات القرارات الأخرى، أقول إن أيا من هذه القرارات لم ينفذ؛ ولم يصدر بحق "إسرائيل" قرار واحد على أساس الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة، لأن ذلك قد يقود إلى تنفيذ القرارات بالقوة الدولية ويجيز فرض عقوبات على من لا يحترم تنفيذها. وقد قامت الولايات المتحدة الأميركية باستخدام حق النقض " الفيتو " /٣٠/ مرة لمنع اتخاذ قرارت إدانة شديدة " لإسرائيل " في مجلس الأمن. وقد منعت عرض موضوع المبعدين على مجلس الأمن بعد امتناع "إسرائيل" عن تنفيذ القرار ٧٩٩ وأفرضت على المعنيين صفقتها المعروفة مع "إسرائيل" حول هذا الموضوع، وقضت على القرار تماما، وربما تم ذلك بتواطؤ بعض العرب معها، لتحقيق مكاسب أمنية وأهداف سياسية ضيقة، ولتنفيذ اتفاقيات هزيلة كانت تطبخ سرا في أوسلو كان من نتيجتها التصريحات والتحركات التالية، بعد أن ألغت الولايات المتحدة الأميركية قرار الأمم المتحدة رقم ٣٣٧٩ الذي يساوي الصهيونية بالعنصرية، وذلك بعد انعقاد مؤتمر مدريد :

ـ فقد صرح مايكل ماكوري، المتحدث باسم الخارجية الأميركية في ١٧ ـ ١٨ / ٩/ ١٩٩٣ بما يأتي : " إن الوقت قد حان لنرى إذا كانت هناك قرارات للأمم المتحدة تتضمن أشياء مكدرة بحق "إسرائيل" يمكن إلغاؤها وتعليقها " عن السفير ١٨/٩/ ١٩٩٣ صـ ١.

ـ ثم صرح الرئيس كلينتون بما يأتي : " إن السلام في تلك المنطقة، والمعزز كما يجب، من خلال إلغاء قرارات الأمم المتحدة القديمة، سيساعد على إطلاق الإمكانيات الاقتصادية الضخمة في تلك المنطقة، وسيهدئ أحد المصادر الدائمة للتوتر في الشؤون الدولية " عن السفير في ٢٨/ ٩/ ١٩٩٣ صـ ١١.

ـ وبوحي من ذلك، وتحت تأثيره وبدافع منه، عملت لجنة، شارك فيها: أميركيون، وإسرائيليون وفلسطينيون ومصريون على إلغاء /٣١/ قرارا للهيئة الدولية صدرت بحق "إسرائيل" جراء ممارسات بشعة قامت بها، وتم اتخاذ قرار من الهيئة الدولية بذلك. ونحن نلاحظ هنا إلى أي مدى تبلغ حرص الأميركيين على غسل ذاكرة الشعوب وتنظيف التاريخ من أية إدانات "

لإسرائيل"، بينما يبقى الاتهام المفتعل بالإرهاب وممارسة العنف ــ أي مقاومة الاحتلال وهو أمر مشروع ــ مما يلاحق به العرب.

لقد كانت الولايات المتحدة الأميركية تدعي أنها باتخاذها تلك المواقف في مجلس الأمن الدولي والأمم المتحدة تبطل محاولات الاتحاد السوفييتي نصرة حلفائه من العرب في أثناء الحرب الباردة، ولكنها على الرغم من وجود أصدقاء وحلفاء لها من العرب فإنها لم تنصرهم يوما في قضية فلسطين ولو بقرار واحد ضد "إسرائيل"، اللهم إلا إذا كان أي من العرب لم يطالبها جديا بذلك أو منعها من اتخاذ مثل ذلك الموقف؟! ولكن بعد انتهاء الحرب الباردة وغياب المنافس، لماذا بقيت الولايات المتحدة الأميركية على مناصرتها العمياء " لإسرائيل "، وحقدها المطلق على بعض العرب ؟! وفي وضع صارخ مثل وضع الحصار المفروض على الشعب العربي في العراق، والشعب العربي في ليبيا، نرى أن الولايات المتحدة قادت مجلس الأمن وفرضت عليه اتخاذ قرارات لا مثيل لها في تاريخه، وفرضت نصوص تلك القرارات، التي جاءت على أساس الفصل السابع من الميثاق، وسارعت إلى تنفيذ العقوبات وملاحقة تنفيذها بصرامة لا مثيل لها، ومثابرة وتقصد للإذلال؛ وتابعت تهديد كل من يحاول التفكير في طرح موضوع رفع الحصار عن الشعب العربي في البلدين. وفي حالتي : حادث مثل لوكربي وحادث الطائرة الفرنسية، اللذين يزعم أن الجماهيرية وراء إسقاط الطائرتين فيهما، نفذت القرارات على الجماهيرية تماما، ويطلب اليوم زيادة العقوبات إلى حدود فرض مقاطعة على صادرات ليبيا من البترول؛ ولكن حوادث أخرى منها اختطاف "إسرائيل" لطائرتين عربيتين " ليبية وسورية "، وإسقاطها عمدا لطائرة ركاب ليبية وقتل جميع من فيها، في إطار ممارسة صريحة ومفضوحة لإرهاب الدولة، فإن الولايات المتحدة لم تفعل شيئا، بل باركت ذلك و سكتت عليه، ولم يتحرك مجلس الأمن لاتخاذ قرارات صارمة بشأن ذلك.

وكأن إرهاب دولة "إسرائيل" أمر مشروع لأنه يوافق المصالح الأميركية والغربية، ودفاع العرب عن أنفسهم أمر يخرج عن نطاق الشرعية الدولية لأنه يبقي للعرب حضورا ما، والولايات المتحدة الأميركية لا تريد لهم ذلك الحضور

لأن "إسرائيل" لا تريده ولا تطيقه وأميركا تنفذ لـ "إسرائيل" ما تريد. وإذا أخذنا حوادث القتل اليومي المستمر في فلسطين المحتلة، أو أخذنا الأوضاع المأساوية في لبنان، أو أخذنا القرار ٤٢٥ القاضي بانسحاب "إسرائيل" الفوري من جنوب لبنان، أو القرار ٧٩٩ القاضي بعودة المبعدين من مرج الزهور إلى ديارهم، نجد أن الدور الأميركي يمثل تواطؤا لا نظير له ضد من أتى القرار لصالحهم، ويتواطأ ضد حقوق الإنسان التي تدعي الإدارات الأميركية المتعاقبة أنها تحافظ عليها؛ لا سيما في نطاق " النظام العالمي الجديد " الذي تصنعه وتقوده وتدعيه (؟!) ويصدق في هذه الحالة قول بول فندلي في كتابه " الخداع" : " إن ما يطغى على جميع التحديات على الرغم من من أهميتها، هو انتهاك "إسرائيل" المستمر لحقوق الإنسان العربي، وتواطؤ الولايات المتحدة مع هذه الممارسات ونفاقها فيما يتعلق بها " (١٤).

والولايات المتحدة الأميركية تزعم أنها : قائد للنظام العالمي الجديد وصانع له، وبهذه الصفة تحافظ أولا على حقوق الإنسان وثانيا على الديمقراطية؛ ولكن يبدو أنها لا تحافظ إلا على مصالحها، ومصالح "إسرائيل" الحليف الاستراتيجي لها، ذلك لأنها، حقا وفعلا، لا تحترم حقوق الإنسان، وتزيّف الديمقراطية، وتكيل بأكثر من مكيال، ولا تحترم القيم الخلقية في العلاقات الدولية؛ وهي على استعداد للاستمرار في نهب الشعوب وتدميرها، وإفساد البيئة والمناخ والحياة، تحت اسم التقدم والمصلحة العليا لأميركا والغرب، وتحت شعارات إنسانية في بعض الحالات؟.

إن الولايات المتحدة الأميركية قالت في حرب الخليج الثانية على لسان الرئيس جورج بوش : "ليس هناك في العالم المتمدن مكان للقهر والإرهاب". ويبدو أنها تقول ذلك بجدية مطلقة، ولكن العالم المتمدن بالنسبة لها هو الغرب وإسرائيل فقط؛ أمّا الآخرون فبهائم الأرض تجوز إبادتهم، حسب المفهوم العنصري الذي يتبناه الصهاينة والمتصهينون في الغرب. ذلك أنه حين تمارس "إسرائيل" القهر والإرهاب المنظّمَين ضد العرب، وتقوم بتدمير البيوت والأجساد والآمال، وتسكت أميركا على ذلك أو قد تباركه، فذلك يغدو فعلاً

مشروعاً بنظر الغرب، لأنه لا يتم ضد العالم المتمدن الذي هو هم وحدهم، وإنما يتم ضد آخرين خارج دائرة الأنسنة بالمفهوم الغربي لها .؟!

ـ كانت الولايات المتحدة الأميركية مع الديمقراطية ولكنها اضطرت للاختيار، عندما انتصرت الديمقراطية أو كادت في الجزائر، فقالت بلسان مساعد وزير الخارجية دجريجيان (سفيرها في "إسرائيل" حالياً): "إن واشنطن تنظر بريبة لتلك القوى التي يمكن أن تستخدم العملية الديمقراطية للوصول إلى السلطة فقط لتقوم بتدمير العملية ذاتها من أجل الحفاظ على السلطة وفرض الهيمنة السياسية (....) وبينما نؤمن بمبدأ لكل شخص واحد صوت واحد فإننا لا ندعم مبدأ لكل شخص صوت واحد ولمرة واحدة " (١٥) وعندما كان يلتسن في البرلمان والقوات تحاصره كانت الديمقراطية إلى جانب يلتسن، وعندما أصبح يلتسن رئيساً وحاصر البرلمان وقصفه بمدافع الدبابات كانت الديمقراطية الأميركية معه أيضاً. ولم تكن في الحالتين إلاّ مع مصالحها ومع من يؤمن بتلك المصالح ويخدمها.

لقد كانت أميركا بعد حرب الخليج مباشرة وفي أثناء الأزمة التي سبقت الحرب، تبشر بعالم لا توجد فيه مبيعات للأسلحة ولا يتوجب فيه استخدام القوة أو اللجوء إليها. لقد كانت في ذلك الوقت تحتاج إلى حلفاء، وتنثر الوعود والكلام المعسول وتبشر بعالم مغاير، ولكنها بعد ذلك لجأت إلى نقض ما قالت وفعلت عكس ما وعدت به تماماً، وهذا هو النفاق الصُراح، فقد قالت ما قالت لتضمن احتكار سوق السلاح وسوق النفط معاً، وتفوز بالسوق الاستهلاكية، وإذا كان الحديث عن سوق النفط معلناً أو شبه معلن فإن الحديث عن سوق السلاح لم يكن كذلك، ولكنه بعد انتهاء الحرب أصبح في المقدمة:

" إن واشنطن على استعداد للتعاون الأمني الوثيق مع حلفائها في الخليج عبر " مبيعات الأسلحة " والتدابير الأمنية الثنائية، مثل إجراء المناورات العسكرية المشتركة بين وقت وآخر، وتعزيز وصيانة الوجود

البحري الأميركي في الخليج، وتدابير حق الوصول وتخزين المعدات والأجهزة العسكرية المهمة في المنطقة " (١٦)

ولجأت أميركا لتقوية الترسانة العسكرية " الإسرائيلية " ولدعم تطوير صواريخ مثل " حيتس، آرو ـ أي السهم" معها بضمها بدءاً منه إلى مبادرة الدفاع الاستراتيجي " حرب النجوم" لعام ١٩٨٦، وكذلك دعم وتطوير أنموذج الطائرة المقترح من قبلها (لافي) وتطوير دبابة من دون عناصر بشرية. وأعادت النظر بالاستراتيجية الجديدة مع "إسرائيل"، وستنتقل قواعدها البحرية من نابولي إلى حيفا، وهي توسع ميناء حيفا منذ أكثر من عام تقريباً لتجعله مركزاً للأسطول الأميركي السادس، ليس للصيانة وإنما لاستخدامه كقاعدة عسكرية تؤمن مصالح أميركا، وأمن "إسرائيل"، وتؤمن أيضاً سيطرتها وتفوقها في المنطقة، وقد قال الرئيس كلينتون متوجاً نهج الانحياز بوضوح قال: " سوف أنشط بقوة أكثر لوقف الصواريخ الخطيرة في الشرق الأوسط، وأصر على جهود دولية قوية لإبقاء أسلحة الدمار الشامل خارج أيدي دول مثل إيران والعراق وسورية وليبيا. وعلى سياستنا أن تشمل ليس فقط الجهود لتقليص هذا الانتشار، بل يجب أن تشمل تأكيداً لالتزامنا القوي لصيانة التفوق الإسرائيلي العسكري النوعي ضد خصومها المحتملين. وأيضاً فإن إدارة كلينتون سوف تتعامل مع النزاع العربي الإسرائيلي كنزاع متعلق ببقاء "إسرائيل" على قيد الحياة " وقال كلينتون إثر لقائه مع إسحاق رابين في ١٥/ ٣/ ١٩٩٣ " لقد بدأنا حواراً يهدف إلى رفع علاقاتنا إلى مستوى جديد من الشراكة الاستراتيجية لنكون شركاء في السعي إلى السلام، وشركاء في السعي إلى الأمن " والأمن المقصود هو أمن "إسرائيل" طبعاً. وهذا الذي يقوله الرئيس الأمريكي الحالي هو قول صادر عمن يفترض فيه أن يدخل راعياً للسلام، وشريكاً نزيهاً كامل الشراكة في المفاوضات؛ فأي انحياز وأي مفهوم للعدل، وأية مكاييل متعددة توجد في البيت الأبيض الذي يدعي قيادة العالم إلى نظام جديد؟! بل وأي عالم وأي نظام جديد أصلاً؟!؟.

ـ لقد أوقفت أميركا المساعدات الطفيفة التي كانت تقدمها لباكستان حتى تمنعها من تطوير سلاح نووي وامتلاكه. وقامت بحرب تدمير

للعراق، أعقبت حرب إخراجه من الكويت، لأنها تريد أن تمنعه من امتلاك السلاح النووي ومن أي سلاح آخر قد يهدد "إسرائيل".

ـ وحاصرت ليبيا لتمنعها من امتلاك قوة ما، ولتمنعها من القيام بأي تحرك قد يؤثر سلبياً على سياستها وعلى مخططاتها في المنطقة، وعلى ما فرضته من مسيرات تصفوية للقضايا الرئيسة والمركزية فيها.

ـ ومنعت وصول أسلحة تقليدية إلى سورية، وتعاونت مع الغرب، لاسيما مع ألمانيا، من أجل ذلك، وضغطت على دول مثل تشكوسلوفاكيا سابقاً، وبولونيا لتمنعها من بيع دبابات لسورية. وضيقت على كوريا الشمالية لأنها تبيع صواريخ لسورية، ولأنها تحاول أن تمتلك سلاحاً نووياً لنفسها. كما ضغطت على الصين من أجل عدم بيع أسلحة لسورية. وكان هذا سيبدو مقبولاً ومعقولاً لو أن أميركا نفذت مثل هذه السياسة في كل أنحاء العالم على قدم المساواة بين الدول، ولكنها لم تفعل ذلك على الإطلاق.

ـ فقد سكتت على مشاريع تطوير السلاح النووي القائمة بين "إسرائيل" وجنوب أفريقيا، وهي تأخذ منذ عهد نيكسون وغولدا مائير بعدم إثارة موضوع التسلح النووي الإسرائيلي، وعدم السماح بإثارته.

ـ ولم تمنع "إسرائيل"، ولم تَدَعْ أحداً يفكر في طرح موضوع منعها، من تطوير الأسلحة النووية لديها، تلك التي تزيد على مئتي رأس نووي، مع وجود القدرة على إنتاج ذلك النوع من السلاح وتطويره. بل على العكس من ذلك قامت بتعاون استراتيجي مع "إسرائيل" لتطوير كل أسلحتها، ولاسيما الصواريخ البالستية، الحاملة لرؤوس نووية، وإطلاق الأقمار الصناعية، وساعدتها على امتلاك تَقَانَة عالية في مجال الحواسيب العملاقة من نوع " كربي"، وجعلتها تشارك في

برنامج حرب النجوم، وقدمت لها الأموال اللازمة لكل مشاريعها الاستيطانية والعسكرية والعدوانية، وقدمت لها أيضاً مظلة سياسية وعسكرية لحمايتها، وسخّرت كل قدراتها لترويجها وتسويقها عربياً، وجعل عرب من العرب يخدمون بقاءها ومشروعها الاستيطاني، بدفع أميركي، أليس هذا هو ازدواج المكاييل بعينه ؟! وازدواج المكاييل يبرز في قضايا أخرى مثل قضية البوسنة والهرسك، مأساة العصر وعار الإنسانية، وعنوان الإفلاس الروحي والخلقي في الغرب والشرق، الشمال والجنوب، على حد سواء.

فقد سمح للصرب، حلفاء "إسرائيل"، بذبح المسلمين وإبادتهم على أساس (عرقي — ديني) صريح، ومنع عن المسلمين البوشناق السلاح، وبقوا في حالة الحصار قيد الإبادة الروحية / بالاغتصاب والقهر والتجويع والحصار / والإبادة الجسدية / بالقتل والتدمير والحصار المطلق ومنع وصول السلاح؛ وبعد أن انتهى برنامج الصرب العنصريين أو كاد، تدخلت الولايات المتحدة الأميركية لتظهر بمظهر الحامي للبوسنيين من الجوع ؟! ولكن حتى الطعام لم يصل إلى من يعانون من المرض والجوع وحصار الموت.

ولم يتحرك مجلس الأمن ليتدخل من أجل وقف المذبحة، لأن ذلك سيكلف الكثير حسب قول الأميركيين، وربما كانت الحقيقة الساطعة والمؤلمة والبسيطة هي أن ذلك التدخل غير مغطى ماليا، أي أن المرتزق الأميركي لن يلقى من يدفع له أجور التدخل، وهو غير معني بالأمور الإنسانية والخلقية حقا إلا في الإعلام، وحين يشكل ذلك ستارا للتدخل المباشر من أجل فرض الإرادة والنفوذ والقرار وتأمين المصالح الآنية أو البعيدة الأمد. والأميركي معني أيضا بعدم إحراج يلتمس أمام الروس الذين يدعمون الصرب بكل شيء، ويريدون أن ينجح عنصريوهم بإبادة المسلمين البوشناق(١٧).

— موضوع الاستيطان ودعمه بضمانات قروض بعشرة مليارات دولار أمريكي، عدا المليارات الثلاثة التي تقدم " لإسرائيل " سنويا، والتي أوصلت مجموع المساعدات حتى الآن إلى ما يزيد على ستين مليار

دولار قدمتها أميركا " لإسرائيل " منذ الخمسينيات، وهو ما لم تفعلـــه دولة مع دولة.

ألا يشكل هذا مظهرا صارخا من مظاهر ازدواجية المكاييل حيال قضيـــة واحدة هي قضية حقوق الإنسان، التي تعني الأميركي كثـــيرا ويتشـــدق بـــها الساسة الغربيون دائما ؟؟

فهل يستحق اليهودي الذي يعيش في روسيا أو سواها أن تكون قضيـــة انتقاله إلى وطن الغير واستيطانه فيه بالقوة، وعلى حساب حياة الفلسـطينيين، قضية إنسانية تدفع من أجلها مليارات الدولارات وتغطى عسكريا واقتصاديـــا وسياسيا وإعلاميا، بينما تصبح قضية الفلسطيني الذي يطرد من وطنه أو يبـاد في وطنه، فيضطر للدفاع عن نفسه وصغاره وبيته الوحيد ووطنـــه الوحيـد، قضية إرهابية مدانة تقع خارج حدود حقوق الإنسان في العيـــش والحريـــة والكرامة وتستدعي تعاون جميع الدول لمقاومته ؟!

ألا يشكل هذا الموقف نقضا تاما لقضية رئيسة تتمسك بـــها الولايـــات المتحدة الأميركية هي قضية حقوق الإنسان ؟! إن هـــذا المنطـــق المـــزدوج موجود في أميركا بالدرجة الأولى وينبغي ألا نستغرب ذلـــك كثـــيرا، فأميركـــا قامت أصلا على مبدأ إبادة الشعب الأصلي ـــ الهنود الحمر ـــ وعلى أســـاس عنصري، واستيطاني، ولذلك فهي تجد من المنطقي أن تنشـــأ دول بالطريقـــة ذاتها، وعلى حساب الآخرين الأصليين، وأن تتكون من خليط مـــن الشـــعوب والأقوام لتنفيذ أهداف تجارية وسياسية ومصالح استعمارية كثيرة، وأن تقـــوم بإبادة الغير. العنصري يفهم العنصري والولايات المتحـــدة الأميركيـــة تفـــهم "إسرائيل"؛ ولكن لن يقيم ميزان العدل إلا من يفهم العدل ويمتلك القوة ليضعـــه في نصابه الصحيح والسليم. فهل هناك سوى مواجهة حازمة بالقوة، بكل مـــا يكون القوة : ـــ الوحدة ـــ التضامن ـــ السلاح ـــ العلم ـــ التقانة ـــ الوعـي ـــ الضمير ـــ العقيدة ـــ الإيمان ـــ العمل... للتصدي لسياسة ازدواجية المعـــايير هذه التي تصلح عنوانا لما يسمى بالنظام العالمي الجديد ؟!؟

إنه سؤال مطروح علينا نحن الذين نتلمس رقابنا يوميا لنجد هل رؤوسنا ما زالت فوقها؛ ونفقد يوميا شيئا من أمننا ومستقبل أجيالنا فنحبط أكثر ونخضع أكثر ونتنازل أكثر.

إننا سوف نحلم بالتغيير ونعمل له، وسيبقى الحلم أحد المداخل المشروعة لتغيير الواقع، وعلينا ألا نميت ذلك الحلم في نفوسنا، على الأقل، ولكن الحلم ينقلب إلى كابوس أو وهم جنوني ومرض عندما لا يترجم إلى خطط وإمكانات وأفعال.

على صعيد آخر، ومن منظور عربي، نود أن نتعرف على ملامح عالمنا، كما نراه، وعلى معالم النظام الذي يقال إنه جديد، من وجهة نظر بعض العرب، وهو العالم الذي يشكله التغيير والذي يفرض بدوره تغييرا أو يتطلبه. وبداية أقول : إن العلاقات الظاهرة، والقوى الفاعلة والمؤثرة، والعوامل الفعالة في السياسة الدولية، قد تكون تغيرت كثيرا، كما رأينا مما عرضنا سابقا، ويفترض أن يمهد هذا الطريق لنظام جديد يحكم العلاقات والصلات ويقيمها على أساس من القيم والمصالح معا، ولكن يبدو أنه، كما حصل بعد كل من الحربين العالميتين الأولى والثانية، بقيت المصالح والقوى المتغطرسة هي التي تحكم العالم وتتحكم به وتقيم ما تسميه نظاما له وفيه. وفي مثل حالنا في زمننا الراهن بعد ما أسميه الحرب العالمية الثالثة، استمر الحال على ما هو عليه حيث تحكم المصلحة الوسخة والقوة المتغطرسة عالمنا، ولكن بقيادة واحدة شبه وحيدة هذه المرة. وهكذا فإن جوهر قيم التعامل، ومفاهيم سيطرة القوة، ومرجعية مصلحة الأقوى، ومفاهيمه وقيمه وخلقياته وتفسيره للقرارات والقيم واحتكاره للمرجعيات، لم يتغير؛ ويبدو أنه من الصعب أن يتغير، لأن القوة والمصلحة ما زالتا تعطيان مفاهيم الحق والعدل تفسيراتها ومعانيها، وتلونها بلون رغباتهما وتطلعاتهما. وهذا يجعل القول بوجود التغير الذي يمهد لنظام عالمي جديد صحيحا، والقول إنه لم يقم نظام عالمي جديد أصلا، بالمعنى الذي ناور عليه الرئيس الأميركي السابق جورج بوش، بعد حرب الخليج الثانية، صحيح أيضا.

مما لا شك فيه أن الوضع العربي تغير كثيرا وتأثر كثيرا بالمتغيرات الدولية.

ـ فلم يعد هناك عرب أميركا وعرب الاتحاد السوفييتي وما بينهما؛ بل أصبح هناك عرب أميركا وعرب يتبعونهم على استحياء، وعرب ضائعون، وآخرون رافضون للتبعية المذلة لأميركا أو لسواها ولكنهم يبحثون عن قوام وقيمة وطريق، ويناضلون من أجل شق طريق لهم.

ـ ولم يعد هناك اتساع المد القومي، في مجالات التنظيم والفكر، كما لم يعد الطرح الوحدوي قويا أو متماسكا أو واقعيا، إنه لم يتحقق ولكنه لم يذب كليا أو ينهزم في الوقت ذاته، وهكذا يكون العرب قد أضافوا ببراعة إلى مستحيلاتهم الثلاثة مستحيلا رابعا فغدت: الغول والعنقاء والخل الوفي والوحدة العربية.

ـ وتراجع التضامن العربي ذاته. وسقطت محاور سياسية عربية مثل مجلس التعاون العربي، وضعف المجلس المغاربي وكاد يغيب عن الوجود أو يشيع جثمانه، وحافظ مجلس التعاون الخليجي على شيء من الحضور ضمن إطار مخلع تقريبا؛ ولم يعد للجامعة العربية حضور مؤثر يذكر، وبدأت السياسات القطرية تأخذ مداها في كل ما يتعلق بالحفاظ على مصالحها الخاصة ونظامها القطري، وتقيم تحالفاتها المكشوفة مع الغرب، وحتى مع العدو الصهيوني، دونما اعتبار أو حساب يذكر للمشاعر القومية والدم الذي يسفك يوميا على أيدي اليهود، أو للصراع العربي " الإسرائيلي" ومتطلباته وثوابته وأهدافه.

وبدأت تطرح في العلن، وعلى أرضية الخلافات العربية ـ العربية المفزعة، مقولات تفضيل عدو العرب على العرب، فضلا عن طروحات علنية تجعل التحالف مع الولايات المتحدة الأميركية فوق أي تقارب مع العرب، والبحث عن الحماية في ظل الغرب، والتسلح للدفاع عن النفس ضد العربي

أولا، وضد الجار المسلم ثانيا، وضد العدو الصهيوني أو الغرب الطامع عاشرا أو أخيرا، بل وصل الأمر بعد اتفاق غزة ــ أريحا إلى المناداة بتحالف مكشوف بين "إسرائيل" وفلسطينيين، ضد عرب فلسطينيين، فإلى أي حد وصلنا وسنصل يا ترى ؟؟

وانقسم الشارع العربي بعد حرب الخليج الثانية جماهيريا، فصار يؤيد سياسات قطرية لم يكن يؤيدها، وصار أقرب إلى تكريس التجزئة، باقتناع، منه إلى تحمل كابوسها المرحلي على مضض، كما كان حاله سابقا. ولم يعد المال العربي المودع في الخارج والذي يصل إلى ما يقرب من /٨٥٠/ مليار دولار يغامر تحت أي ظرف في التوطن في البلاد العربية، وازداد خوفه كما ازدادت خدمته لأعداء الأمة، وازدادت درجة اليأس من ثمار التعاون العربي وجدواه. وحين يحافظ العرب على مظاهر اللقاء والتنسيق والتعاون في المفاوضات مع العدو، أو في محاور " شكلية " مثل دول إعلان دمشق، فإنما يفعلون ذلك إما تحت ضغط الخوف من الابتلاع أو تحت وهم اقتناع الآخر/ سياسيا كان الآخر أم جمهورا أم دولة عربية / بأن إمكانية العمل العربي ما زالت قائمة، وأن العرب يفكرون عند الضرورة بعمل مشترك، وأن العروبة ما زالت على فواش الموت ولم تمت فعلا، وربما كان هناك أمل لها في الحياة، ولكن هذا لا يلغي ما يجري في السر فعلا وما قد يتفجر في طريقه من السر إلى العلن في وجوه الناس من العرب، فيشوه الرؤى والوجوه معا.

إن أمل العرب في امتلاك القوة المحررة والإمكانات المالية التي تصنع تلك القوة، وكذلك أملهم في التوصل إلى تحقيق تقدم على أساس امتلاك مقومات قوة أصيلة ودائمة؛ إن ذلك ضعيف جدا، في الواقع الراهن، وحسب وتائر الأداء الحالي، لا سيما في مجالات العمل المشترك الذي من دونه لا نجاة ولا خلاص. وينسحب هذا على التفكير بالتحرير وعلى القدرة على المواجهة، لا سيما بعد أن أصبح السلاح ــ وهو سلعة سياسية صعبة أصلا ــ غير متيسر لهم بالنوعية والكمية الكافيتين لحسم معركة، وبعد أن أصبح مزاج العالم ومناخه غير محبذين لحل الصراعات بالحرب. ولكن السؤال، الذي يطرح نفسه على هذه الأرضية القائمة والقاتمة للواقع العربي الراهن، هو سؤال

مثير ومضيء ومنطقي وينطوي على كثير من مقومات الأمل، وهو يلخص في الكلمات البسيطة الآتية التي أقدمها على شكل أسئلة وإلماحات وتساؤلات وهي:

- هل الوضع الدولي، والعربي ضمنا، سوف يستقر على هذا الحال الذي يمثل الراهن الآن ومعطياته الظاهرة ؟ أقول بكل بساطة لا، لأن ذلك لا يتفق ومنطق الحياة والتاريخ، منطق الحركة والتحول والتغير، وتداول الدول، ولا يتفق مع التكوين الاجتماعي والتاريخي والعقيدي لأبناء الأمة، ولا ينسجم مع ما يقدمه تاريخها في الأزمات من عبر واستنتاجات.
- هل سيادة القطب الدولي الوحيد الطرف هي قدر ؟ وهل تراها تستمر إلى الأبد ؟ وهل قوته الفائقة ستبقى كذلك سياسيا واقتصاديا على الخصوص؟؟ أقول أيضا لا، والنذر تتوالى على شكل دلالات ومؤشرات، وتصادم مصالح؛ وتتجلى في التضخم، والعجز في الموازنات، وفي البطالة، وتهديد مؤسسات ومعامل وشركات كبيرة بالإفلاس(١٨). والحياة دائما تقوم على تواصل قطبي صراع على الأقل، ويلزم لاستمرارها مثل هذين القطبين.
- هل سيبقى الغرب كتلة واحدة من دون تناقض على الرغم من عامل المصلحة المختلفة بين دوله ؟

أعتقد جازما بأن الأمر لن يستقر على ذلك الحال على الرغم من اتفاقية "الغات". فهناك صراعات على التجارة، وعلى الطاقة، وعلى بيع السلاح، وأسواق دول العالم الثالث، وعلى الهيمنة، فضلا عن الصراع حول الشخصية الثقافية، والرأي العام المسير إعلاميا، وعلى قيم وتاريخ ومقومات ذات جذور عميقة في النفوس والبلدان؛ ففرنسا مثلا تشكو من الغزو الثقافي الأميركي، وإذا كان الانفجار يؤجل أو يسكن، فإن هذا لا يعني أنه لن يحدث، أو أن مسبباته قد زالت من الوجود.

ـ وهل عمالقة الشرق ونموره، سوف يبقون في حالة كساح دائم ؟ إن من المشكوك فيه أن يبقوا هكذا؛ وهم يكتشفون يوما بعد يوم أيضا دروس التاريخ الذي يخصهم.

ـ وهل الأمة العربية ستبقى سؤالا معلقا في الفراغ إلى ما لا نهاية ؟ إن إلماحات الواقع، واستقراء التاريخ، والتحولات العميقة التي تظهر بعض تجلياتها... كل ذلك يشير إلى أن الأمر لن يستقر على هذا، وإليكم ما لقيه ويلقاه اتفاق غزة ـ أريحا من مقاومة وإحباط جراء معارضة بعض العرب له، وهم القلة المتفرقة !!

ـ وهل الإمكانات التي تملكها شعوب فقيرة متعبة ومستلبة على نحو ما، ستبقى هي الأخرى، وإلى الأبد، موضع نهب العالم الصناعي " المتقدم " والدول القوية ؟ إن ذلك موضوع يستحق التأمل عبر سيرورة التاريخ وصيرورة الواقع.

ـ ألا يمكن أن يكون هناك دور مؤثر للوعي والفكر، وحتى للفقر والجوع والقهر، في تغيير المعطيات الحالية، ومن ثم تقديم صورة أخرى مغايرة، لعالم أو لنظام عالمي مغاير لذلك الذي ينميه الطموح الغربي الاستعماري السائد والصهيوني الاستيطاني المتحالف معه ؟ ألن يكون للثقافة دور في إنقاذ شعوب العالم الفقير المقهور، وفي رفع نير المعاناة عن تلك الشعوب وتخفيف كدماته عن رقابها، وهي النور والوعي وقداسة الكلمة المنقذة ؟؟ أم سيكون دورها الانفعال بما يقال لها وبما يملى عليها، والتهويم على بعد يقيها الانغماس في الواقع والمعاناة بصدق يليق بها ؟؟.

ـ والشعب العربي الذي نحر من التسلط والنهب والتبعية والطغيان، هل ستستمر معاناته وإهمال قضاياه، حتى من قبل حكامه ـ ظلامه، إلى ما لا نهاية ؟!

ـ وهل ستستمر صور الإلحاق والإذلال والعجز والدونية، معلقة مثل تمائم مقدسة في أعناق الفقراء، وفي أعناق العرب والمسلمين من بين أولئك الفقراء ؟!

إن الصور التي تقدمها الحياة العربية، على الأقل، صور توحي بإمكانات كثيرة للتغيير، وتوحي بوجود أشعة وتوهج في نهاية النفق المظلم؛ فعلى هذه الأرضية المظلمة، أرضية المعاناة والبؤس، وأكاد أقول اليأس، يوجد نضال ولو بالحجر والعصا والسكين، وتوجد مواجهة، ولو كلفت صاحبها حياته وخسارة سنوات من عمره، ومستقبله، وكل هذا ليس بلا دلالات، كما أنه ليس بلا نتائج ترتجى وتنتظر. إن المثقف العربي الذي يلملم شتات نفسه ويبحث بشيء من السلحفائية والجبن، أو ربما بتأثير ظاهر من المصلحية والرغبة في السلامة الذاتية، عن دور، إن المثقف العربي يمكن أن يلعب دوره ليعيد تشكيل صورة العالم من حوله، وليقدم المخرج النظري الذي تقدمه الثقافة العربية ويقدمه الوعي للناس، أولا، فيحوله المؤمنون به إلى صبح مشرق، وعمل قائم وسلوك وقيم ومعطيات على الأرض، تغير الواقع بدورها وتساهم في صنع صورة العالم وفي تغييره، ابتداء من تغيير الذات وصورة المواجهات، كما تساهم في وضع نظامه أو أنظمته، وفي كشف فساده وفساد أنظمته واقتراح البدائل لها.

فهل المثقف العربي يحقق رؤية أو يستنتج رؤية خاصة به من كل ما يجري حوله وفي ساحة حضوره ويقدمها لمواطنيه، أم أنه ضائع تائه يبحث، هذا إذا عرف عما يبحث ؟ أم أنه لم يختر بعد دورا رائدا يخرج عن ذلك الذي ترسمه له السياسة أو ترضى عنه ؟

إن سؤال المثقف والسلطة، يأتي في مقدمة الأسئلة لمن يبحث عن دور في الوطن العربي، ولمن يبحث للثقافة عن دور ورؤية في عالم متغير وسيبقى متغيرا. وليس كمثل الثقافة طاقة وقدرة على مواكبة التغيير، وعلى اكتشاف ما ينفع الناس ويحفظ الأصالة والهوية الشخصية ومقومات الوجود والتمايز للأمة، في اللحظات الصعبة وفي الزمن الذي يكون مفترقا للتاريخ

عند الأمم.

لقد أعلن الغرب بوضوح، ومن منابر متعددة، وبأشكال مختلفة، عن أن القرن القادم سيشهد نشر الأنموذج الثقافي الأميركي وأنموذج القيم الأميركية، والسلوك الأميركي، وأنه كما شهد القرن الحالي انهيار الشيوعية والماركسية فسيشهد القرن القادم انهيار العروبة والإسلام، وأنه لم يعد هناك مجال للحديث عن أمة عربية، ولا عن طموحات قومية (١٩)، فأفق الطموح لأي قطر عربي هو أن يرى نفسه آمنا في حدوده الحالية من دون أية أوهام أو أحلام أو تطلعات أو طموحات قومية من أي نوع، وفي مقدمتها التحرير والوحدة، وهو على استعداد لأن يتعامل مع الشيطان على أرضية ذلك وفي سبيله.

لقد أسقط التضامن العربي الأدنى فكيف بالحلم الوحدوي الأبعد ؟! وعلى أرضية الانقسامات التي حدثت جراء حرب الخليج الثانية في الشارع العربي، سياسيا وجماهيريا وثقافيا، لم يعد هناك تفكير واقعي بمد قومي من أي نوع، كما يقولون، وهناك هجوم مستمر على كل من يفكر تفكيرا قوميا أو وحدويا على أي مستوى، وسيكون هناك هجوم، وربما ملاحقة، لكل من يرفض الاعتراف بإسرائيل وتطبيع العلاقات معها، ويمارس عملا فعالا ضد الصهيونية وكيانها المحتل لفلسطين.

على الصعيد الإسلامي أو التفكير الإسلامي تبدت ملامح وعي الذات، وبرز إلى حيز العلن تيار فكري وسياسي وتنظيمي يحاول أن يفرض حضوره بكل الصور الممكنة، فهناك من يسعى إلى الديمقراطية وعندما يطالها أو يكاد، يبعد عنها/ الجزائر مثلا/ وهناك من يرى أن خير تعبير عن الحضور في مناخ الإهمال ورفض الاعتراف بوجوده هو العنف، ويرى أن المسوغ قائم لإعلان " الجهاد" سواء على المحتل أو على السلطة القمعية التي يتهمها بالكفر أو بالتبعية للكفار.

وكرد فعل على هذه اليقظة في هذا المنحى رفعت "إسرائيل"، أولا ثم أنظمة عربية ثانيا، ثم الغرب أخيرا ـ وقد كان وراء ذلك أولا بشكل سري ـ شعار : أن الأصولية الإسلامية أو الإسلام الأصولي هو الذي يحتل مكان "

الشيطان" الآن، وهو يماثل خطر الشيوعية المنهارة علـى الغـرب أو يزيـد عليها خطرا. ورأت أنه لذلك، لا بد من توجيه الجهود لمحاربة ذلك التيار بكـل الوسائل، ابتداء من الاتهام بالإرهاب ـ حتى عند العمل المشروع على تحريـو الأرض من الاحتلال الإسرائيلـي ـ ووصولا إلى المقاومة والقمع والقتل فـي المواجهات الدامية التي تتم بين سلطة اختارت العنف أو ألجئت إليـه، وبيـن معارضة اختارت العنف أو ألجئت إليه أيضا. وذلك يجري في/ الجزائر ومصر/ وهذا الأمر سوف يفرض نفسه على المثقفين وسيضطرهم إلى مواجهة أسئلة والرد عليها، وإلى الوقوف أمام اختيارات ووقائع واتخاذ مواقف منها.

وستلقي أسئلة ظلالها على مواقف المثقفين جراء موقف الغرب والعدو الصهيوني من الثقافة القومية وثوابتها، ومن توجـهات الإسـلام السياسـي واتجاهاته، وسوف يتوجب على المهتمين تلمس مناحي صراعات المثقفيـن العرب، وتوجهات الثقافة العربية. ونتساءل عما إذا كـانت تلـك الصراعـات سوف تأخذ منحى داخليا عربيا ـ عربيا، أم عربيا ـ إسلاميا بين المثقفين، أم أنها سوف تتجه بهم إلى رؤية وواقع جديدين يتجسد معهما الخطر الخـارجي إلى الدرجة التي يتحتم معها مواجهته بأعلى مستوى من أي صراع داخلـي أو ثانوي، فلا تكون المواجهة عند ذلك مع جذورهم الثقافية ومع عقيدتهم، بـل مع الخطر والغزو والتآمر وأشكال الاستلاب الخارجي ؟!؟

ـ ولا تكون تلك المواجهة من أجل تبعية فكرية من أي نوع تبشيرا بـها أو ترويجا لها، تحت أية ذريعة، وإنما من أجل المثاقفة التـي تقـوم على الثقة والاحترام المتبادلين، والانجذاب نحو المعرفـة والحقيقـة والحرية، التي تصدر عن حاجة واقتدار، ولا تغيب الهوية مـن أجـل احتياجات آنية ومصالح فردية.

ـ ولا تكون ضد تيارات ثقافية متعاونة صحية وإيجابية الأهداف، وإنمـا ضد أشكال الغزو والمحو الثقافيين، وضد الإلحاق وفـرض التبعيـة، وضد المركزيات الثقافية المتعصبة المريضة والمتغطرسة المتعاليـة، كالمركزية الثقافية الغربية التي ما زالت ترى نفسـها ـ تعصبـا أو

جهلا أو غطرسة ـ فوق الثقافات الأخرى، وأنموذجا يجب أن يحتذى، وبديلا للثقافات القومية.

ـ إن السياسة العربية، أو سياسة بعض الأقطار العربية، ستأخذ بالاعتبار التطبيع مع العدو على أرضية السلام القادم/ مرفوضا مفروضا كان أم مقبولا مقبلا عليه/ وستحاول تلك السياسات أن تفرضه في حالات، وأن تداور في مواقفها للتعامل معه في حالات أخرى، جراء تضمينه في الاتفاقيات التي ستسفر عنها مفاوضات السلام الجارية؛ فكيف سيكون تعامل المثقفين العرب مع ذلك ؟ ؟

هناك مثقفون عرب يقولون : إن الثقافة العربية لا تكتمل إلا بالثقافة " الإسرائيلية " (تصوروا ؟!)

فقد قال الكاتب المسرحي المصري علي سالم " إن المسرح المصري لا يكتمل إلا بالمسرح " الإسرائيلي " (٢٠) وقام مثقفون عرب بإقامة ندوة وحوار مع مثقفين " إسرائيليين " في غرناطة (١٢ ـ ١٣) ك١/ ١٩٩٣ بإشراف اليونيسكو، مدفوعين بعواطفهم وارتباطاتهم لإنجاح اتفاق غزة ـ أريحا، ولكن خابت آمالهم. وهناك مثقفون عرب يرفضون التطبيع بكل أشكاله ويرون أن الثقافة العربية هي الحصن الأخير الذي يحفظ مواقف الأمة وثوابتها وحقوقها، ولا ينبغي أن يخترق هذا الحصن أبدا، وأن على الثقافة أن ترفض العدو وكل أشكال الاعتراف به، بله التعاون وتطبيع العلاقات معه، فكيف ستكون الحال بين أولئك وهؤلاء ؟؟ وكيف ستكون حال الاثنين مع السلطة ؟ وكيف سيكون موقف الشعب من التطبيع مع العدو، في ظل معطيات الثقافة والسياسة، وممارسات كل من السياسة والثقافة على أرضية الواقع من جهة، والالتزامات التاريخية والخلقية من جهة أخرى ؟!

لقد أدت المتغيرات العربية والدولية إلى مؤتمر جنيف، ثم إلى اتفاق غزة ـ أريحا، وإلى هبوب رياح الاعتراف بالعدو والتفاعل وتطبيع العلاقات معه، والنظر إليه كجزء من النسيج الجغرافي والاجتماعي والأمني والاقتصادي والثقافي للمنطقة. فكيف سيتعامل المثقف العربي والثقافة العربية

مع هذه الحقيقة السياسية الراهنة ؟! هل يغير قيما ومقومات وثوابت في الثقافة العربية قامت على أساس حق العرب في فلسطين، واعتبار "إسرائيل" دولة احتلال لا بد أن يبقى الصراع معها على طبيعته صراع وجود، مع وجود، أم أن تلك القيم والمقومات والثوابت والمفاهيم سوف تتغير لا سيما في المجالات التربوية، وفي ما يقدمه الإبداع، ويهتم الأدب العربي بجعله مضمونا، والفكر القومي بجعله محوره الرئيس ؟!.

في مصر العربية عقدت اتفاقيات كامب ديفيد منذ عام ١٩٧٨ ونص بعضها على تطبيع العلاقات في كل مجال وعلى كل صعيد مع العدو الصهيوني، ولكن يبدو أن الشعب العربي في مصر، أن ابن الشعب البسيط في مصر، هو الذي يرفض التطبيع ويقاومه ويؤخره، تقوده أو تسير معه، شرائح من المثقفين، ولا أقول كل المثقفين في مصر؛ وهو ينجح في فرض ذلك الموقف، أعني الموقف الرافض للتطبيع أو المعوق له، على الرغم من دعوات السلطة وممارساتها، ودعوات بعض المثقفين وأساليبهم وممارساتهم، الرامية إلى فرض ذلك التطبيع والترويج له. فما هو موقف المثقفين العرب من دور تطبيعي جديد يفرضه " سلام " مع "إسرائيل"، واعتراف بها، وحدود مفتوحة معها، وتمثيل دبلوماسي، وأسواق اقتصادية مفتوحة أو مشتركة ؟! هل سيكونون ضده أم مروجين له ؟ هل سيكونون مع الحس الشعبي الوطني القومي النظيف أم سيكونون مع ثقافة التطبيع ورموزه وسدنته وممارسيه ؟؟

ــ هناك من نذر نفسه للتطبيع وللتواطؤ مع العدو، ولمحاربة من سماهم " الصهاينة العرب" ويعني بهم العرب المؤمنين بقوميتهم وبحقهم في فلسطين وبعروبتها، والذين يرون أن الواجب القومي يقتضي العمل من أجل تحريرها من الاحتلال الصهيوني، وطلب أن يتعاون مع " المثقف اليهودي " ضد الصهاينة من "الطرفين " ليسود التطبيع والسلام بنظره.

فهل سينتشر هذا الأنموذج أم تراه سيتراجع ويتقوقع ويتحنط أكثر مما هو الآن ؟ وهل سيبقى مسكوتا عليه محميا من مفرزة الإعلاميين " المؤدلجين

" الذين يناصرونه ؟! أم أنه سيفضح، ويوضع في مكانه الذي يستحقه، ذلك المكان الذي تحدده وتحكم عليه ثوابت قومية وخلقية ونضالية دقيقة وأصيلة ومحترمة ؟ إن ذلك سؤال مطروح على الثقافة العربية وعلى المثقفين العرب، وحتى على الساسة الذين يلاحقون الناس ويحاسبونهم على مواقفهم وآرائهم وأقوالهم وأفعالهم في السلم والحرب، ويكيلون أحيانا بمكيالين.

- المثقف العربي سيجد نفسه في مثاقفة غنية مع الغرب الأوروبي وفي مواجهة ما مع الولايات المتحدة الأميركية.. فهل سيكون قادرا على ذلك ؟ وما هو نوع تلك المثاقفة. وكيف تكون، وعلى أي مستوى ؟ مع وجود الخلل القائم في مناخ حرية التعبير خاصة، وفي مناخ الحريات العامة بشكل عام والممارسة الديمقراطية الشكلانية، والحالة المتردية لحقوق الإنسان في الوطن العربي ؟!

- وجه العالم القادم : وجه علم وثقافة وتقانة ومعرفة تقوم على معطيات علمية واضحة ودقيقة. والثقافة ملتصقة بالأرض والعصر بمقدار ما تفتح ذراعيها للفضاء وما تكتنفه من انتماء، وبمقدار تواصلها مع ما يقدمه العلم من معلومات وما يفتحه من آفاق. إنها ليست ثقافة معلقة بين الأرض والسماء، ولا ثقافة الخرافة والسحر، ولا ثقافة الغيب المطلق، بل هي ثقافة: إقرأ ـ وتأمل ـ وتعلم ـ واطلب العلم، وابحث، إنها منهج : " يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان " فأين سيكون موقعنا من ذلك وفيه؟ وما هو استعدادنا لممارسته وإغنائه، وما هو دورنا في توجيه الناشئة نحوه ؟! وهل يمكن أن يتم ذلك من دون تربية وتجربة ومعرفة عالية ؟!؟

- التحدي المطروح على المثقف العربي سيرتبط بتحد للغة العربية وللحرف الذي ستكتب به تلك اللغة لتختزن في مصارف المعلومات، فهل سيقاوم الحرف العربي محاولات الإبعاد المفروضة عليه من

مصارف المعلومات والثقافة الحديثة، لإبعاده عن ساحة العلم والتقانة المتطورة، ومن ثم إبعاد الثقافة التي يحملها عن ذلك، وحرمانها من قطف ثمار الحضارة الإنسانية الحديثة والمساهمة فيها ؟! هل سيصمد لتلك المزاحمة وللقاء الثقافات في معتركات شتى، ومنها هذا المعترك الحيوي الهام ؟ هل سينهزم ؟ أم أنه سوف يقاوم ويسجل حضورا ثقافيا وعلميا متطورا فاعلا ومشرقا يمكن أبناء الأمة من الحضور في العصر القادم على كل مستوى وصعيد ؟ ؟ ما هو موقف المثقف العربي، الخلقي والإنساني، من قضايا أمته وشعبه وموطنه ومواطنه؟

ما موقف المثقف العربي، الخلقي والإنساني، من قضايا أمته وشعبه وموطنه ومن قضايا الإنسان في العالم ؟ هل سيتفرج على ما يحدث من إهانة للإنسان واستهانة بحقوقه وقيمه وحرياته وحياته ؟ أم تراه سيقف في الصف الأول من صفوف المدافعين عن القيم والأخلاق والحريات والحقوق وعن الإنسانية والإنسان؟؟

ما موقفه من معنى المساواة أمام القانون ومن تطبيق تلك المساواة، على الرغم من الاختلاف في الرأي والرؤية ؟ ما مفهومه للديمقراطية، وللممارسة الفعلية لها، وما دوره في ذلك، وكيف يستطيع أن يمارس ذلك الدور ؟ هل سيمارسه بغوغائية تحريضية سرية أم بوعي وعقلانية وعلانية؟ هل سيكون دمية تصرخ بالديمقراطية وتطبق ديكتاتورية غبية، أم سيعمل عقله في جميع المفاهيم والمقولات والممارسات والتطبيقات والادعاءات، فيرفض ما ينبغي أن يرفض ويقبل ما ينبغي أن يقبل، بمقياس العقل والوعي والضمير والانتماء الطوعي المسؤول لأمة في واقعها، ولثقافة في خصوصيتها، ولمجتمع في واقعه المعيش ؟؟

و ما موقف المثقف العربي من القضايا القومية، من الوحدة التي تضاءلت الآمال فيها، ومن التضامن العربي، ومن الثقافة العربية على مستوى الوعي بها عربيا وتاريخيا وتواصلا مع الثقافات الأخرى ؟؟

هل سيأخذ بمقولات ثقافية قطرية أخذت تتجلى بأشكال مختلفة وتحت

رايات ودراسات ومنظورات عدة / مثل الحديث عن رواية سورية، ومسرح مصري، وقصة عراقية، وشعر مغربي / في نهج يكرس الخصوصية القطرية على حساب الانتماء القومي والحضور العربي العام؟ أم سيتخذ نكهة البيئة في الحضور العربي للأدب الذي يصور بيئات تكمل كل منها ملامح الهوية والخصوصية ؟ وماذا سيكون موقف المثقف من التواصل مع الثقافة في مفهومها العربي ـ الإسلامي ومع العقيدة، سواء في البعد الأفقي أم في البعد الشاقولي ؟؟ هل تراه سيرفض كل ما يقوله الإسلاميون والأصوليون منهم مثلا لمجرد أنهم قالوه، أم سيأخذ من تلك الثقافة والعقيدة، الصحيح والسليم، ويرفض تشنج المتشنجين وتعصب المتعصبين وجهل الجاهلين، وما يسبغونه على الثقافة والعقيدة من فهم قد يكون سقيما وقد يكون سليما ؟ وما نوع علاقة المثقف العربي مع السلطة في قطره، والسياسة القومية في وطنه، والسياسة التي تحكم العالم ؟؟

هل سيدخل سوق الكلام ويغدو سلعة تباع وتشرى، أو بوقا ينفخ فيه ويوحى إليه لحنه، وزينة ولونا يشكل قوام الوجه والقناع لحاكم وسلطة وسياسة، أو أداة تشوه ذلك الوجه لصالح سياسة أخرى وحاكم آخر ؟ أم تراه سيكون حرا في موقفه وأمينا على رؤيته، ومخلصا لوعي معرفي وموقف خلقي يفرضان عليه أن يقول ما يرى أنه الحق، وما يعتقد أنه في صالح الأمة؟ وهل سيكون المثقف العربي على عتبة العلاقات العربية ـ العربية الجديدة، والنظام العربي أو العالمي الذي يتخلق، نافخا في نار الفتنة، أم صانعا للوئام والقوة والتضامن والوفاق، بموضوعية ومسؤولية ووعي وشجاعة خلقية وقوة روحية عالية ؟؟

هل سيكون ذلك الذي يتصيد الفرص ويتحينها للانقضاض على مغنم خاص، ويخلق الشقاق من أجل دور ومنفعة ومكانة، أم ذلك الذي ينسى منافعه ويضحي بمصالحه ويقدم نسغ عمره ودم وريده في سبيل نهضة جديدة للأمة، ومكانة مرموقة لها بين الأمم ؟؟ لا أشك مطلقا في أهمية الغنى الناتج عن التعدد، ولا أقلل مطلقا من أهمية الإثراء الذي يقدمه للثقافة الحوار بين مختلفين على أرضية من الاحترام والرفعة والاقتدار والتقدير والاعتراف بحق

الآخر في الاختلاف، ولا أشك مطلقا في ضرورة أن يكون لمثقفي أمة كأمتنا، تخوض صراعا في ظروف نعرفها جميعا، لا أشك في أهمية أن يكون لهم دور فعال على جماهيرها وصنعة القرار فيها، من خلال احترام وهيبة يفرضانها بالمعروف والاستعلاء النبيل عن السفاسف والصغائر والمهاترات، وبالالتزام الواعي بالثوابت والقيم والمقومات الأصيلة للفكر والنضال، وأن يقوم ذلك فيما بينهم على اتفاق على ما يجمعهم واحترام له، لأن في ذلك صونا لمكانتهم وحفظا لقوتهم، وسلامة لرؤيتهم، وتركيزا لجهودهم.

إن خيل الانفعال جامحة جدا، وأجنحة العقل تنطلق بالمرء منا إلى عوالم بلا حدود، وشطحات الخيال والفكر قد تقود إلى مسالك لا نهاية لتعددها، فإذا ما توزعنا كتلة الخيط الذي يجمعنا وقطعناها، وتفرقت بنا السبل حسب الأهواء والميول والجهد والاجتهاد، دونما اعتصام بثوابت ومعايير و روائز وقيم ومقومات نحترمها وتشد نهايات الخيوط إلى مرتكز منا مكين؛ فإننا سنصبح عرضة لأن تتخطفنا الريح ونمعن في التيه، ونتوزع على المنابع والمشارب حتى لا يبقى لنا لون أو طعم أو رائحة، ولا أرض تجمعنا أو صبا ترتاح نفوسنا لانسيابها.

ألا إن الخطر من حولنا محدق، والرياح تتخطفنا من كل جانب، والمغريات كثيرات، والمسالك عديدة، ألا وإن التفرق مجلبة للضعف والضياع... فلنحلق في الأجواء على هدي وهدى، ولنتعرف على المسالك من دون أن نضل مسلكنا إلى بيتنا، ولنشرب من الينابيع محتفظين بمقدرتنا على التمييز بين صفو الماء وعكره، وليجمعنا الحنين والانتماء والحب والإيمان حول نبع ثقافتنا وحضارتنا وما يحويه وطننا وتاريخنا العريق من غنى، لنزيد الثراء ثراء، وليبق لنا في العالمين محترم ومهاب ومعروف، يقدره الغير، ويجد فيه الشاربون منه لذة وصحة ومتعة، ورغبة في العودة إليه والاستزادة منه .

الهوامش :

===========

١. قال الرئيس الأميركي الأسبق ريتشارد نيكسون :

((ونحن إذا أردنا التدخل عسكريا لحماية مصالحنا الحيوية علينا أن نحذو أنموذج الرئيس الأميركي بوش في حرب الخليج، أي أن نوظف الأمم المتحدة لنا لا أن نكون أداة لها.)) ما وراء السلام ــ ترجمة : مالك عباس ــ صـ ٤٦ دار الأهلية للنشر ــ بيروت.

٢. قال الأمين العام لحلف شمال الأطلسي الجنرال مانفريد فيرنر في مقابلة مع شبكة (C.N.N) الأميركية : " نريد أن نبني أوروبا أكثر أمنا وأمانا مع روسيا وليس ضدها، لا بد أن يتم ذلك بطريقة لا تؤدي إلى انقسام أوروبا ". رويتر / عن النهار في ١٠ / ١/ ١٩٩٤ صـ ١١

قال الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران : " إن إدارة كلينتون تريد أن تأخذ في الاعتبار هذه القدرة المتصاعدة لدى الاتحاد الأوروبي (...) إن التقدم الذي يمكن أن نحرزه لتعزيز العلاقة التي تجمع الدول الأوربية بأميركا الشمالية، في إطار الحلف، دفع نحتاج إليه لمواجهة متطلبات السلام والأمن في القارة الأوروبية." رويتر / عن النهار ١٠/ ١/ ١٩٩٤ صـ ١١

أعلن ليون بريتان مفوض التجارة الخارجية الأوروبي أمام البرلمان الأوروبي في ١٨ / ٣/ ١٩٩٣ : " أن حربا تجارية بين أوروبا والولايات المتحدة قد تعرض العلاقات السياسية بينهما للخطر ".. عن جريدة البعث ١٩/ ٣/ ١٩٩٣ صـ ١

٣ ــ من الملاحظ أن ترميم أو توسيع مجلس الأمن لا يعتمد مبدئيا تحقيق عدالة بين الدول والمناطق والأعراق والديانات، وإنما يأخذ القوة بالاعتبار، والمصلحة المتبادلة بين الدول الأقوى، ولا سيما أطراف الدول الصناعية. فالهند التي يتجاوز عدد سكانها /٨٠٠/ ثمانمئة مليون شخص لا تزاحم على مقعد دائم في مجلس الأمن لأن الأقوياء لا يفكرون بها. والمجموعة العربية كلها لا ذكر لها، ومجموع المسلمين، الذين يتجاوز عددهم مليارا ومئتي مليون شخص، ليس لهم ممثل دائم في المجلس، ولا يجري التفكير بهم أو الاهتمام بتمثيلهم بين الكبار " المالكين " لمجلس الأمن، أو المسيطرين على

قراره. ونحن نلاحظ بوضوح تام الخلل القائم في التمثيل، واعتماد التمثيل بالنسبة للدول الدائمة العضوية على القوة وعلى مشاركة المنتصرين في الحرب العالمية الثانية، ومن أصبحوا سندا لأولئك أو حلفاء مصالح لهم. ونجد أن ١٠% من سكان العالم يملكون أربعة مقاعد دائمة في المجلس من أصل خمسة مقاعد، وأن أولئك الأربعة ينتمون إلى ديانة واحدة، وإلى قارة تكاد تكون واحدة من حيث تقارب التكوين السكاني. وكل هذا لا يجعل مجلس الأمن قوة ذات استقلال وحياد واحترام عالمي شامل، فهو، موضوعيا، سلطة غريبة على العالم، وسلطة المستعمرين على الشعوب، وسلطة الأغنياء على الفقراء، وسلطة الظلمة الذين نهبوا الشعوب، وما زالوا يسيطرون على مقدرات تلك الشعوب.

٤ . ونحن نعرف جيدا كيف طبقت هذه الشعارات وكيف نفذت هذه الوعود في البوسنة والهرسك وفي الصومال، على سبيل المثال لا الحصر، ونعرف أيضا التواطؤ الأميركي المستمر ضد العرب، في القضية المركزية لنضالهم الوطني والقومي، قضية فلسطين، ونعرف مواقف الإدارة الأميركية من سلسلة العدوان الوحشي على المدنيين في جنوب لبنان، وموقفها من مسلسل الإبادة البطيء الذي ينفذ بوحشية ضد الفلسطينيين في الأراضي المحتلة، وضد شبان الانتفاضة وأطفالها.

٥ . تقرير وزير الدفاع الأميركي إلى الرئيس والكونغرس الأميركيين، شباط ١٩٩٢، ترجمة العميد الركن المتقاعد نافع أيوب لبس، صـ ٨، مركز الدراسات العسكرية بدمشق ١٩٩٣.

٦. هذه الأرقام مأخوذة من : قوانين تصدير السلاح ــ مركز الدراسات العسكرية بدمشق ــ١٩٩٢ صـ ٢٣ ــ ترجمة العميد الركن المتقاعد نافع أيوب لبس.

٧ . لقد باعت أميركا إلى السعودية وحدها، وبصفقة، واحدة ما قيمته /٢٠/ عشرون مليار دولار أميركي، وقد قبضت "إسرائيل" عمولة مقدارها مليار دولار لأنها مررت صفقة بيع طائرات فـ ١٥ للسعودية، وصرح بذلك ديفيد ستاينر ممثل "ايباك" لجنة الشؤون العامة للعلاقات الأميركية الإسرائيلية ــ حيث قال : " إنه حصل على المبلغ عن طريق جيمس بيكر ". عن جريدة السفير اللبنانية ١٩٩٢/١١/١١

٨. جاء في جريدة السفير نقلا عن خدمة " لوس أنجلوس تايمز " ما يأتي" : وقد بدأت السعودية شراء كميات كبيرة من الأسلحة في العام ١٩٨٩ وقفز طلبها على الأسلحة بعد الغزو العراقي للكويت في آب ١٩٩٠ كما طلبت المملكة معدات عسكرية أميركية بقيمة ٣٠ مليار دولار من صواريخ ستينغر المضادة للطائرات إلى المروحيات الهجومية "أباتشي" إلى ناقلات الجنود وقطع الغيار. كما تسعى فرنسا التي أوفدت رئيس وزرائها "إدوارد بالادور" إلى السعودية قبل أسبوع، خلال الأسبوع الأول من ك٢ / ١٩٩٤، تسعى إلى بيع أسلحة وتطوير قطع بحرية بصفقة تبلغ مليارات من الدولارات، وفرنسا تعاني من مشكلات في مصانعها للأسلحة قد تؤدي إلى تسريح مئات العمال إذا لم تنجح تلك الصفقة. وفي الوقت نفسه يقوم وزير الدفاع البريطاني مالكوم ريفكند بمفاوضات لبيع السعودية ٤٨ طائرة من طراز" تورنادو" بقيمة ٨ مليارات دولار" . عن رويتر ــ عن جريدة النهار ١٩٩٤/١/٨.

٩. لقد وصل سعر برميل النفط ١٣ دولارا بعد أن كان بين ١٨ــ٢٠ دولارا منذ سنة أو اثنتين. والمبالغ المترتبة خسارة للمنتجين على ذلك كثيرة. وقد خفضت المملكة العربية السعودية ما نسبته ٢٠% من موازنتها لعام ١٩٩٤ عن ١٩٩٣ جراء ضعف الموارد، وذلك ناتج بالدرجة الأولى عن انخفاض أسعار النفط.

١٠. يقول جفري غارتن وكيل وزارة التجارة الأميركية (من خطاب في جمعية السياسة الخارجية) : " إن من المتوقع أن يأتي ثلثا النمو التجاري في العالم بأسره في العقدين القادمين من الأسواق الكبيرة الآخذة في البروز.

big emerging markets = bems؟

و تشمل هذه الدول : الصين ــ إندونيسيا ــ كوريا الجنوبية ــ الهند ــ تركيا جنوب أفريقيا ــ بولندا ــ الأرجنتين ــ البرازيل ــ المكسيك "

من المحتمل، كما نقدر أن يحدث حوالي ثلاثة أرباع النمو في التجارة الدولية في العقدين القادمين في الدول النامية. ومعظم هذا التوسع سيقع في دول الـ Bems. ومن المحتمل أن تضاعف دول هذه الفئة حصتها من إجمالي الناتج المحلي العالمي في ذلك الوقت، ليصل إلى ٢٠% مقابل حصة نسبتها اليوم ١٠%. ومن المحتمل أن تفوق حصتها من واردات العالم بحلول عام

/٢٠١٠/ مجمـوع واردات اليابـان و الاتحـاد الأوروبـي. وستشـكل دول الـ Bems أيضا حلبة المنافسة في المستقبل. ومن المتوقع أن تكون اليابـان وأوروبا وعدة دول نامية من المنافسين الشرسين في تلك الأسـواق ". عـن النشرة الإخبارية الصادرة عن القسم الصحفي في السفارة الأميركية بدمشـق ــ العدد ٤٠٤٣ تاريخ ٢٦/ ١/ ١٩٩٤.

١١، ١٢،١٣. كرم الحلو ــ جريدة الحياة ــ في ٢٨/ ٣/ ١٩٩٣ من تقرير الأمـم المتحدة عام ١٩٩٢

١٤. عن جريدة السفير في ١٩٩٢/٦/١

١٥،١٦. عن جريدة السفير ١٩٩٢/٦/٤ من مقابلة له مع مجلة الإيكونمست.

١٧. لقد فقد الغرب مصداقيته الأخلاقية، وأعلن إفلاسه الروحي، وخواء الوجـدان، وموت المبادئ فيه، على أرضية قضية البوسنة والهرسـك، وازداد إفلاسـه وانعدام مصداقيته في الصومال.

١٨. لقد بلغت نسبة العجز في الموازنة الأميركية لعام ١٩٩٢ فقـط (٤٠٠) مليـار دولار وأصبح مقدار الديون حتى نهاية عـام ١٩٩٢ /٤٠٠٠/ أربعـة آلاف مليار دولار، ومن المتوقع أن تصبح نسبة الفائدة المترتبة على الديون فـي نهاية عام ١٩٩٥ إلى الضرائب ١٠٣%

١٩. قال جيمس بيكر في لقاء له مع المجلـة/ العـدد ٧١٥/ فـي ٢٤ــ٣٠ /١٠/ ١٩٩٣ " خلال السنوات الثلاث التي كان فيها بوش رئيسا، وكنت أنا وزيـرا لخارجيته شهدنا هزيمتين : هزيمة الشيوعية، وهزيمة الراديكالية العربيـة.. هذه تتمثل في العراق ودول أخرى رافضة ومتطرفة. الهزيمتان فتحتا آفاقـا جديدة نحو الحرية، والاستقرار، والاقتصاد المفتوح. لهذا بعد حرب الخليـج رتبنا لمؤتمر مدريد لتأسيس نظام جديد في الشرق الأوسط. ومؤتمر مدريـد، كما نعرف جميعا، سهل الاتصالات بين العرب وإسـرائيل، والتـي أدت إلـى الاتفاقية الفلسطينية ــ الإسرائيلية"

المجلة ــ ص ٤١ تاريخ ٢٤ ــ٣٠ /١٠/ ١٩٩٣

٢٠. جريدة الحياة



الفكر ومستقبل الصراع

كان للصراع العربي الصهيوني تأثير عميق على الفكر العربي خلال العقود الخمسة الماضية، ويمكن أن نتبين ذلك الصراع بوضوح من خلال توجهات ذلك الفكر، حيث تتجلى في تياراته أوفي إنتاج مفكريه. وقد ركز أولئك المفكرون على جوهر الصراع بوصفه صراع وجود بين الأمة العربية والكيان الصهيوني، وعلى أن حسم هذا الصراع لا يكون على حساب الأمة العربية وحقوقها الثابتة؛ لا سيما في الأرض والمقدسات والسيادة التامة والوجود الفعلي للشعب على الأرض وفي مواقع القرار.

ورأى المفكرون في الدعوة إلى الوحدة العربية مدخلا لتحقيق قوة قادرة على حسم الصراع بالوسائل الممكنة والمجربة تاريخيا من قبل الشعوب، وقد ناضل فريق منهم من أجل الوحدة وربط مصيره ووجوده بها، وكرس فكره لذلك؛ كما ناضل فريق آخر من أجل بلورة وعي قومي، وإطلاق تيار شامل، من شأنه أن يبث في الأجيال العربية تمسكا بالثوابت القومية، وفي مقدمة تلك الثوابت : استعادة الوجود، وتحرير الأرض، والسيادة فوقها؛ ورأى ذلك النفر من المفكرين أن إطلاق ذلك التيار لابد أن يؤدي إلى تنظيم قومي يجعل الدعوة للعمل العربي المشترك، على أسس قومية يكون رائدها الأول هو التحرير، من أبرز أهدافه وأكثرها جذرية وأهمية.

وتوجه فريق نحو الدعوة إلى تحقيق تقدم حضاري شامل، يعطي مكانة خاصة للثقافة وامتلاك علوم العصر، لأنه وجد أن الصراع العربي الصهيوني، ومن قبله الصراع ضد الاستعمار الغربي، لا يحسم إلا بالقوة، وأن مفهوم القوة قد تغير كثيرا، فلم يعد مرتبطا بالكثرة والشجاعة قدر ارتباطه بامتلاك الأسلحة المتطورة التي يحققها العلم والتقانة، اللذان يسيران آلة الحرب

الحديثة، ويمكنان من امتلاكها واستخدامها استخداما ناجحا في ساحة المعركة، ويمكنان من تطويرها أيضا، ومن تطوير كل أوجه الحياة الأخرى. ووجد أولئك النفر من المفكرين أن الصراع مع العدو الصهيوني يتطلب امتلاك وسائل العصر وأدواته، وأن ذلك لا يتحقق من دون دخول فعلي في العصر على أرضية العلم والقوة؛ وكل سعي لامتلاك العلم والقوة خارج التفكير بإمكانات الأمة العربية وقدراتها، محكوم عليه بالفشل، لأن طاقات أي قطر عربي ستكون عاجزة عن تحقيق أي نجاح يذكر في ميادين التصنيع الحربي، وتقديم الحامل الاقتصادي القادر على كفايته وإسناده، فضلا عن الحاجة إلى تطوير الصناعات المدنية، الضرورية لكل تقدم وتحرر ونهوض. ولذلك رأوا أن كل تفكير جدي بالتقدم والتحرر والتحرير، في الوطن العربي، لابد له من أن يستند إلى عمق عملي نظري وتطبيقي، وبعد قومي حقيقي، لأن العرب في صراعهم مع الصهيونية لا يواجهون "إسرائيل" وحدها، وإنما يواجهون القوى الغربية التي أوجدتها وغرستها في هذه المنطقة من الوطن العربي لتحقيق أهداف عديدة وبعيدة.

وأخذ فريق من المفكرين العرب بالدعوة إلى تطوير المجتمع العربي وتنميته وصولا إلى تحرره وتحريره، ومن ثم التحرير الشامل به وبقواه، وذلك انطلاقا من إيمانهم بأن الجهل لا يحرر، وأن الذي يصنع حرية الوطن والمواطن هو مواطن واع حر قبل كل شيء، فلا يكون الخلاص من الاستعمار الاستيطاني الصهيوني ــ وهو درجة عالية وفريدة من الاستعمار ــ إلا بالخلاص من الجهل ومن أشكال الاستلاب الداخلي.

ومن الملاحظ أن هم أولئك هو التحرير الشامل للأرض بحسم الصراع العربي الصهيوني لصالح الأمة العربية حسما تاما بالوسائل المعروفة والمجربة، ومدخلهم إلى ذلك النهوض بالإنسان وتحريره، ومن ثم التحرير به؛ وأن الاستعمار بأنواعه، ولا سيما الاستيطاني والمباشر منه، كان أخطر ما يؤرقهم ويقض مضاجعهم ويحفزهم على المقاومة بالوسائل التي يرونها، والدخول إلى ذلك من المداخل التي يرتضونها ويقررونها. ولم يخل توجه فكري عربي معاصر من تأثر بالصراع العربي الصهيوني، ومن نزوع نحو

موقف منه، حتى في التوجهات الفكرية ذات الانتماء القطري الضيق أو الطائفي الأضيق، ولدى المفكرين الذين أخذوا بالمقولات الفكرية " المتعالية " على الانتماء، والمرتكزة إلى تبعية للمركزية الثقافية الغربية " الأوروبية".

قلة قليلة من المفكرين العرب هي التي أضمرت رأيا أو موقفا لا يقر بحسم الصراع مع العدو الصهيوني بالقوة، وتلك القلة لم تكن تجاهر بقولها في كل الظروف، وبعض أولئك كان يخفي رأيه حين يكون داخل الوطن ويصرح به حين يكون خارجه، أو عندما تتأزم أمور ذات بعد طائفي؛ ويبقى ذلك في حدود الغمغمة وحالات النزق، ويتصل بارتباط مكشوف بالعدو أو بالغرب الذي يناصره تاريخيا، أو ينبع من ذلك الارتباط.

تيار من " المفكرين" أو المثقفين العرب، وقع ضحية سهلة للصهيونية في هذا المجال، مأخوذا بشعارات ذات طيف إنساني عريض، ومدى طوباوي موصول بالواقع بأعمدة قوس قزح زاهية تنتهي ولا يريد لها أصحابها أو أتباعها أن تنتهي؛ ويظلون أسرى السحر الذي اتبعوه أو ابتدعوه، يرونه علما، وأنى للسحر أن يكون علما ؟؟ وقد فعل ذلك الفريق فعلا ضارا وضاريا في الحياة الفكرية العربية، وأشاع مقولات أثرت سلبيا على الصراع العربي الصهيوني بالنسبة للعرب، وأدخلتهم في متاهات عديدة وفي صراعات مرة، وأعشت الرؤية على طريق التحرير، وحرفت بعض مسارات النضال، حتى وضعتها في الاتجاهات المضادة للتحرير؛ إذ رفعت شعارات مضللة جعلت قوى الأمة تقتتل فيما بينها قبل أن تقاتل عدوها، أو حتمت عليها ذلك. وقد اكتشف ذلك التيار بعد فوات الأوان، وبعد سقوط فكره في زمانه، اكتشف أنه، في قضية أمته المركزية، كان ضحية للصهيونية التي كانت توجهه مدة تزيد عن نصف قرن، من دون أن يكتشف اللعبة وأهدافها، ومن دون أن يتنازل عن "احتكار الوطنية " وعن ادعائها لنفسه، وانتزاعها من الآخرين الذين " لا يستحقونها !؟ "، من وجهة نظره، لأنهم لم يلتهموا أكداس وهمه ولم يلوكوا مصطلحات الصهيونية التي لقنها تلقينا وحفظها حفظا متينا ونفذها تنفيذا أمينا.

وخارج نطاق الفكر القومي نمت تيارات وتوجهات فكرية كانت تتفق

معه في الأهداف النهائية، بالنسبة للتحرير ومقاومة الصهيونية، ولكنها تختلف معه في المنظور العام لمدى الصراع وحجمه واستهدافه ومراميه البعيدة؛ أي أنها تخالفه في إتباع الأساليب وإقامة التحالفات والنظر إلى مدار الصراع، ومن ثم مدار المواجهة والأزمة ونوع التحالفات والمرتكزات الفكرية والاستراتيجية اللازمة لمقاومة الهجوم الصهيوني الغربي الشامل على الأمة العربية وشخصيتها وعقيدتها ومقومات ثقافتها ووجودها وحيويتها.

ولم تكن تلك الخلافات بلا ثمن، كما أنها لم تكن عابرة من حيث نتائجها، بل على العكس من ذلك، فإنها كانت وما زالت باهظة التكاليف، فادحة الثمن، عميقة الغور، ولم تؤثر سلبيا على زمن حسم الصراع فقط، وإنما أثرت على النظر إليه بوصفه صراعا أصلا ؟! ومن ثم على النتائج النهائية التي وصل إليها بالذات.

ومنذ بدأت المتغيرات الدولية تفعل فعلها في الساحة العربية، بعد أن وضعت الحرب الباردة أوزارها واحتراق العرب بنارها، أخذ الفكر العربي – والمفكرون العرب– يراجع مقولات ومواقفه وحساباته، في ضوء الثوابت والمتغيرات، وأخذ كل تيار أو فريق من المفكرين والمنظرين يعيد إنتاج أفكاره حسب معطيات الحدث وأطواره في حالات، وحسب المصالح والمنافع في أخرى، وحسب نظرته التاريخية للقضية الفلسطينية وللصراع الذي يدور بسببها، وحسب مواقفه وثوابته بالدرجة الأولى، وبدت ملامح اتجاهات جديدة، أو تعديلات على اتجاهات قديمة، أو انتصارات واستنصارات لرؤى وتوجهات ثابتة ازدادت وثوقا بمقدار ما ازدادت هما وغما مما جرى ويجري في أرض العرب وفيما يسمى عالمهم، وبرزت تيارات تدعو إلى "الواقعية والعقلانية" مدعية أنه لا حل للقضية إلا "بتسوية" تضمن لكل أطراف "النزاع" وجودا آمنا وحلا "عادلا" وتأخذ من عالم ما بعد الحرب الباردة مدخلا لمنظور جديد يتماشى ومعطيات "النظام العالمي الجديد" الذي تسمح ازدواجية مكاييله ومعاييره بأن يصبح الظلم عدلا، والحق باطلا، والمقاومة من أجل تحرير الوطن "إرهابا" والصراعات القومية "نزاعات" حدودية قطرية لا بد من تصنيفها بالطرق الودية؟! وبرزت، رغم الظلام والإحباط، تيارات أكثر جذرية،

بالنسبة للصراع، مما كانت عليه في تاريخها السابق، كأنما نضـــال وثوابـت قضية، وجوهر صراع.

وتدافع في الساحات العربية والدولية مروجون لفكر انهزامي استسلامي يتدرع بكل شيء، ويتذرع بكل شيء أيضا، ليسوغ انتهاء الصــراع بانتصـار الأعداء، وضرورة التسليم بذلك لأنه مــن الحكمـة والحضاريـة والإنسـانية والموضوعية والواقعية والشجاعة الأدبية، وهذا الاتجاه له من يرعاه ويدعمه ويحميه ويوصل صوته ويلمع أعلامه، وفي الساحة العربية اليوم عـدد مـن أولئك يتزايد، يوما بعد يوم، ويرتفع صوتهم ساعة بعد ساعة.

فهل يستطيع أصحاب النظرية الجدية الجذرية إلــى الصــراع العربـي الصهيوني، على أنه صراع وجود مع وجود، أن يصمـدوا ويحـافظوا علـى جوهر الصراع وجذريته واستمراره وتاريخيته، أم تراهـم سـيغوصون فـي دوامات الكلام، وتتفجر فيهم الألغام الموقوتة، وما أكثرها، فلا يحسنون دفاعـا ولا يحسنون صمودا!؟! إن التماس جواب على ذلك السـؤال وأمثالـه منـوط بالمستقبل، وبكلام يتصل به ويؤسس له.

والله من وراء القصد.



الحاجة إلى ترتيب البيت الفكري العربي

لا أظن أننا نحتاج إلى مزيد من الكوارث والهزائم والمصائب، وإلى مزيد من المغامرين والمقامرين والطغاة، وإلى نوعية فذة من الطوباويات والعنتريات، نضيفها إلى ما حفل به رصيدنا من ذلك كله؛ لكي نستشعر أهمية وضرورة إجراء مراجعة شاملة في حياتنا وعلاقاتنا وأفعالنا، ولا سيما الثقافي من شؤونها وشجونها، لما لذلك من تأثير على ما سواه؛ خاصة ونحن على أعتاب مرحلة من أشد مراحل نضال أمتنا المعاصر خطورة وحسما، مرحلة انعقاد مؤتمر سلام حول الصراع العربي ـ الصهيوني، والقضية المركزية في هذا الصراع، قضية فلسطين.

فالمؤتمر الذي ينعقد، في ظل تمزق وضعف عربيين ظاهرين في جسم الأمة وقيمها، وتتسع مظاهرهما وتتعدد ظواهرهما؛ هذا المؤتمر مختل التوازن مسبقا لمصلحة العدو الصهيوني، سواء من حيث التحالفات والضمانات السياسية، أو من حيث الوجود الفعلي على الأرض وما يتم عليها من تغيير لفرض الأمر الواقع، التي تتسارع وتائر صنعه وفرضه بتـ,اطؤ ظاهر للعيان.

وأبسط ما يمكن أن يسفر عنه المؤتمر من نتائج سيكون ضارا بصورة العرب وبمستقبلهم، ومؤثرا بشكل كبير على موقعهم بين الأمم، وعلى نظرتهم إلى أنفسهم في الأعماق والسرائر. فمجرد اعتراف بحق "إسرائيل" في الوجود والعيش بأمان في حدود دولة مستقرة على أرض عربية وداخل النسيج

السكاني للمجتمع العربي، وفي قلب التكوين الاقتصادي والأمني والاجتماعي لهذا المجتمع، هو سحق لكثير من القيم العادلة، ومسح لوجه العربي وملامحه، واستخفاف بنضاله وتضحياته وشهدائه؛ ولن يكون ذلك وحده ما يمكن أن يسفر عنه مؤتمر يدخله العرب على أرضية الكارثة التي ألحقها بهم، الغزو الصدامي للكويت، ذلك الذي ألحق بالأمة وبعلاقات أبنائها وبقضاياها المصيرية وبهيبتها ومكانتها بين الأمم، ما ألحق من بؤس ومقت وتراجع.

ويبدو أن جهود التنسيق العربية الوجلة أو الحيية، التي قد تسبق المؤتمر، لن تقدم شيئا للمؤتمر العربي الذي يرتب لكل قطر على حدة ولكل سؤال على حدة؛ فالتنسيق ــ إن تم ــ محكوم بالمثل العربي القائل : " العليق عند الغارة خسارة ". ونظرا لكون السياسة تخوض اليوم معركتها الكبرى من دون أن تتاح لها فرصة إعادة ترتيب البيت العربي، فإن الثقافة، وهي الحصن الأخير، والجبهة المعول على وعيها وصمودها، مدعوة إلى أن تلعب دورا في التمهيد للمواجهة المقبلة، والرد على الأسئلة والاحتمالات المطروحة. وهي لا تستطيع أن تمارس دورا، وتتصدى لقضية بهذا الحجم ما لم ترتب البيت الثقافي العربي أو تعيد ترتيبه ــ هذا إذا كان قد رتب أصلا ــ لتستطيع أن تتماسك في وحدة موقف ورؤية وجبهة، ولتنضج أجوبة متفقا عليها، ردا على أسئلة ترفع رؤوسها وتتحدى.

فهل تتمكن الثقافة العربية يا ترى من ترتيب البيت الثقافي العربي؟! وما الأسس والمعايير التي ستضعها لذلك ؟؟ وكيف تتوصل إليها في ظل توزع ولاءات المثقفين على خلافات السياسيين، وفي ظل سوق الكلام العربي المفتوحة، وحقيقة تبعية الثقافة للسياسة، التي غدت صارخة في ترفعها فوق الانتماء القطري و المذهبي والحزبي، لتجد فيها نفسها وخصوصياتها وخلاصها وحضورها الفعال ؟!

بداية أقول بوجود مسؤولية تاريخية للمثقفين حيال ما يجري، سواء أكان المثقفون يملكون من أمرهم شيئا أم لا يملكون؛ وأقول بأهمية أن يكون للثقافة رؤية واستقلالية وصوت وموقف؛ وأن تشكل حضورا فاعلا في ساحة القرار السياسي العربي، لتدافع عن ثوابتها ورسالتها، وعن الجماهير، التي

تزعم، أو يطيب لشرائح من نسيجها أن تزعم، بأنها ضميرها وصوتها الحر. وأقول بإمكانية أن تبقى الثقافة العربية، كما كانت بالأمس، الأرض المشتركة التي تستعصي على التقسيم بالنسبة للمثقفين العرب، وبإمكانية أن تغدو هذه الأرض المكان الأصح والأنسب لاستنبات روح جديدة ومعطيات ومقومات إيجابية، تمكن العرب من الوقوف بثبات فوق ركائز صلبة، ومن أن يستمدوا نسغا مغذيا من مصادر واحدة تساعدهم على اكتشاف أن ما يجمعهم هو أكثر بكثير مما يفرقهم، وأن ما يشكل الهوية والقيم والعقيدة ومكنون اللغة وحملها، بالنسبة لهم، هو أهم بكثير من المصالح المادية والمكاسب الدنيوية العابرة والخصومات والمنافرات. وأقول أيضا بإمكانية أن تقوم الثقافة السليمة والمسؤولة بتكثيف درجة الوعي المعرفي وإنعاش القيمة الخلقية والروحية والحس القومي والشعور الديني السليم، ليشكل ذلك كله أرضية لتحرير الإنسان واحترام حقوقه وحرياته، وتعزيز شعوره بالمساواة وممارسته لها، على أرض وطن لا يعلو فيه رأس فوق القانون، ولا يتميز فيه فرد عن فرد إلا بمقدار ما يقدم للوطن من خدمة، وما يضحي به ويصنعه ويقدمه من أجل الآخرين.

وانطلاقا من اقتناعي بمسؤولية الثقافة وبأهمية دورها وبقدرتها على أن تقدم شيئا في هذه الظروف بالذات، وبضرورة وأهمية وحيوية أن تقدمه بسرعة واقتدار؛ أدعو إلى إعادة ترتيب البيت الثقافي العربي في ضوء استخلاص لعبر ودروس من المتغيرات الدولية المهمة في المجال السياسي ـ الثقافي، والإيديولوجي ـ التنظيمي، وفي ضوء المتغيرات العربية التي نتجت أو يمكن أن تنتج عن المتغيرات الدولية أو بفضلها؛ وكذلك في ضوء المعطيات العربية التي سبقت أزمة الخليج واحتلال الكويت ثم الانسحاب منها، ورافقت الأزمة والاحتلال وأعقبتهما، وما تبع ذلك من تأثيرات وتفاعلات وتحديات.

وإعادة ترتيب البيت الثقافي العربي تستدعي أولا وجود استعداد ذاتي على مستوى فردي، وعند جماعات ذات توجه مشترك، لإجراء مراجعة صريحة بمسؤولية وشجاعة وموضوعية، ومن ثم الدخول في حوار مع الآخر

على أساس الاعتراف بحق الآخر في الوجود والاختلاف والتعبير عن نفسه بحرية. والمراجعة المطلوبة ليست على الإطلاق مراجعة شكلانية، ولا هي مفروضة، بمعنى أنها ناتجة عن انهيارات فكرية وسياسية، إيديولوجية وتنظيمية واقتصادية، جرت في مكان وشلت قدرة أناس في مكان آخر؛ ولكنها مراجعة تمليها حركة داخلية عميقة من التأمل والتحليل والتدقيق والاستخلاص، في ضوء ما تم وليس تحت ثقل ركام ما تم من انهيارات.

والمراجعة التمهيدية مطلوبة من الشيوعيين الذين انهار عالمهم وسقطت مرجعيتهم؛ ومن القوميين والاشتراكيين والناصريين والإسلاميين.. الخ، حتى يدخل أهل الثقافة أو الطليعة منهم، دائرة الحوار وداره، وهم على استعداد تام لرؤية الحقيقة والمصلحة القومية والوطنية، ورؤية الأفضل والأصلح والممكن، في زحمة الآراء والأحداث والمعطيات؛ وليتمكنوا من وضع معايير وأسس تقود الحوار وتحكمه، وتقودهم من خلال الحوار إلى تبين المشترك والمتفق عليه من الثوابت المبدئية والأهداف والأفعال؛ ووضع تصور لأولويات يتم حولها اتفاق، ويبقى الكثير، أو قل يجب أن يبقى الكثير مما يختلف فيه أهل الثقافة، لأنهم لا يمكن أن يكونوا أفرادا متمايزين ومتميزين وهم نسخ أو شبه نسخ عن بعضهم بعضا !! ففي اختلافهم غنى، وفي تنوعهم ثراء، ولكن الاختلاف البناء هو ذلك الذي يتم تحت سقف الوطن ومن أجل مستقبل الشعب ومصلحته، وهو الذي يحتدم النقاش للتوصل إلى أفضل السبل التي تؤدي إلى تحقيق أهدافه وإسعاد أبنائه وبناء حضارته وتوفير حريته وكرامته وتقدمه.

فكل اختلاف ينشأ على أرضية صحيحة وصادقة من الانتماء للشعب في تراب وطنه وتربته وثقافته، في معطاه الجغرافي والتاريخي هو اختلاف يبني ولا بد أن يقود المخلصين إلى اتفاق؛ والاختلاف الذي قد يكون هامشا واسعا ينبغي ـ في تصوري ـ ألا يمنع على الإطلاق فئات المثقفين العرب، في هذه الظروف بالذات، من أن يتناصروا وتتضافر جهودهم وتتحد جبهتهم خلف نقاط الالتقاء التي تجمعهم؛ لأن تلك النقاط هي برنامج الحد الأدنى مما يمكن أن يعملوا عليه جميعا، على أن يحمي كل منهم ظهر الآخر في الدفاع

عنه ليوصلهم إلى :

ـ إثبات حضور الجبهة الثقافية في الساحة الجماهيرية الحيـة وعلـى صعد السياسة والثقافة والاجتماع. ولا سيما في أماكن صنع القرار.

ـ انتزاع استقلالية القرار الثقافي وهيبة الجبهة الثقافية، والتخلص من التبعية الطويلة الأمد التي كانت من الثقافة للسياسة.

ـ إيصال صوت المثقفين، وصوت الجماهير من خلال المثقفين، إلـى الأماكن التي ينبغي أن يصل إليها؛ وخلق تيار حضور يساعد على حماية مناخ العمل من أجل حقوق الإنسان العربي وحرياته وممارساته الديمقراطية، فـي إطار الدساتير والقوانين في الوطن العربي.

ـ إقامة المؤسسات والحفاظ على استقلاليتها، وتمكينها مـن القيـام بدور إيجابي من أجل تكوين وعي معرفي متجـدد، وتشـكيل جبهـة رأي لا تسحقها الطغيانية السياسية التي لا تجد من يقول لها : هنا حد الحاكم وهنـا حد المواطن، هنا حق المسؤول وهنا واجبه.

ـ اتساع دائرة وفعالية " الجبهة الثقافية " عربيا، وامتلاكـها لأرضـها التي هي الأرض الحرة والنظيفة والخصبة للعرب : أمـة عـزت بالإسـلام، وللإسلام :غرس غذاه العرب بالدم حتى زكا ونما. وتمكين هذه الجبهـة مـن ترسيخ قيمها ومفاهيمها وأخلاقياتها ومبادئها التي هي في نهاية المطاف، قيم العرب والمسلمين ومفاهيمهم وأخلاقياتهم ومبادئهم، في رؤية جديدة للعصـر وتفاعل ناجح معه؛ والتي هي، وبالدرجة ذاتها، حمل للهويـة والخصوصيـة على طريق نضال من أجل العيش الكريم والحرية والحقيقة، في وطن يعيـش مع الأوطان الأخرى حركة البناء والتقدم والحضارة، ويساهم فيـها مسـاهمة ترضيه وتعيد له بعض ماضيه، وتجعله يحمي حضوره بـالتجدد ومشـاركته بالمرونة والقدرة على التحرك.

ـ قدرة هذه الجبهة على المشاركة في أسـئلة الثقافـات وأجوبتـها، وقدرتها على المثاقفة باقتدار وتمايز، وتمكينها من امتلاك مقومات ومعطيـات التصدي لما سيطرحه مؤتمر السلام الدولي العتيد مـن قضايـا وأسـئلة ذات

طبيعة ثقافية، وما يقدمه من مشاريع تطبيع مع العدو الصهيوني، وما استتبع ذلك من محاولات لتخليص الصهيونية من عنصريتها المتأسسة في التلمود، ومن مطالبات صهيونية حتى بعدم ذكر ما يفضح العدو ويعريه في أدبيات العرب وربما في قرآن المسلمين.

إن ما ينتظر الثقافة من مسؤوليات ومهمات وأدوار ومعارك في ساحات الوطن العربي، قبل مؤتمر السلام وفي أثنائه وبعده، سواء أنجح أم لم ينجح، لكبير جدا وخطير جدا. وأكاد أجزم بأنه من دون مراجعة واعية لأهداف الثقافة ومسوغاتها وغاياتها لا يمكن أن نمهد لحوار، ومن دون حوار لا يمكن أن نتفق على أولويات وبرامج عمل مشتركة تمكننا من بلورة أداء الثقافة في فعل بناء ومقاوم ومتقدم على جميع المستويات.

والحوار ليس نهاية المطاف بل هو المدخل الذي نكتشف في ميدانه ما ينبغي أن نهتم به أكثر من سواه، وما ينبغي أن نقدمه مرحليا على سواه؛ وكيف نعيد ترتيب بقية البيت ونعزز نظافته وقدرته على الاستيعاب، وعلى أن يصبح منارة إشعاع وقوة تحمي حق الإنسان ومصلحة الوطن وسلامة الممارسات، في ظل الدساتير والقوانين والعقيدة والأعراف السائدة المحترمة.

وعندما نذخل دائرة الحوار وداره، وتأخذ معالم البيت ومحتوياته وعيوبه تتجلى لنا، سوف نقف على مقدار ما تم تدميره من علاقات وقيم ومقومات، وسوف نكتشف على محك صدق الانتماء للثقافة وإخلاص النية للحق والوطن: كم ضمر دور الثقافة، وكم تراجعت في ساحات المواجهة الداخلية والخارجية، حتى كثر الظلام من الحكام، وسادت الطغيانية ساحات كثيرة، وانتشر نمط الدولة الأمنية، وضاع المواطن وحقه وحرياته، ثم جاع وسحق ولبس قناعا، ليخفي حتى ألمه وحقيقة وجهه ووجوده؛ وما زال الرعب يلاحقه في أرجاء الوطن من المحيط إلى الخليج، فمارس تحت ظل القهر والجوع والخوف ما لا يتفق مع قيمه وأخلاقه وعقيدته ومروءته، وتجرع الذل، وقبل بما يشبه التنازل عن نضال دام ما يقرب من نصف قرن

من الزمان، على طريق أشرف قضية وأعدلها، ليكتفي بسلام في ظل تفوق عدوه عليه، والتهديد المستمر لذلك العدو، ورضي بكل ما يقوله له أهل السياسة الذين يمالئهم دائما أهل الثقافة، على نحو أو آخر، ويزينون لهم أعمالهم، خوفا أو طمعا، ويتركون الشعب وحقه عليهم؛ جراء ضعف جبهتهم وخضوعهم لما خضعت له أكثرية الناس، وتنازلهم عن أفضل الجهاد" كلمة حق في وجه سلطان جائر".

وسنجد أن ما يعيق صف أهل الثقافة عن الفعل المقاوم، والأداء الإيجابي البناء، يكمن في البيت الثقافي ذاته، حيث القوى تتصادم لتكون قوتها ومصلحتها في النهاية صفرا أو ما يقارب الصفر، وحيث استعداء على الرأي يضعف كل صاحب رأي ويقوي كل صاحب سوط، وحيث التنازل عن الشعر لمصلحة الشعار، وعن الحكمة لمصلحة الحكومة، وعن رحاب الفكر لمصلحة التسييس؛ و حيث يفقد الإبداع جلاله وتأثيره ومهابته ومكانته، ويصبح الأعلى صوتا في الإعلام والأقدر على توظيف التنظيم في إعلام ثقافي سليم، هو الأرفع مكانة والأشد صيانة. ونشأت في سوح الثقافة كما في بعض سوح السياسة " رتب تمنحها الرتب" ومراتب تحددها المكاسب، وأصبحت ترى "المهيب الركن " و "العميد الركن " و "المشير" و"القدير" حسبما تهيأ لهذا أو لذاك من صناجة الإعلام المحكوم بالسياسة و" الأدلجة" والتنظيم، الذي يصنع عصيا غليظة ليضرب بها فيصنع سياسة بالأدب، ويصنع كتابا ليصدر سياسة.

إن كثيرا من مساحات الإبداع ضاعت أو قتلت، وكثيرا من المبدعين أهملوا، وكثيرا من التيارات والأسماء، ارتفعت على أرضية غير أرضية التقويم السليم، في إطار الأدب والفن والفكر. وما زلت ترى النقد " الإيديولوجي" يدمغ مساحات الفكر والأدب ويكشف بسطوته كم من التجني مورس على ثقافتنا، وكم من المقاييس والمعايير والمصطلحات السياسية ـ الإيديولوجية المستوردة، تحكمت بتكوين ثقافتنا المعاصرة وإعلامها، وكم أثر ذلك على تكوين القراء والجماهير والإعلام والرأي العام.

ويحق لنا أن نسأل بجدارة : هل تربة الثقافة العربية ـ الإسلامية هي التي أنبتت فعلا، في واقع الناس هذا وعصرهم هذا ومعاناتهم هذه ونضالهم وتطلعاتهم وأحلامهم، هل هي التي أنبتت وأنتجت ثقافتهم وأدبهم وأعلامهم؟؟!

ويبقى الجواب مرهونا بإعادة ترتيب البيت الثقافي العربي على أسس سليمة.



أسئلة تنتظر الفكر القومي



ليس الفكر القومي ــ عندنا نحن العرب على الخصوص ــ غاية قائمة بذاتها... لذاتها، متحققة في الوجود المنشود بمجرد الوجود، من دون حاجة إلى تلك الترجمة المرجوة لذلك الفكر إلى حقائق ومعطيات، ذات مرتسمات وظلال وحضور فعال في الواقع المعيش.

وليس هو انطلاقا خالصا لحركة العقل في فضاء الوجود خارج حدود العقال والانفعال، يبرر وجوده مجرد وجوده، وتتكاثر مقولاته لمجرد التكاثر، وينمو سرطانيا لمجرد النمو وإثبات الحضور، أي نوع من أنواع الحضور؛ ولا هو نوع من التجريد النظري يتوخى منه أن ينجز عالما من الرؤية يشكل تعويضا عن تاريخ أو تقويضا تعسفيا للتاريخ؛ ولا هو ترف إنساني توصل العربي إلى ضرورة ممارسته أو نشدانه أو استهلاكه، تلبية لنوع من النزوع البشري نحو التميز في التمايز على أرضية مرضية.

الفكر القومي العربي، في تقديري، وسيلة أملتها ضرورات واقعية، ومسؤوليات تاريخية، ومعطيات ومواجهات وتحديات مصيرية، وهو حاجة قصوى لإحداث تغيير في الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي، على أرضية الوعي المعرفي والعلم والعمل، وصولا إلى تحقيق أهداف مرحلية للأمة في مسار أهدافها العليا. وهو فكر يستمد مقومات قيامه واستمراره من الواقع، وترتبط مسوغات وجوده ونموه بالقدرة على تجسيده، وعلى إقامة علاقة جدلية بينه وبين الواقع العربي الراهن، أي بين التنظير والممارسة أو بين التنظير الواقعي ــ والواقع المعيش، بقسوة وقائعه وحقائقه ومعاناة الناس والأقطار فيه.

وعلى هذا فإنه، بصرف النظر عن الكم الذي تراكم منذ ارتقائه على طريق رؤية سياسية ـ ثقافية شاملة في العصر الحديث، وبصرف النظر عن تجليات تطبيقه المحبطة، بأشكال مختلفة ولأسباب عديدة، فإن الفكر القومي مطالب، في الوقت الراهن وعلى ضوء ما جرى ويجري من أحداث وتطورات وتصفيات تتم للقضايا الرئيسة، وتمس المستقبل والمصير والحق والتكوين القومي والهوية، تمس كل ذلك في الصميم، الفكر القومي مطالب :

- بمراجعة شاملة للمسيرة الماضية، تطال المصطلحات وتدقيق معانيها وما طرأ عليها، وكذلك الثوابت، لجلوها وتجديد الالتزام بها وتطوير الرؤية لكل ما يبنى عليها، وللمشروع القومي المرتجى وكيفية توظيف الفكر والخطاب لتحقيقه، وتطوير ذلك المشروع بمرونة ليتجسد ويتقوى من خلال استفادته من مقولات الفكر ومعطيات الواقع، على أرضية المتغيرات العربية والدولية وانعكاساتها العميقة.
- بدراسة أعمق وأوعى وأشمل للواقع العربي في أقطار الوطن العربي، دراسة سياسية ـ اقتصادية ـ اجتماعية ـ وثقافية، ليأخذ تلك الحقائق بالاعتبار وهو يبلور رؤيته ويقدم تصورا عمليا لتجسيد تلك الرؤية، يأخذ بالاعتبار ما غدا وقائع السياسة العربية والجغرافيا السياسية القائمة؛ تلك التي أخذت تكتسب معاني وطنية عليا تتناقض والمفاهيم القومية، وتنشأ على حساب البعد والفهم القوميين، وأصبح لها تجليات في قيم الوجدان الفردي والجمعي ومقوماته، وهي تنمو سرطانيا على حساب القيم والمقومات القومية للأمة العربية، وتحدث تغييرا ذا مرتسمات عميقة في الواقع وفي التفكير.
- بتجديد الالتزام بالقضايا والأهداف القومية. إذ يبدو أنه حتى المسلمات والبديهيات التي كانت مستقرة في الفكر والوجدان وتهابها السياسات القطرية العربية في الماضي، فقدت الكثير من مصداقيتها وقدرتها على التأثير. وهي تحتاج اليوم إلى تثبيت وتجديد، جراء ما لحقها من

تآكل وتخريب، وما أصاب الوجدان القومي كله من خراب وضمور وفساد وأمراض. فقضية فلسطين، والوحدة العربية، والأخوة المشتركة، والمصير المشترك، والقيم القومية والدينية التي تجمع الناس... كل ذلك تشظى في فضاء السياسة العربية الجديدة، والتجارة الشاملة بكل شيء، حتى بالمبادئ والثوابت والمصير والقيم.

- بفتح حوار مع الآخرين على أرضية الاحترام لحق الآخر في الاختلاف، والشراكة الحقيقية في المصير والوجود، ومن ثم في صنع القرار وصوغ الرؤية والبرامج التي توصل إلى تحقيقها. وهذا يقتضي استعدادا ذاتيا لنبذ كل عصموية، ولنبذ كل استعلاء، والاستعداد أيضا لرؤية الحقيقة أينما تكشف عنها الحوار، الذي يقوم على المنطق من جهة وعلى المصلحة العليا للفرد والأمة من جهة أخرى؛ كما يعني تقديم المشروع أو الرؤية، من المنطلق القومي، بوصفه مشروعا مقترحا على الآخر ليشارك في تكوينه وصوغه وإنجازه، وليس مشروعا ناجزا يقتضي الالتحاق به والتصديق عليه، وإلا فالطلاق والفراق والاتهام والدم المهراق !؟ ولا يعني هذا أيضا استعدادا تاما للالتحاق بأي مشروع والتنازل عن جوهر القضايا والأمور لأي سبب.

- باستلهام وجدان الناس وأخذ نتائج ذلك الاستلهام بالاعتبار، والتعرف على التكوين الجماهيري العام بدقة علمية، واحترام ذلك التعرف، وقبول ما يمليه من معطيات ونتائج، مع دور للطليعة يبقيها على صلة بالمستطلع لهم، ويجعلها قادرة على الارتياد والعودة بنتائج ذلك الارتياد لتقود الناس إلى ساحة رؤية جديدة، بإقناع واحترام وموضوعية ونقاء ثوري، تحتاج إليه المرحلة القادمة وتحتاج إلى مصداقيته.



البعد القومي في الخطاب السياسي العربي

من يتفحص الخطاب السياسي العربي في السنوات الأخيرة، لا سيما بعد مؤتمر مدريد، يقف على ضمور مريع في البعد القومي لذلك الخطاب، ويكاد لا يلمس حضورا لأي التزام قطري حيال القضايا القومية والنضال القومي، بعد أن كان ذلك هو مركز الخطاب السياسي وثقله وجوهره في العقود الماضية من هذا القرن.

وإذا مرت عبارات تشير إلى شيء من الاهتمام القومي، ولا أقول الالتزام القومي، فإنها تجيء من باب رفع العتب، أو جراء رسيس قديم يطفو من آن لآخر على سطح ذلك الخطاب ولا يلبث أن يغيب من دون أن يترك في أذن السامع وقلبه أي تأثير يذكر.

ولم يكن ذلك سوى نتيجة منطقية لتجذر القطرية في السياسة العربية، وزيادة تبعية تلك السياسة للغرب، وهجنة قرارها أو مصادرته ــ رهبة أو رغبة ــ واضمحلال الثقة فيما بين الأنظمة العربية، وحلول الخوف من الأخ الجار بدل الاعتماد عليه والاستقواء به، وزيادة حجم التفريط بالقضايا المركزية للأمة من قبل مسؤولين من العرب، من دون حساب؛ غير آبهين بشعوبهم أو بحساب التاريخ لهم، أو بمواقف تلك الشعوب وذلك التاريخ منهم، لأنهم ربطوها إلى لقمتها التي ربطت بدورها إلى كتلة ثقيلة من الهم والغم والقلق والخوف، وأخذت تكرج نازلة على سفح منحدر ينتهي إلى هاوية سحيقة يتوقى المرء الوصول إليها أو يؤخر ذلك الوصول بكل الوسائل، ومنها

الصمت عن قول الحق، والاستغناء عن فضائل كثيرة ومقومات كرامة وحياة ومواطنة.

ولأن الالتزام القومي ضمر حتى كاد أن يتلاشى، فقد تقزمت كل القضايا والطموحات والتطلعات والأحلام القومية، وتراجعت الموضوعات المتصلة بذلك عن مكان الصدارة الذي كان لها، وصار الحديث عنها أو التعلق بها نوعا من غواية يستتاب صاحبها، وشيئا من خطل وجهل وخبل يستوجب التقويم والتعنيف، وإرهاصا بخلل في السلوك يستدعي الوصاية، وغبشا يلف الرؤية، وتشويشا يلحق التفكير والتدبير، وكل ذلك يحتاج إلى "معالجة" من أهل الحل والعقد والاقتدار.

ليس ملحا الآن أن نعرف المزيد عن الأسباب والعوامل التي أدت إلى ذلك، وإن كان من الضروري معرفة تلك الأمور بدقة وعمق، واستخلاص النتائج منها في أقرب وقت، ولكن الملح الآن، في مناخ الانهيار والتراجع والمسارعة إلى الاعتراف بالعدو الصهيوني، وتبادل العلاقات والمنافع بينه وبين أنظمة عربية ورجال أعمال ومفكرين وصحفيين وأدباء وأجيال صاعدة من أبناء الأمة العربية، تحت مظلة "بذور السلام" التي يرفعها أميركي متصهين، في ظل التطبيع الزاحف على كل شيء؛ الملح الآن هو استنبات العزيمة والمحافظة على بقايا ثوابت ومواقف وعزم، لنؤسس، انطلاقا من ذلك كله، تجديدا لحضور البعد القومي في الخطاب السياسي العربي الراهن، ولنعيد ولو ظلا من الالتزام القومي بذلك الخطاب، الذي غدا مفجعا وموجعا في تقوقعه القطري وانهزاميته وتسليمه بالأمر الواقع !؟!

من المسلم به أن غياب التركيز على البعد القومي في ذلك الخطاب لم يأت من فراغ، ومن المعروف المعلن أن الغرب، وعلى رأسه الولايات المتحدة الأميركية، والعدو الصهيوني ومعه شرائح من المتعاونين العرب ـ ساسة ومثقفون ومنتفعون ـ يركزون جهودا كبيرة، ويبذلون أموالا، ويسخرون إمكانات وقدرات، لكي يضمحل ذلك البعد القومي، ليس في الخطاب السياسي

العربي فحسب، وإنما في الوجدان الفردي والجمعي على امتداد الوطن العربي. وقد قالوا بصوت جلي مجلجل، منذ عدة سنوات: وداعا للقومية العربية، وداعا للوحدة العربية، ولكل أشكال العمل القومي والأحلام القومية؛ بعد أن تثبتوا من تدمير الكثير مما يربط العربي إلى العربي، ومما يؤسس لثقة حاكم عربي بحاكم عربي آخر.

فكيف نستعيد بعض الذي كان لنا، مما لم يكن يعجبنا أو يلبي طموحاتنا وتطلعاتنا، في الخمسينيات والستينيات وحتى في السبعينيات من هذا القرن؟ كيف ننقي الأجواء العربية ونقيم جسور الثقة بين الأقطار والأنظمة والقلوب ؟ بل كيف نوقف اندفاع الانهيار في بنية الثقة وصلات القلوب، بعد الذي صار والذي جرى؟!

هل يكون ذلك بمبادرات عربية من بعض الأقطار أو الحكام الذين يتمتعون بموقع قيادي ــ قومي، ويحظون باحترام وثقة، على الصعيدين الرسمي والشعبي، ويحملون تاريخا متميزا من النضال في سبيل الوحدة القومية والمصلحة العربية العليا، ويحرصون على موقفهم ودورهم وتاريخهم، ويؤرقهم ألا تتحقق رؤاهم وتطلعات أجيال يمثلونها؟؟

أم تراه يتم من خلال حوار ثنائي وصلات ومصالح، بين قطرين أو أكثر، لا يلبث أن يتوسع ويتعمق ليشمل أقطارا ومستويات أداء، ويشيع اهتماما عربيا على أسس موضوعية تتصل بوحدة الوجود والمصير العربيين في هذا العالم؟

أم أن للمثقفين دورا وجهدا وتأثيرا لا بد أن يؤتي أكلا ويحقق بعض النجاح، وأن من واجبهم أن يطرحوا ذلك ويحشدوا له، ويرصوا صفوفهم من حوله؟!!

إن كل ذلك مطلوب، وكل ذلك يمكن أن يدفع عربة القومية العربية المتوقفة عن المسير إلى الأمام، ويعيد الاعتبار والحضور والتأثير للبعد القومي في الخطاب السياسي العربي، ويعيد له بعض حيويته وتأثيره. ولكن لا بد من الانطلاق من بعض ما أود أن أنظر إليه بوصفه مسلمات، استنادا إلى

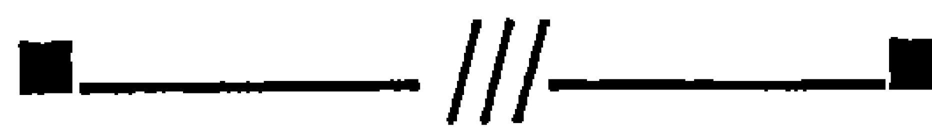
استقراء التاريخ وتجارب الشعوب، ومن ذلك:

* أن مقومات القومية العربية، والوحدة العربية، والمصلحة العربية العليا، والمصير المشترك، لأبناء الوطن العربي لم تزل ولن تزول، ولا غنى لهم عنها إذا ما أرادوا لأنفسهم إنقاذا ولأوطانهم تقدما ولحقوقهم استعادة.

ولا يمكن للأمة العربية، التي ترفض التسليم بأنها انتهت أو بأنها يمكن أن تنتهي، لا يمكن لها أن تستسلم لما يراد لها من مصير؛ وتاريخها الذي عرف الهزائم والانتصارات يؤكد قدرتها على استعادة الحضور والتأثير، فضلا عن الحقوق والأرض والمكانة.

* أن العدو الصهيوني الذي أخذ يقود المنطقة بدعم غربي إلى مفاهيم ومعطيات وسياسات جديدة وواقع جديد، تحت مقولات "الشرق أوسطية" ومشاريعها، في ظل الاعتراف و /اتفاقيات عقود/ الإذعان أو الخيانة، لا يمكن أن يصبح جزءا طبيعيا من النسيج الشامل للمنطقة، لا في ظل السلام ولا في جو الحرب؛ وليس له مستقبل بين أبنائها، ولا موقع له في أرضها، ولن يستثمر تأثيره وقوته إلى ما لا نهاية. فلم يعرف التاريخ قوة احتلال وظلم وظلام واستعمار وعنصرية بغيضة بقيت مهيمنة على شعوب حية تتعلق بالحرية والحياة والكرامة والحق وتضحي من أجل الخلاص من كل ما يشينها ويهينها.

*وأن على الذين تغشى بصائرهم وأبصارهم غشاوة، فيرون الوجود والحاضر والمستقبل بعيون صهيونية أو أميركية، أو انهزامية ـ استسلامية، أن يراجعوا حساباتهم، ويقيموا مبادراتهم وتصرفاتهم على أساس من الاعتبار بحقائق تاريخ العرب في ماضيهم وحاضرهم، وعلى أساس من رفض الإسلام، العقيدة الرئيسة لأغلبية العرب، لكل أنواع الاستخذاء والتبعية والركوع لغير خالق الخلق، باذل الرزق، الواحد العزيز الجبار، ملك السموات والأرض. وإن غدا لناظره لقريب.



العمل العربي المشترك

العرب في كل مراحل نضالهم، وفي مختلف الظروف والأوقات، وعلى امتداد الأقطار وتغير الحكومات كانوا يقولون إما بالوحدة أو بالتضامن، وقليلة هي الفترات التي تم فيها تضامن فعلي، وأقل منها بكثير تلك التي ساد فيها روح وحدوي على الصعيدين الرسمي والشعبي معا.

والعرب يعرفون جيدا ويذكرون جيدا أن جماهيرهم أقرب إلى الشعور القومي ـ الوحدوي وإلى ممارسة التضامن واستشعار أهميته وضرورته، من حكوماتهم؛ ومن يستعرض، على سبيل المثال لا الحصر، مظاهر العمل العربي المتسم بروح التعاطف والتعاون الأخويين، والمتجه نحو التحرير أو إلى التصدي لأنواع العدوان ومظاهره وأشكاله، لابد أن يتوقف عند محطات على هذه الطريق الصعبة في التاريخ العربي المعاصر منها : حروب ١٩٤٨ ـ ١٩٥٦ ـ ١٩٦٧ ـ ١٩٧٣ ـ ١٩٨٢ مع العدو الصهيوني وحلفائه وأعوانه، ومنها حرب التحرير الجزائرية، ومرحلة وحدة سورية ومصر. ولا شك في أن الدرجة تختلف بين موقف وموقف، من قطر إلى قطر ومن حكومة إلى حكومة في القطر ذاته؛ ولكن المظهر العام للحياة الاجتماعية والسياسية العربية يسجل مثل ذلك التوجه في تلك الظروف والمراحل في حياة أمتنا العربية.

وإذا كان العرب اليوم يواجهون حالة من الانقسام حادة وقاسية ومؤسفة و مؤسية، رسميا وشعبيا، بسبب أزمة الخليج وحربه وما رافق ذلك وأسفر عنه وأنتجه، فإنهم مدعوون إلى التدقيق والتأمل والتبصر، أكثر من أي وقت مضى، فيما سيسفر عنه: وضع عربي بالغ التمزق، وشارع

عربي بالغ الضعف، منخور العزم بالتناقض والخلاف والعداء والفساد والفوضى واليأس، موزع الرأي والمشرب والهوى والأتباع؛ في ظل الظروف العربية والدولية الراهنة، وفي هذه المرحلة من مراحل المواجهة، بين الأمة العربية وأعدائها من جهة، وبين حقائق العصر من تقدم وتطور علمي وتقني وحضاري ومن تحالفات وتعاون لحفظ المصالح الحيوية والوجود من جهة أخرى.

وإذا ما عرضوا نتائج تأملهم ذلك واستخلاصاتهم على عقل بارد وضمير دافئ، في ضوء منطق عملي ورؤية تاريخية شاملة وواقع يغص بضغط الضرورات الملحة، وجدوا أن مواجهة أسئلة الوضع العربي الداخلي وحقائقه ومتطلباته، والعلاقات العربية ـ العربية، والعلاقات العربية ـ الدولية، تحتاج كلها إلى جهد عربي منسق متكامل، وإلى تضامن عربي متين يتنامى ليتحقق حد أدنى من العمل العربي المشترك، يقيم للعرب قائمة بوجه التحديات والصعوبات من جهة، وبوجه العدو الطامع المستمر في احتلاله وقهره وتعديه وتحديه من جهة أخرى.

وعلى فرض وجود اقتناع عربي قطري بضرورة توافر ذلك في الساحة السياسية العربية، فهل هناك فرصة لنجاح تصور موحد لعمل عربي مشترك يحقق الحد الأدنى من التنسيق والتعاون والتضامن في الظروف الراهنة، وما هي أرضية ذلك وآفاقه؟؟

إن الدول الثماني التي وقعت إعلان دمشق ثبتت أرضية معينة وأهدافا وآلية عمل محددة للتحرك في المرحلة القادمة ولمواجهة مقتضيات تلك المرحلة، فهل ستدخل الدول العربية الأخرى تحت لواء هذا الإعلان أو "يتوجب" عليها أن تدخل تحت لوائه ؟! أم تراها مدعوة إلى مناقشته بهدف إغنائه والحفاظ عليه، وإلى تقويته بالدخول فيه؟؟ وكيف ستنظر إليه : إفراديا أو "جماعيا " من جهة أخرى، وإلى معاني دخولها فيه ؟ هل سترى فيه محورا أم انفرادا برأي ورؤية ؟ وهل ستعترض عليه إفراديا أم تتكتل ضده جماعيا ؟ أم تتجه إليه مجتمعة ومنفردة، سرا وعلنا، بحرص عليه وبتقديم مقترحات وتعديلات لإغنائه، بوصفه أرضية مشتركة يقبلها الجميع وينشد تعزيزها

الجميع ؟ أم أن تلك الدول ستبقى على "جهادها" واجتهادها، تخوض غمار المعركة وحدها بأسلحتها من وجهة نظر ورؤية تحددهما هي، وترى أنها على حق وأن الآخرين على باطل؛ ويبقى كل فريق ــ كما كان كل فريق سابقاً ــ على اقتناع بأنه المخلص والمنقذ للأمة، وأن ما يقدمه هو الأصوب و الأصلح، ويبقى كل ما يقال ويفعل بعد ذلك كله وقبل ذلك كله، حرف امتناع لامتناع، لا يصنع جملة ذات فعل ومعنى؟! ويبقى يظهر رغبته في تبني كل الشعارات العربية وفي تطبيقها، ولكن إذا اتبعه العرب وصاروا له ظلا، وتحولوا من الشراكة والندية إلى حملة راية في ركابه ؟!

إن مثل هذه الحالة في تقديري، يجب ألا تنشأ، كما ينبغي ألا تسود في المقابل حالة تعصب أو تشنج، تهدف إلى فرض المعلن من رأي وقرار، من دون استعداد للأخذ والعطاء، من خلال الحوار، بغية الوصول إلى ما يجعل الإعلان عربيا في شموله بعد أن كان كذلك في منطلقه وأهدافه. وإذا لم يصل الاقتناع الداخلي التام إلى هذا فستبقى الحالة العربية السابقة، التي تنطوي على محاور ومناورات، أو على رضا معلن وامتعاض مكتوم ــ وهي الحالة التي عطلت الجهد العربي العام، وألغت كل إمكانية على طريق التضامن الفعلي والعمل العربي المشترك الناجح، وحالت دون نشوء مناخ حوار بناء، يدخله العربي على أرضية الأمان والاطمئنان والثقة والإخلاص للأمة، والالتزام بإعلاء شأنها ومصالحها على كل شأن ومصلحة ــ ستبقى هي السائدة.

وإذا لم يدخل العربي ساحة الحوار ولديه الاستعداد للانتقال من موقعه الذي هو فيه، حسب جغرافيته السياسية الحالية، إلى الموقع الذي يدعى إليه أو ذاك الذي يقتنع به ــ من خلال حوار يقوم على الاحترام، والاعتراف بحق الآخر الشريك، لا في أن يقول نعم أو لا ويمضي على هدى منهما، وإنما في أن يشارك بمسؤولية والتزام في رسم ملامح المستقبل ومشروعه؛ وهو بذلك يغير اقتناعا أو يكونه أو يرسخه، ويدخل مع الآخرين من باب واحد أقاموه جميعا وارتضوا الدخول منه جميعا، ليتحمل كل منهم مسؤولية

وعبئا يفرضهما عليه دخوله الحر فيما دخل فيه الآخر الحر، وليمارس دورا ويصنع مع الآخرين مستقبلا للجميع ـ إذا لم يفعل العربي ذلك باقتناع واقتدار، فإن الحالة العرجاء ستبقى مسيطرة ومعطلة لكل تفاهم أو عمل عربي مشترك.

إن العمل العربي مادام يحكم بمواقف وقرارات ومشروعات تشتم منها رائحة الفرض والسيطرة أو الإملاء، وما دام يتم في مناخ فيه مداورة ومناورة واستخفاف واستغفال من أي نوع، وما دام يحكم أحيانا بالشطارة السياسية القطرية واستراتيجيتها التي تريد، في كثير من الأحيان، أن تسخر العام لخدمة الخاص، وأن تعلي الشأن القطري أو الإقليمي على الشأن العربي العام؛ ومادام يملي على الأمة أحيانا، أو يجير ليخدم مصالح قوى مسيطرة أو نافذة الرأي والكلمة وأغراضها، على حساب مصالح الأمة وحقوقها وإرادتها وشعورها باستقلالية القرار وحرية الإرادة، فإنه يبقى عملا محكوما عليه وليس له؛ ولا يكلف أحد نفسه ولن يكلفها مشقة الأخذ به بعدما يخرج من قاعة الاجتماع ويعود إلى وطنه، حيث مجال التنفيذ الفعلي.

إن العرب وهم يقبلون اليوم على مواجهة واقع ما بعد حرب الخليج، وعلى معالجة أوضاع خلقتها الحرب، وعلى التصدي لعدو يريد أن يستفيد إلى أقصى حد من الحرب، ويحول ما استطاع أن يحوله من نتائجها لصالحه، ويتهرب ما استطاع إلى التهرب سبيلا مما قد يفرض عليه لصالح الشعب الفلسطيني والأمة العربية من حلول وحقوق، في ظل الشرعية الدولية وقوانينها المستيقظة الآن؛ إن العرب وهم يقبلون على ذلك كله، مدعوون إلى:

* اعتماد الصراحة التامة في طرح الأمور والتطورات والقضايا والآراء من دون مواربة أو مجاملة.
* اللجوء إلى الوضوح التام في تحديد الأهداف والوسائل والأدوات والمسؤوليات، ووضع البرامج التنفيذية في إطار استراتيجية ومبدئية أخلاقية ثابتتين، لمواجهة كل مراحل العمل المقبل.

* التعبير الجلي عن المواقف، والاستعداد العام للدخول في حوار حول كل أمر أو قضية أو موقف، من منطلق البحث عن الحق والعدل والمصلحة القومية العليا، وتطبيق الممكن من الأمور والحلول، على ألا يغيب أبدا البعد المستقبلي والإمكانات المستقبلية لأجيال الأمة في التمسك بحقها وحسمه، والحفاظ على كرامتها وتعزيز تلك الكرامة بكل الوسائل.

* الانطلاق من روح الشراكة في المسؤولية وصنع القرار وتنفيذه، وتحمل النتائج والتبعات المترتبة على ذلك، وتعزيز الثقة المتبادلة في إطار الوعي بالذات، والإخلاص للأمة، والحرص على قضاياها وعدم تخوين أحد لأحد، أو وصاية أحد على أحد، أو تبعية أحد لأحد؛ وحين تبنى جسور الثقة والاطمئنان، ويرتاح الأخ إلى أخيه ويرى فيه سندا وحاميا، ويأمن جانبه ويتوثق من إخلاصه وصدقه وعزمه، حينئذ تبدأ عجلة العمل العربي المشترك، أعني العمل المثمر والنظيف، بالدوران؛ ويصبح البيت العربي واحدا فعلا وأهله على قلب واحد، وأمنه وسلامه واحد أيضا، ويقوم تضامن وطيد يصنع مناخ وحدة أكيدة؛ عند ذلك نضع أرجلنا على طريق الخلاص والتقدم والمستقبل المشرق، وعلى طريق السلف الصالح الذين اعتصموا بحبل الله فما تفرقوا ولا ذلوا، وتركوا لنا قدوة حسنة، ومدى حضاريا يملأ التاريخ بالصفحات المشرقة.

فهل نحن فاعلون ما يمهد لبناء يعيد لأمتنا حالة من مجد وتقدم وبناء؟!

إنني لا افقد الأمل، وأرى هذا الوقت من أكثر الأوقات صلاحا لمثل هذا العمل؛ والله ولي التوفيق.



دعوة إلى عمل عربي مغاير

لم يعد هناك مجال لتضييع الوقت في المماحكات الكلامية حول ما هو عادل وشرعي ومنطقي وخلقي، مع الغرب المتصهين والصهيونية العنصرية المنتشرة ظلاما في فلسطين المحتلة. ولم يعد مجديا ولا مفهوما ولا سليما، بأي حال من الأحوال، التغافل أو الغفلة والدخول على أرضية ذلك أو سواه، في حوار الطرشان مع عدو يرسم استراتيجية لقتلك واستعبادك واستلابك ويسارع في تنفيذها بكل الوسائل، تحت كل الذرائع ويجعلك تجري ليلهيك عن نفسك، خلف منطقه وافتعالاته ومفاهيمه المشوهة، وتسويغه للأفعال والتدخلات والممارسات التي أصبحت تزري بالعقل والحق والإنسان؛ ولم يعد مقبولا الاستمرار في لعبة تطال كل المفاهيم الرئيسة وتمس خصائص الأمم والشعوب في ثقافاتها وعقائدها وأخلاقها وهويتها وخصوصياتها، وتسخر المنظمة الدولية وهيئاتها للأغراض الاستعمارية، وتشوه قرارات دولية وتمحوها بالتسويف، وتفرض قرارات دولية وتبيد بها إرادات وشعوبا ومعنويات دول، بالتنفيذ التعسفي والقهر الفتاك.

لم يعد ذلك مجديا ولا مفيدا ولا مقبولا بأي مقياس، بل أصبح الاستمرار فيه والسكوت عليه ينطوي على نوع من الاستهانة بالوجود القومي والإهانة للذات، والمهانة للتاريخ، كما ينطوي على إزراء بالحقوق والقيم والمقدرات.

في الوقائع التي يقدمها الواقع الراهن أو يشير إليها، نحن أمة تفصل لها المشكلات فتلبسها وتتباهى بها، ويرشح منها الوهن فتتغافل عن حالها، ويزين لها الافتتان بفتنة القتل فتذهب في ذلك إلى المدى الذي يرضي العدو، ويقرع لها طبل فترقص على إيقاعه حتى يكتفي الطبال، وترفع عليها مقرعة

فيتفرق جمعها شذر مذر؛ كل يفرح لأن الضربة لم تطل رأسه بعد، وإن كانت ألقت أخاه أرضا يتفحص بدمه.

وحين يركز أمر الفتك علينا وفينا، بأيدي الأعداء وأيدينا، فإنما يؤسس على ذلك فتك بكل من يرتبط بنا ونرتبط به، حضاريا وعقائديا ومصلحيا؛ حتى الإخوة الذين باعدت بينهم ظروف الحياة وصروف المحن، من أبناء أمتنا، ينال كل منهم جرعة من كأس الصاب، وهو متسمر في مكانه من أرض البشر، ليرى الناس كل الناس، كم هو عاجز ابن تلك الأمة، وكم هي أمته أعجز منه وأقل قدرة على استنقاذه؛ فيكون في ذلك كله عبرة ومهانة ودفع نحو المزيد من السحق والمحق، ليزداد أمرنا في الناس خفة وهزالا، ولتتحقق على أرضية ذلك خطط أعلنت ضدنا، ثم غطي الإعلان عنها بالاستخفاف المقيت الذي يشكل جزءا من مخطط تنفيذها.

وإذا كان ما نصرخ ونموت بسببه لا يزول إلا بفعل منقذ، فعل قوة واقتدار؛ وعلم يجلو الغم ويزيل الهم ويحرر الأذرع والإرادات والقرارات والأعماق، قبل تحرير الأرض من الاحتلال والأيدي من القيود والأعناق من الأغلال، والعقول من استفحال الجهل؛ فإن توجهنا نحو ذلك الفعل لم تظهر ملامحه بعد، ورؤيتنا لمشروعنا البديل لم تنضج في الأماكن التي ينبغي أن تنضج فيها.

في الواقع الذي تشير إلى بعض ملامحه الوقائع، نحن مكبلون بأصفاد وأغلال مزدوجة، منها ما يرميه علينا الأعداء ومنها ما هو من فعل أنفسنا وإخوتنا وأبناء جلدتنا.

ـ من يفاوض منا من أجل "سلام" على أرضية حرب الخليج الثانية والمتغيرات الدولية، وما أصاب العرب من انهزام، يفاوض وهو يسند ظهره إلى رغوة وهم أو توهم عربي كبير يكبر كل يوم، ويمتد ويشتد كل يوم.

وحين تضيق دائرة الخناق على الواقف في تلك الساحة ويتوجه بصوته ويديه وعينيه لأمته، لا يجد إلا أذرعا تشده لتغرقه في الدوامة، ولا يسمع حتى أصداء صوته، ويخال أنه يسمع صارخا يصرخ به: أنت اخترت طريقك فاحمل صليبك فيها وامض إلى جلجلتك، إنا نحمل صليبنا في طريق أخرى.

ـ ومن يواجه عدوانا وتفتيتا لمقومات الحياة، في كل ما يشكل قوام الحياة، لدى الوطن والناس في بلده، لا يلقى إلا انصرافا من إخوته عن مشكلة شعبه، وتشديدا على محنة ذلك الشعب.

ـ ومن يكتوي بنار الفتنة ويخوض دوامة القتل والاقتتال الداخليين، يجد في كل من حوله عدوا ومصدر فتنة ونارا تسعى إليه، فيزداد شكا وارتباكا وتشكيكا، ويوغل في طريق الدم، فاتحا طريق الندم القادم، ولات حين مناص أو ندم.

ـ ومن يدير ظهره لأمسه ولأمته، يجد نفسه يغرق شيئا فشيئا في الغربة ويدخل شدق التنين، أو دوامة مغرقة مهلكة، ويصبح؛ وقد قطع منتصف الطريق إلى ما يظنه شاطئ الأمان، وقطع حباله وأبحر في مركب الآخرين؛ يصبح مندفعا بالمكابرة مدفوعا بصدمة الأمس القريب التي أخرجته من جلده وأذهلته عن نفسه وأهله، ولا يجد من يذهب في تنبيهه إلى خطورة ما يدرج فيه من إغواء وإغراء عاقبتهما وخيمة، لا يجد من يذهب في ذلك إلى حدود إمساكه من تلابيبه بدافع من حرص، وتحذيره بوعي وحكمة وإخلاص وتصميم، ودعوته إلى أن يعود إلى أهله وداره وتاريخه ومصدر العزة في شخصيته وقراره.

ـ ومن يجوع ويعاني ويخوض بحر المرارة لا يجد من أمته مسعفا ولا منقذا، بل على العكس من ذلك يجد من يزين له الارتماء في حضن الموت الأمر، حضن العدو الذي يحمل رغيفا بيد وموتا زؤاما بأخرى، ويتوغل بخنجره نحو القلب، إن لم " تهد " معه إلى ما يريد من تقدير وتدبير وتبشير.

إن وطننا يتناوشه اليأس، ومواطننا يغرق في سطحية وانحلال، ويستبدل الطموح العالي بتطلعات زاحفة قصيرة النظر، ويكتفي الناس عندنا ـ

تحت وطأة تراكم الإحباط ــ بأقل مما تكتفي به بعض ذوات التطلعات والطموح من الكائنات الحية.

فكيف بنا نبقى وكأننا معلقون بين السماء والأرض، في أعناقنا أنشوطة العدو، وأرجلنا تلوح على بعد أمتار من أرض تثبت فيها الأقدام ؟! شــاخصة أبصارنا إلى حلول يرسمها العدو ويفرضها وكيله أو شـريكه الـذي يرتـدي مسوح الوسطاء، ويقرعنا بصواريخه وقنابله كلما رأى ضرورة لذلك، ونحـن لا نملك إلا أن نسترحمه بنظرات تغرقها الدموع؟!!

كل شيء مستهدف، كل شيء مبرمج على خرائـط المحـق والإبـادة والإلحاق والإضعاف، كل شيء فينا وفي أوطاننا مسـتهدف؛ ومـا تلميحـات المجاملة والاعتراف بالأهمية إلا استدراجات لكسب الوقـت وتهيئـة المنـاخ والظروف وإحكام القبضة حول العنق. ومن يرتح إلى ضآلة قمة جبل الجليـد الطافية سوف يغرق في العجز والهلع حين يبصر ويتبصر ويكتشف حجم ذلـك الجبل وثقله واتجاهات زحفه الحثيث.

فهل ترانا نبادر إلى خلق مناخ يمكننا من استعادة التضامن العربـي، ولو في حدوده الدنيا، ليقوم على أرضية حضور عربي يدعم توجـها عربيـا واحدا خلف موقف وقرار؟! هل من أمل بتحرك عربي يضع حدا لحالة الانهيار والتمزق، ويجعل أولئك الذين " يفلتون على أمتنا وقضايانـا شـتما وتهزئـة وتشويها، يتوقفون عند حدود يفرضها الردع والمصـير المشـترك والفـهم المشترك، وليس الرجاء والتودد والشراء؟! '

هل يجوز لنا، بعد كل ما وصلنا إليه، أن نتطلع إلى مبـادرات سياسـية عربية تلزم العرب، وأولئك الذين لم يرموا قفازهم من العرب بعد فـي وجـه أمتهم وإخوتهم، تلزمهم بشيء خلقي وواقعي ومصلحي لهم أولا، حيال أمتهم وإخوتهم ووطنهم وقضاياهم؟ !

هل يتاح لنا، والعالم الصناعي يتوجه إلى فـرض تصوراتـه وقـراره وخططه، من أجل رفع المقاطعة العربية عن المتعاملين مـع "إسـرائيل"، أن ندعم موقفا عربيا إيجابيا مؤيدا لاستمرار المقاطعة العربية " لإسرائيل " ولـو

في حدودها الحالية الدنيا ؟!

إن أصواتا مشوهة ترتفع في فضاء الصحافة والثقافة عربيـــا تنـــادي بالذهاب إلى أبعد من رفع المقاطعة، وتقول بضرورة الذهـــاب مباشـــرة إلـــى التعاون مع "إسرائيل" حتى قبل أن يرفع الفلسطينيون قتلاهم من شوارع المدن والقرى المحتلة، وقبل أن يقول يهودي مجرد كلمة إيجابية بعـــودة الجـــولان والأرض المحتلة من لبنان إلى كل من سورية ولبنان ؟!

وهذا الذي يجرح ويفضح، يعبر عن سياسة وتدفعه سياسة، أو هـــو رأس رمح للأجنبي يتوجه به إلى قلب المحرمات العربية والمقدسات العربيـــة في آن معا. فهل ترانا نستطيع الالتفات إلى عمل مجد على أرض الواقع يساهم في بناء موقف قومي نظيف يمكننا من الوقوف بوجه الاجتياح السلبي العـــام الذي يزحف على أرواحنا وأقطارنا وقراراتنا؟!.

إننا بحاجة إلى شيء عملي يستقر على أرض الواقـــع، وبحاجـــة إلـــى سياسة عربية تبقي شيئا من التماسك القومي والروحي والخلقي في الوجـــود العربي، ونحن بحاجة قبل ذلك كله وبعد ذلك كله، إلى مزيد من التعمـــق فـــي تدارس أوضاعنا وما آلت إليه قضايانا المصيرية وموقعنا في العـــالم، و مـــا يشكل مقومات وجودنا وقوتنا ودفاعنا عن ذلك الوجود وتلك المقومات.

فهل نسرع إلى فعل شيء في هذا الاتجاه ونكف عن المماحكات العقيمة مع عدو وأنصار عدو، صمموا على إذلالنا وإعادة استعمار بلادنا، ونفينا مـــن ساحة الحضور والحضارة؟!

إننا بحاجة إلى عمل مغاير، ينبثق من منظور وشـــعور مغـــايرين لما هو في الساحة، وإننا قادرون على فعل شيء، ولكن لابـــد مـــن أن تقوم الإرادة ليقوم الفعل وينتشر ويكون مجديا، فهل نحـــن مقدمـــون على ذلك في زمن المقت والضيق هذا؟!

إنني لشديد الأمل بأمتي ومستقبلها.

///

الثقافة العربية : الحاضر والمستقبل



قطاع المثقفين يتسع ويضيق تبعا للمفهوم والتعريف اللذين يعطيان للثقافة، وحين تصل درجة الشمول حدها الأقصى فإن شرائح اجتماعية عديدة وكثيفة ومؤثرة تصبح في نسيج ذلك القطاع . وحسب تعريف إعلان مكسيكو بشأن الثقافة، فإن الثقافة بمعناها الأوسع هي « مجموع السمات الروحية والمادية والفكرية والعاطفية الخاصة، التي تميز مجتمعا بعينه أو فئة اجتماعية بعينها، وأنها تشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة والإنتاج الاقتصادي، كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان ونظم القيم والتقاليد والمعتقدات »(١) وهذا يعني أن قطاع المثقفين يشمل كل من له مساهمة في الجهد الثقافي بمعناه الأوسع، وأولئك الذين يؤثرون في هذا المجال ويكونونه ويحملون خصائصه ومسؤوليات عملية وخلقية، فيه و حياله، ويواجهون مجتمعاتهم والمجتمعات المتفاعلة معها بتلك الصفة والوظيفة، وأن المثقفين يتحملون طواعية أو يحملون أمام الناس والتاريخ، مسؤولية عن الثقافة وفيها، وحيال الأمة التي ينتمون إليها، والحضارة الإنسانية كلها، بوصفهم جزءا منها يمثلون ثقافة مشاركة في تكوينها وفي مسيرتها وازدهارها .

وبحكم ذلك الموقع والانتماء، فإن درجة الشعور بالمسؤولية تضيق وتتسع هي الأخرى تبعا للأشخاص وموقعهم الثقافي في مجتمعاتهم، ودرجة وعيهم المعرفي الذي يحدد مفهوما للحرية، وأفقا لها، وحاجة إليها، ومستوى لممارستها، وكذلك تبعا لنوع الفعل الذي يقومون به وينعكس على أدائهم وفي

---

(١) إعلان مكسيكو بشأن الثقافة ــ الفقرة ــ ٤ ــ ص ٢١٨ من النص العربي وهو وثيقة تضمنت نتائج أعمال المؤتمر الدولي للسياسات الثقافية الذي عقد في المكسيك .

ذلك الأداء، وتبعا للشريحة البشرية التي ينتمي إليها الشخص ويشارك من خلالها في العمل الثقافي، وفي تحمل المسؤولية الخلقية والاجتماعية، التي ترتبها الثقافة على المبدع في مجالاتها، وتستدعيها المسؤولية، في ترابطها مع الحرية، في أثناء اتخاذ القرار وتنفيذه، كما تضيق درجة الشعور بالمسؤولية فرديا وإنسانيا وحضاريا، تبعا للثقافات ومنزلتها وقدراتها على التواصل والتفاعل والتأثير فيما بينها.

نحن نعيش اليوم، بشكل أو بآخر، على أرضية ذلك الصراع الذي بدأ قديما بين :

- المركزية الثقافية الأوربية « الغربية » وما نشأ عنها وارتبط بها من أحكام ومعايير ومناهج وآراء، ومن والاها وتتلمذ عليها وتشربها فتبعها ومثل تياراتها ودعواتها وعمل على تقويتها ونشرها، وخدم أهدافها وحقق أغراضها ومصالحها بين ظهرانينا نفر من أبناء أمتنا، ممن ارتبطت مصالحهم ومعاني وجودهم السياسي والاجتماعي والثقافي والاقتصادي بتلك المراكز على نحو ما، فاعتمدوا عليها في نضالهم وخصوماتهم مع إخوتهم، وكانت معاركهم تدور على أرضية ذلك الارتباط أو قل الإتباع، مع نفر آخر من أبناء أمتنا العربية .

ونستطيع أن نتتبع تجليات تلك المركزية وتحولاتها وتقلباتها، في مجالات قوة وسطوة وعلم وحضارة وتفوق وتقانة عالية متعددة، كما نستطيع إدراك مدلولات امتلاك أهلها لأسلحة التدمير الشامل ووسائله، وتحكمهم بوسائل الاتصال الحديثة وبالمواد الأساسية لتقدم العالم، وبمقاديره وقراره السياسي والاقتصادي، وما ينشأ عن ذلك كله من واقع ومعطيات وعلاقات، وما يرتبط به ويؤسس عليه من توجهات سياسية وأساليب تعامل وتواصل مع الآخرين وثقافاتهم وأشكال عمرانهم، بالمعنى الخلدوني الواسع للعمران .

- المركزية الثقافية العربية - الإسلامية، إن صحت التسمية، أو الأصولية الدينية - والأصولية القومية، وما تحرص عليه كل منهما من خصوصيات ومقومات وهوية وممارسات عقائدية، ومصالح ومظاهر وعلاقات

وشعارات وسياسات، في إطار رؤية حضارية شاملة، جديدة متجددة ؛ ولكنــها لا تخرج عن رفض كل أشكال التبعية وأنواعها، لا سيما للغرب الاســتعماري ولمركزيته الثقافية ؛ وتنظر إلى مقولة تلازم الأخذ بالفكر والعلـــم و التقانــة والعلمانية والأيديولوجيا ونظام الاجتماع والسلوك والحياة ككل، فــي آن معــا ومن دون تجزيء أو اختيار وانتقاء، تنظر إلى ذلك على أنه أمــر مرفــوض لأنه غير منطقي وغير علمي وغير إنساني ؛ فضلا عن كونه أمرا مشـبوها أو يعبر عن ضيق أفق في أفضل الاعتبارات . كمـــا ترفــض أن تقبــل الإقــرار بمقولة: إن الإسلام واللغة العربية بما حملت من إرث فكري وأدبي وحضــاري عام عبر تاريخها الطويل، هما ــ أي الإســلام واللغــة العربيــة ــ بالدرجــة الأولى، وراء أسباب التخلف البادية، ووراء ما أصاب الأمة من هزائم وتمــزق وتراجع.

ولا يكاد يجمع الشرائح المتوزعة علـــى هذيــن المنحيــن الكبــيرين الممتدين عبر تاريخنا الحديث كله، لا سيما الفترة المعاصرة التي تطــرد مــن ذلك التاريخ وتصب في المستقبل، إلا الاتفاق على الشكوى وترديــد صداهــا والعيش في ظل الصدى والترجيع، الشكوى من قضايا وممارســات وأوضــاع يمكن أن أركز بعضا منها في النقاط الآتية :

– إن غياب الديمقراطية في الوطن العربي سبب رئيــس مــن أســباب التخلف وتراجع مكانة الإنسان العلمية والعملية، وضعف دوره فــي الإنجــاز الحضاري المعاصر، وكذلك فهي سبب تراجع قدرته على الابتكار والاخـــتراع والإبداع . مع اختلاف على كيفية الخروج من دوامة الشــكوى والتشــخيص واجترار مرارة الإحباط وظواهره ومظاهره، إلى ساحة رؤية ممكنة التحقــق، وممارسة موضوعية متدرجة، تشقان طريقا للخلاص وتبدأان مســيرة نحــو أهدافه النهائية، على أرضية احترام الإنسان وحرياتــه وحقوقــه الأساســية، واحترام العقل والمساواة بين الناس، تحت سقف : الإخلاص للوطن، والانتماء للأمة في واقعها المعيش، وسيادة القانون، واحترام المؤسســات التــي تقيــم المجتمع المدني وتمهد لقيام الدولة القومية وبناء مؤسساتها ؛ هل يكون ذلــك بالشورى والشريعة، أم بالدساتير العصرية الآخذة بالعلمانية، أم يكون بصيغــة

أخرى يقود إليها الحوار والاجتهاد والإبداع، في مناخ ديمقراطي سليم؟؟.

– إن التمزق العربي، والخلافية السياسية المقيتة، وتوزع المثقفين من أبناء الأمة عليها، وخدمتها وإذكاء نارها، والارتزاق بها، أحد أهم أسباب ضعف المجتمع العربي ومؤسساته، وضعف الوطن ومقومات صموده ودفاعه وبنائه ؛ وهو خلفية كثير من المشكلات والأزمات وربما كان ذلك هو أساس ما نراه من ضعف عام في بلدان العالم الإسلامي، والعالم النامي، اللذين يعلقان أهمية على الوطن العربي ويرتبطان به روحيا واقتصاديا، ويتعلق شأن نموهما وتقدمهما بالطاقة التي يمتلكها ؛ لأن قوته وتماسكه وتقدمه، كل ذلك يشكل صلب القوة والتماسك والتقدم وتحرر الإرادة في ذينك العالمين، ويؤثر فيهما سلبا وإيجابا كما يتأثر بهما .

– إن القدرة البشرية والمالية والاقتصادية والعقلية – العلمية، الموجودة في الوطن العربي والمهاجرة منه – تلك التي قد يربطها حنين إليه وتعلق به – قادرة على تحقيق مسيرة تقدم علمي وتقني وحضاري متميزة فيه، ولكن لا يوجد حتى الآن مناخ علمي – عملي – اجتماعي – سياسي و(حياتي) عام، يمكن من استقطاب كل تلك القدرات وتوظيفها من خدمة ذلك، وتحقيق حماية لها في أثناء مراحل التأسيس والبناء والإنجاز .

– إن الغرب، بشكل عام رفض ويرفض وسوف يرفض، قاوم ويقاوم وسيقاوم، امتلاك العرب بشكل خاص والمسلمين بشكل عام، لمقومات القوة والعلم والتقانة المتطورة، تلك التي تجعلهم قادرين على امتلاك القوة والقدرة اللتين تحرران قرارهم السياسي، بتحرير ثرواتهم وأوطانهم وإرادتهم من السيطرة والاستلاب والاستغلال، وتجعلانهم قادرين على امتلاك السلاح الذي يدافعون به عن أراضيهم وهويتهم القومية وثقافتهم وعقيدتهم، ولا يوجد خلاص فردي – قطري من أي نوع، فالخلاص العربي يكون جماعيا أو لا يكون .

ولا يجوز النظر إلى قدرة بعض الأقطار على دفع الأذى مؤقتا عنها، بأشكال الخضوع وإعلان الولاء والمراوغة والاستكانة، أو باختيار حالة انعدام

الوزن والسكونية، لا يجوز النظر إلى ذلك على أنه خلاص، لأن تلك الأقطار تبقى موضوعة على برنامج الاستغلال والاستلاب بالنسبة للغرب، الذي يرمي إلى إضعاف كل جزء من وطننا على حدة ثم التفرد به . وتلك الأقطار تتيح، باختيارها لذلك المنهج، فرصة لإضعاف جزء أو قطر آخر، وفي ذلك إضعاف للأمة، للكل، في النتيجة .

والغرب في تطبيقه لاستراتيجيته الرامية إلى منع العرب والمسلمين، وكثير من بلدان العالم النامي من التعاون لامتلاك القوة، وصولا للدفاع عن المصالح المشتركة التي لهم، وتحرير قرارهم وإرادتهم، الغرب يركز تركيزا خاصا على العرب، فيما يعده تهديدا لإسرائيل، التي يتعهد بحمايتها وببقائها وبتأمين تفوقها الاستراتيجي على العرب والمسلمين مجتمعين، كما يتعهد بضمان أمنها بوحي من مصالحه أيضا، ليمنع العرب من امتلاك مقومات القوة التي تتمثل بقيام :

١ – أي شكل من أشكال التضامن والتنسيق بينهم، فما بالك بالوحدة أو أي مظهر من مظاهرها !؟!

٢ – بامتلاك السلاح وتصنيعه والتقدم في تطويره .

٣ – بالسيطرة على الثروات الطبيعية وتوظيف القدرات المادية والبشرية في عملية بناء اقتصادي، ولا سيما ما يتعلق بالبترول من تلك الثروات .

إن الحكومات، أو قل معظم الأنظمة العربية، سوف ترفض أي تنازل عن أية مصالح أو خصوصيات قطرية، وعن أية امتيازات وصلاحيات خاصة، وحتى عن هوامش ضيقة في الجغرافيا السياسية، في سبيل عمل قومي عام، بله إسلامي شامل، و « عالم ثالثي ـ أو نام» أشمل . وسيدعمها الغرب الاستعماري في ذلك دعما مطلقا، ويرتمي عليها بثقله لتطلب حمايته، أو ستلجأ هي ـ بإيحاء منه أو بوحي مصلحة ضيقة لها ـ إلى قوة تحتمي بها من كل مطالبة لها بأي تنازل عن أي شيء، من أجل بناء قوة أو امتلاك تقانة أو إقامة مؤسسات ومصالح قومية، أو عربية ـ إسلامية عامة . سواء كانت

القوة التي تحتمي بها قطبا دوليا قويا، أو تحالفا، أو هيئة دولية تأتمر بأمر قوة عالية نافذة القرار والرأي .

والأنظمة العربية سوف تفعل ذلك لأنها تعيش في مناخ الخوف وانعدام الثقة والأنانية وفقدان الرؤية الموضوعية الشاملة، التي يمكن أن تبين طريق الخلاص من خلال الكل، لا من خلال روغان الجزء ليتملص من التزاماته حيال الكل ؛ لأنها ترى أنه لا يمكنها أن تضمن بقاءها الخاص ومصالح شرائح ضيقة متحكمة فيها، مع نمو الكل القوي قوميا، بكل ما يرتبه ذلك النمو ويترتب عليه .

– إن كل قطر عربي أو بلد إسلامي أو حتى بلد من بلدان العالم النامي، لا يستطيع، في ظل الأوضاع والعلاقات السائدة في عالم اليوم وفي ظل سيطرة القوة الغاشمة والقطب الواحد ذي الطبيعة الاستغلالية القهرية، أن يحافظ على مصالحه واستقلاله وحرية إرادته وقراره السياسي، ولا أن يحقق تقدما من أي نوع أو تحالفا يقربه من ذلك التقدم ؛ إلا في الحدود التي تسمح له بها القوى الكبرى المسيطرة والغرب ذو المصالح، وأولئك الذين ترتبط مصالحهم بالقوة الوحيدة المهيمنة ويرتبط بقاؤهم وسلطانهم بها وبرضاها عنهم، من أبناء تلك البلدان .

– إن عالم اليوم دخل في دائرة جديدة لا تكاد تتضح معالمها، ولكنها لم تتغير بشكل جذري وربما لن تتغير قاعدتها المستندة إلى مبدأ سيطرة الأقوى، وسياسة نهب العالم الفقير والسيطرة عليه، وفتحه أسواقا للاستهلاك، وأدوات للابتزاز، ومصدر عمالة رخيصة، ومصادر عامة للموارد والمواد الخام، والثروات الطبيعية والمواد الأولية، التي يحتاج إليها الأقوياء والمتقدمون صناعيا في إنتاجهم .

– إن القرن القادم، كما يعلن قادة القوة الأعظم اليوم والقوى السائرة في ركابها هو القرن الذي سيشهد انهيارات أضخم من تلك التي شهدها القرن العشرون، أي انهيار الشيوعية، والاتحاد السوفييتي، والإيديولوجيا الماركسية وكل ما ارتبط بها وبني عليها، وهم لا يخفون أنه عصر سيادة الأنموذج

الثقافي والخلقي والسلوكي الغربي؛ هو قرن سيادة نمط القيمة الأميركي تحديدا، وقد قال سياسيون ومثقفون غربيون بوضوح : إنه عصر انهيار الإسلام والعروبة ضمنا وكل ما يتصل بذلك . وهذا يعني أن الحرب الرئيسة ستقع على الجبهتين الثقافية والاقتصادية، وستكون ترسانة السلاح هي أداة الردع الاستراتيجي الذي يشع رعبا وينذر بالهلاك من دون أن يضطر أصحابه لاستخدامه؛ وسيكون لأعداء العرب، وفي مقدمتهم الصهيونية العنصرية، ولأعداء الإسلام التاريخيين، دور كبير يقومون به .

وإن تلك المواجهة ستحتاج إلى طاقة الإنسان الإبداعية المتحررة من كل قيد بالدرجة الأولى، وإلى إمكانات وأدوات تكون في خدمته، وإلى مناخ عمل وإنتاج وحياة، يمكنه من استخدام قدراته بإبداع واقتدار، وأن يوظفهما توظيفا سليما وناجحا وفعالا في الدفاع عن كل ما هو مستهدف في وجوده، ولا سيما ثقافته وعقيدته ولغته وقيمه وكل ما يميز شخصيته ويتصل بمقومات قوته ووجوده .

وعلى الرغم من أن هذه النقاط التي أشرت إليها وكثيرا غيرها مما لم أشر إليه هنا، تشكل برنامج عمل مشترك، أو أولويات شديدة الأهمية بالنسبة للجميع، وجديرة بأن تقدم على كل ما سواها من وجوه الاختلاف، فإن الطاقات الفكرية والبشرية والثقافية والمادية التي تتمثل في ذينك المنحيين الكبيرين المستهدفين إجمالا، تجعل من هذه النقاط برنامج عمل مشترك لها جميعا، يقود إليه الحوار على أرضية من الثقة والاحترام، ليكون ذلك مدخلا للإنقاذ والثبات ولاكتشاف مدى التعاون الممكن بين كل تلك الفئات والاتجاهات أو التيارات والشخصيات، خدمة للوطن تحت سقفه، وتثبيتا للوجود المهدد على أرضية ثوابته المشتركة .

ولا أريد أن أذهب إلى المدى الذي يذهب إليه من يقولون إن هناك ما يشبه الفرض أو الارتباط الملزم بالغير أو حتى التبعية الخفية له، وهو ما يجعل ممثلي تلك التيارات والاتجاهات والذين يكونون حركتها وتأثيرها وحضورها اليوم وسلالاتها المعاصرة، أبعد ما يكونون عن الاتفاق والالتزام بالمصالح العليا للجماهير والأوطان، ويديرون ظهورهم تجنبا لرؤية المشترك

والمصيري اللذين يمليان عليهم أن يخضعوا كل اختلاف للحكمة وللمصلحة العامة لكل من الوطن والأمة ومستقبل الأجيال القادمة ؛ لا أريد أن أذهب إلى حدود القول إنهم سيبقون قيد التمزق والهزال والاقتتال ويبقون الوطن والأمة قيد ذلك، ويتركون البلاد والعباد نهبا للضعف ورهنا لاحتلال الإرادة والقرار، والسيطرة على الثروة والمستقبل والمصير، لا أريد أن أمضي إلى ذلك المدى في هذا المنحى، لأنني أريد أن أبني تفاؤلا هو شرط للحياة ومدخل للخلاص، يقوم على أرضية من الثقة والحرية والاطمئنان والاقتناع التام بأن من يخلص فعلا للوطن والأمة والعقيدة والحضارة، لا بد له من أن يرى المخرج الذي يجمعه بالآخر الشريك، ولا بد أن يضع يده بيد الآخر الشريك في الشرط الإنساني والمصير القومي والإنساني، على الرغم من اختلافه عنه وخلافه معه . هذا إذا كان كل منهما يخلص للقضايا العامة وللناس ويريد أن يقدم خدماته بتجرد ونزاهة، في مرحلة يعيشها معهم ويعاني فيها منهم ومثلهم، ويرى أكثر منهم كم هم مهددون ومسحوقون، وكم هي المخاطر قريبة وكبيرة .

إنني أدعو إلى حوار على أرضية المشترك العتيد الضخم، وإلى نبذ كل ما يعوق ذلك الحوار أو يمسخه أو يشله، على أن يتم في مناخ يساعد كل المساعدة على تواصل الآخر مع الآخر، وتواصل المجموع مع الواقع من جهة ومع ثوابت الأمة ومقومات شخصيتها وتمايزها ووجودها، ومع قيمها من جهة أخرى .

وربما يبدأ الأمر في حدود شرائح من كل فريق من الفرقاء لا يعصف بها التعصب، ولا يبعدها ضيق انتماء وتطرف وتقوقع، عن رؤية مواطئ الأقدام الآن، تلك التي تثبتهم في أرض الآباء والأجداد، وفي تربة المشترك، في أرض الثقافة واللغة والعقيدة، أرض الأمة العربية وتربتها الحضارية والمصير المشترك الذي يجمع أبناءها .

إن الأوضاع التي يمر بها وطننا العربي ومجتمعنا، وتمر بها أمتنا، وتنعكس على قضايانا المصيرية، وما نرى من تحولات عالمنا الذي نعيش فيه ونتفاعل معه ؛ كل ذلك يلقي على ثقافتنا وأهلها مسؤوليات تاريخية، قومية

وخلقية كبيرة وخطير، لا يكفي حيالها أن نقف عند حدود القول الذي ينطوي على نوع من تبرئة الذمة ورفع العتب وتبييض الوجه والصفحة، ولا ينفع أحدا منا في ظلها نزوع إلى دغدغة العواطف وعزف على أوتار النفوس بما يرضيها، لا سيما إذا كانت تلك النفوس ترتع فيما يرديها، والنفس أمارة بالسوء .

ولا يشفع للأمة وللكثرة الكاثرة من أبنائها ذهاب الثقافة والمثقفين في التنبؤ والتوقع وتفتيت أكباد الاحتمالات إلى المدى الذي يصبح فيه القول مقامرة والعقل مغامرة ؛ فما وصلنا إليه يقدم لنا وقائع لا يمكن القفز فوقها، بالنسبة لمن يريد أن يواجه واقعا سيئا بهدف تغييره نحو الأفضل . وما تعرضت له أمتنا في تاريخها الحديث، بله القديم، وما مر بنا بالأمس القريب، وما يدور حولنا وبين ظهرانينا فيحرقنا بناره أو يجثم علينا بثقله، ييسر لنا أن نقرأ الحوادث ونستقرئ التجارب، ونتقرى ما يرسم لنا وما يراد بنا ؛ ويمدنا أيضا بمعطيات لا ينقصها التوثيق، الأمر الذي يجعل استنتاجاتنا منطقية وواقعية إلى حد كبير، نرى في ضوئها ما ينتظرنا يتفتق من نفوسنا وعلاقاتنا وأنظمتنا، ومن نظرة الآخرين لنا ومعرفتهم بنا، عبر ما قبلناه وعشناه وعانينا منه، وتجرعناه بصبر واحتمال لا تقدر عليهما حتى الجمال، وكدت أقول الجبال.

وقد وفر لنا ذلك القدر من الصبر استعدادا طارئا علينا للخضوع والخنوع، مما لم تعرفه شيمنا ولا تقره عقيدتنا وقيمنا .

وكل هذا الذي نحن فيه، وذلك الذي نقبل عليه، يضعنا أمام واقع وضرورات، لا مناص لنا من مواجهته ومواجهتها بموضوعية وواقعية وإمكانات، حيث لا يفيدنا في تلك المواجهة « كنا، وكان لنا» ولا تقدم لنا « الممكنات » التي طالما بنينا عليها وتعلقنا بها، قدرة تغيير حقيقية فاعلة ؛ فالممكنات تبقى مقيدة بقيود احتمالية، وتستند إلى أسس، لبناتها من التوقعات ومداميكها من التخرصات، وهي مشروطة على نحو ما بـ«لو» تلك التي ترشح منها حسرات « حتى»، وتلاحقنا كما لاحقت نحاتنا قديما إلى القبور .

فالواقع الذي لا بد من أن نتجاسر وتنظر إليه نظرة قوامها الاستيعاب والتمحيص، وندقق في تفاصيله على الرغم من قتامة المنظر، واقع ينضح مرارة وكآبة ولكنه يزهر بالإمكانات، ويكاد ينعدم فيه توظيف واع عبر تكامل شامل لتلك الإمكانات ؛ الأمر الذي يجعل الإمكانية المرشحة لتكون عامل قوة وبناء، معرضة لتغدو عامل ضعف وهدم وفناء.

وذلك الواقع في مستوياته المختلفة : الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية، يشكو من أمراض وأورام وفساد، وما زالت فيه إمكانية للإحساس بالألم ورفع الصوت تعبيرا عن الوجع والغضب، فهو لم يمت فيه الإحساس بعد . ولما كان الجسم الضعيف لا يقاوم المرض، فمن باب أولى ألا يملك القوة اللازمة للعمل والإنتاج ولردع القوة التي تستخدم لردعه وقهره ؛ وعندما يزداد ضعفه يصبح بؤرة تتكاثر فيها جراثيم الضعف فتزيده هزالا وتآكلا وتفسخا .

١ - فالبنية الاجتماعية تشكو، في أقطارنا العربية، من ظاهرة تكاد تكون عامة، هي ظاهرة فقدان المعيار الخلقي _ القيمي السليم الذي يحكم السلوك والعلاقات والصلات بين الأفراد والأسر والجماعات، ويكون العمود الفقري لضمير فردي وجمعي حي، يعرض الفعل على محكمة ذات وجود ونفوذ _ إلا فيما ندر من الأماكن في الوطن ـ ولا يتوقف تأثير ذلك عند حدود . فالكيان الروحي للفرد والأمة يتآكل في مثل هذا الوضع، وتصبح المثل العليا والنماذج القدوة، في التضحية والسلوك والبطولة، مثل تماثيل الجاهليين التي صنعت من التمر، في معدات أتباعها بعد أن كدهم الجوع، وتنحسر الطموحات والتطلعات، وتتقوقع الإرادة وتتراجع وتضمر، وتضعف النفوس، وتنمو القابلية لتسويغ المنقصة والمذلة والهزيمة وأشكال الخواء الروحي والعقلي والاجتماعي، وتصل إلى أفضل مستوياتها في الأداء السلبي .

وبنية اجتماعية وروحية كهذه، يزداد فيها استعداد الفرد للاستهلاك والتقليد والإتباع، ويقل في مناخها إنتاجه كما تقل مبادراته، بله إبداعاته ؛ وتراه يستسلم في ظلها شيئا فشيئا لإحساس يشتد في أعماقه بعدم الجدوى من بذل أي جهد للحاق بالمتقدمين والمبدعين والمعاصرين، فيدمن تقليدهم

ومجاراتهم في استهلاك ما يستهلكون، ويدخل من هذا المدخل وسواه إلى ساحة الإحساس بالدونية ويعكف على تسويغ ذلك وإدمانه ؛ وربما لاحظ في لحظات قدرته الفائقة على التسويغ، وربما أطل في لحظات أيضا ورأى عمق الهوة التي يشارك هو في صنعها، تلك التي أصبحت تفصله عن الواقع والعصر ؛ ولكنه لا يلبث أن يستسهل السهل، بدلا من أن يستسهل الصعب بطموح وعمل يوصلانه إلى حيث مراتب النفوس الكبار، أقول يستسهل السهل ويبقى حيث هو .

وإذا محصنا شرائح من البنى الفردية أو الاجتماعية، وجدنا، بين نسيج ونسيج، فيضا من الإحباط المتعدد المصادر والمنابع، يشكل طبقة عازلة تحول دون تلاحم نسج الكيان تلاحما يمكنه من استعادة حيويته وإحساسه بقدراته وبالواقع المحيط به، ومن تقدير احتياجاته للخروج من شرانق تنسج من حوله.

– في التربية والتعليم فيض من الإحباط يمتد بين الأسرة والجامعة، ومن سن الطفولة إلى سن الرجولة، ويكمن في المناهج والطرائق والوسائل والمعلومات، وفي أساليب الممارسة والتعامل، عندما ينتقل المرء من ميدان التعلم إلى ميدان العمل في الحياة.

وإلى جانب معلوماتنا التي تتضخم فيها الجوانب النظرية، تقف شعاراتنا السياسية والفكرية التي تتابع طريقها بنا، وتزيد الهوة عمقا واتساعا بيننا وبين النظرية والممارسة، الشعار والتطبيق العلمي له، في واقع الحياة .

– في محيط الأسرة يلبس الشخص قناعا، وفي محيط العمل يلبس قناعا آخر، وحين تكون الأسرة أو الشخص في محيطهما الاجتماعي، يكون لها أو له، سلوك وعادات واعتبارات أخرى، هي بمثابة القناع الذي لا يلبث أن يغيره ويصنع سواه في محيط آخر ومجتمع آخر وفي زحمة هذا التغيير والتلوين يكاد لا يعرف المرء والمجتمع له وجها من قناع .

– بين العمل والعبادة تكاد حجب كثيفة ترسل، عند أشخاص كثر وفي شرائح اجتماعية كثيرة، وفي أوساط أخرى هناك جدار بين المرء والعبادة

وبين المبادئ والتعامل . شخصان على الأقل في كل منا، واحد « مهذب » إذا ما ذكرت الأخلاق والعقيدة والمبادئ والشعارات، وواحد مغاير تماما، صفه كيف شئت وتخيله بإبداع، إذا ما ذكرت المصالح والمنافع والسلطات والطوائف والحزبيات والعصبيات المريضة .

والسعي وراء « أمن من جوع وخوف » يطحن معظم الناس في معظم الأقطار، إن لم أقل فيها كلها، ويفعل فعله قبل ذلك كله وبعد ذلك، ويصنع لنا تصاوير يومنا وتلاوينها، ويمنح لوجوهنا « ملامحها» في كل صباح، وعند كل واقعة أو إنذار أو صيحة شعار .

وعلى عتبة التزاحم المر على متاع الدنيا ؛ الذي رفعته حياة، غابت فيها الروح وحضرت المادة، إلى مرتبة الهدف السامي ؛ تسقط مثل كثيرة ونفوس كثيرة وطموحات وأحلام وقيم وتطلعات، وفي النهاية، تسقط أوطان ونسقط معها ؛ نبحث في الوحل الذي سقطنا فيه عن كرامة ووجه وروح، ولات حين بحث أو ندم، فمن نكون عند ذلك لنبحث عن «نحن»؟!؟

٢ _ والبنية الاقتصادية تراوح في أقطارنا العربية بين التبعية والنهب والضعف والاستلاب، ولا يوجد أمل لاقتصاد أي قطر عربي في أن ينمو ويزدهر ويحقق كفاية واكتفاء، في حدود قطره لمواطني ذلك القطر ؛ ومعظم السياسات العربية تقول ذلك، ومعظم الخبراء يقولون هم والسياسيون : إن إنقاذ اقتصاد الأمة العربية يكمن في تكامل ذلك الاقتصاد، ووجود سوق عربية مشتركة، وإنتاج على مستوى قومي يستطيع أن يحقق حضورا وإنتاجا نوعيا، ومزاحمة في الأسواق، وكفاية لحاجات الناس ؛ ولكن شيئا من ذلك لا يتحقق. ونخوض في بعض أقطارنا خضم الجوع ونجر نير الحاجة ولا نقول لأخ لنا : لا حياة لنا إلا بك ولا حياة لك إلا بنا . في حين نقول ذلك للذي يأتي من خارج الوطن ومعه كيسه وسيفه، ونعرف أنه سوف يستغلنا، نقول له ذلك بعيون مغرورقة بالدموع، دموع الفرح والرجاء والثقة والشكر؟!؟.

في الأقطار العربية يخضع الاقتصاد القطري لتبعية من نوع ما لبلد أو لبلدان غير عربية، ويخضع لاستلاب من نوع ما أيضا، ولا يكاد أحد يرفع

صوته احتجاجا نافعا فاعلا على ذلك ؛ في حين تصبح للعربي، إذا ما تعامل مع العربي وتبادل معه المنافع والمصالح، أنياب وأظافر، ويسمع له صوت زئير يعلو، ويثرى له فعل يصل إلى حدود التفنن بأنواع الإساءة والقتل والفتك !! وفي الأقطار العربية تجارات رائجة ولكن لا يمكن أن ترقى إلى أي شكل من أشكال المقارنة، إذا ما قيست إلى ما يتم بين أقطارنا العربية وبين البلدان الأخرى من تجارة، إذ لا يكاد يصل حجم الميزان التجاري بين قطر عربي وآخر إلى ١٠% من قيمة تجارة أي بلد عربي!؟

في البلدان العربية الغنية منها والفقيرة أموال مودعة في المصارف الأجنبية، وأموال مستثمرة في أماكن شتى من الكرة الأرضية؛ ولكن نسبة قليلة من المال العربي تستثمر في الوطن العربي . وليس هذا الأمر وقفا على الدول العربية الغنية، بل ربما كان العكس صحيحا، إذ أن النسبة الأعظم من أموال المالكين في بلدان عربية فقيرة تودع خارج الوطن العربي، وتستثمر خارجه، وعلة ذلك تكمن في الأمان والاطمئنان، وفي أمور أخرى، ذوو الشأن بها أعرف وأخبر وأدرى ؛ ولكن معاناة الناس البسطاء من ذلك كله نحن بها أعرف وأخبر وأدرى: فكم من الأسر وكم من الأطفال وكم من المحتاجين، وكم من مؤسسات البحث العلمي والجمعيات الإنسانية تحتاج إلى ما يبقي نبض الحياة فيها مستمرا، ولا أقول أو بالأحرى لا أذكر، حقها في التطلع إلى امتلاك القدرة على الحياة والتقدم والسعادة والمزاحمة، في ميادين العصر المختلفة .

٣ ـ ولا تقل شكوى البنية الثقافية العربية عن سواها من البنى، من حيث الاحتياجات، وانعكاس العلل والأدواء والسياسات عليها سلبيا . وإذا كان المجال هنا يضيق على الرغبة في التوضيح لا في التوسع، فإن ذلك لا يمنعنا من الإشارة إلى أن هذه البنية هي الوحيدة التي ما زالت تعتبر أرض العرب المشتركة، التي استعصت ـ حتى الآن ـ على التجزئة والتقسيم وتملك مقومات صلابة وتماسك ومقاومة، في مقدمتها اللغة العربية التي صانها القرآن واحتمى بها عرب ومسلمون في وقت من الأوقات، فعصمتهم لعصمة فيها .

وهذا الوضع الذي تمتاز به الثقافة العربية بين سائر البنى الأخرى،

ليس وضعا محصنا إلى حدود المكابرة أو المجاهرة بعـــدم إمكانيــة حــدوث اختراق له ؛ فالثقافة العربية تعيش منذ عقود محنة التبعية للخلافية السياســية العربية وتكاد تفقد استقلاليتها، ومن ثم حضورها القومي الفاعل المتماسك في ساحة صنع القرار السياسي العربي بصفتها قوة تمثل القيم والثوابت العربيــة والمصلحة القومية العليا، وسلطة وعي تقدم حال الناس وتطلعاتهم، وبوصفها جبهة قادرة على فرض احترامها، من خلال حيادها الإيجــابي، فــي معــترك الخلافات العربية المميتة .

ولأن الثقافة، وقفت وما زالت تقف هذا الموقــف مــن السياســة، أي موقف التابع ــ ولا أقول أصلا بضرورة الفصل أو حتى بإمكانيته بين السياسي والثقافي ــ فإنها أخذت تتأثر بالسياسة القطرية تأثرا بالغا ضارا، تلك السياسة التي استطاعت أن تجزئ الأرض والناس والاقتصاد، وأقامت الحدود والســدود والقيود، والجيوش التي تحمي ذلك قبل أن تحمي حق الأمــة وأرضــها مــن الانتهاك والاغتصاب الخارجيين ؛ أقول إنها أخذت تتأثر بالسياسة القطريــة، أو السياسات القطرية، الساعية إلى إقامة سياسات ثقافية قطرية، على الرغم مــن تبنيها لخطة شاملة للثقافة العربية وإبقائها على منظمة واحدة للتربية والثقافة والعلوم . ومن الملامح الواضحة لذلك التأثر ظهور أحاديث وتنظــير وتــأريخ لأجناس أدبية في إطار كل قطر من الأقطار العربية، كأن تتحدث عن القصــة السورية، والشعر التونسي، والرواية المغربية، والمسرحية اللبنانية ...إلـــخ، والتطلع إلى اقتسام التاريخ الثقافي العربي القديم، أو تقســيم تــاريخ الثقافــة العربية على الجغرافيا السياسية العربية الحالية . فقد بدأ كل قطر بالبحث عــن أعلام ومواقع وملامح وخصوصيات ثقافية، وربما عن هويــــة خاصــة، ذات جذور عميقة وبعيدة الغور في القديم بعد وجود الإنسان العربي ذاته والثقافــة العربية ذاتها في التاريخ، ليقيم من ذلك وتأسيسا عليه، تاريخا للجــزء علــى حساب تاريخ الكل، وليصنع هوية قطرية للأدب العربي على حســاب الهويــة القومية التي له .

وقد بدأ السير على تلك الطريق يستقطب كثيرين من المهتمين والعاملين في حقل الثقافة المتماهية مع السياسة، أو قل التابعة لها، في أقطــار الوطــن

العربي اليوم . وما عاد حديث الأدباء والكتاب والمثقفين والشـــعراء العـرب الحديثين ـــ ولا أقول المعاصرين ـــ الذين ما زلنا نعيش مباشرة على إنتاجهم، ونستنشق هواء دعوتهم القومية الوحدوية التحررية والتحريرية، أقول ما عاد حديث أولئك يغري بالإتباع ولا جهدهم وإبداعهم يشكل معتصما وعروة وثقى.

وإذا كان الأمل ما زال معلقا على الثقافة التي تعتبر حصننا الأخير فـــي هذا العصر العربي البائس بكثرة فإن دار الثقافة العربية تغزى بالمرض الـــذي يتسلل إليها بكثرة، على الرغم من مقاومتها لتسلله من آن لآخـــر بـــالوعي . وليس علينا من بأس إذا ما دعونا إلى الاعتصام : بأرض الثقافـــة العربيـــة، وثوابتها، وتاريخها النضالي العظيم، وقيمها، ومقوماتها العريقة ؛ ونحن نـــوى إلى السوس ينخر جبهات عربية ومستويات عمل وقيم عربية كثـــيرة، ويكـــاد يحيلها إلى أعجاز نخل منقعر.

أما السياسة العربية فتبدو أم الخلاف وبيت الداء، ولكن هل باختيارهـــا واختيار أهلها هي كذلك ؟! أم أن ذلك مفروض عليها فرضا، مرفـــوض منـــها رفضا، ولا تستطيع له صدا أو مقاومة ؟؟ هل هـــي ضالعـــة راضيـــة بذلـــك الضلوع، راغبة في تمويهه لتظهر شيئا وتخفي أشياء عمن يعنيهم أمر ذلـــك، أم هي تغرق في بحر القهر ولا تملك حتى أن تصرخ ؟! وهل هي قادرة علـــى مواجهة التحديات لو أرادت مواجهتها حقا وصدقا ؟؟ أهي قادرة فعلا ولا تريد، أم أنها تريد ولا تقدر، أم هي عاجزة ولا تصرح بعجزها ؛ الأمر الذي يجعلـــها بعين البعض موضع شبهة ؟؟ كل ذلك وغيره أيضا يدور في الذهن وليس مـــن الفطنة أو الحكمة استبعاده .

من المعروف أن الوضع السياسي العربي الذي لم يكن حســـنا إلا فـــي فترات استثنائية وقليلة، يمر الآن بحال من أسوأ الأحوال في التاريخ المعاصر، لا سيما بعد حرب الخليج الثانية والانهيارات والمتغيرات التي اجتـــاحت عـــالم اليوم وما زالت تجتاحه وتعيد ترتيبه في أفلاك جغرافيا سياســـية لـــم تـــأخذ شكلها النهائي بعد. وفي هذا المناخ الذي يتسم عموما في الوطن العربي بـــ :

– تبعية شبه تامة للقوة السياسية الوحيدة الأعظم فـــي العـــالم، مـــع

مراعاة نسبية للإرادة والمصلحة الأوربيتين .

– انعدام الثقة بين كثير من الأقطار والحكام والسياسات، على أرضية أزمة الخليج وحربه، وانعكاسات ذلك على الأوضاع العربية كلها.

– اضمحلال الحس القومي والرادع القومي على حد سواء، وضمور الدعوة الوحدوية والتشكيك بجدواها، وهزال دور المؤسسات القومية وتهميشها كليا، لا سيما جامعة الدول العربية والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، والإدارات التابعة لهما، وكذلك الاتحادات ذات الطابع القومي التي تمثل وجه العمل العربي العام ونواته .

– تعاظم الاهتمام بالمنظمة الدولية ومؤسساتها، لا سيما مجلس الأمن، في حركة واضحة الدلالة، ترمي بالدرجة الأولى إلى إظهار الاعتماد على قوة دولية تحمي الدولة القطرية من أية قوة عربية قد تهددها أو تضعفها أو " تبتزها " تحت أي شعار قومي . والاهتمام بالمجتمع الدولي في مواجهة المجتمع العربي وما قد يرفع باسمه من شعارات، وما قد تظهر لأجله من دعوات . وما ذلك الاهتمام، بعد الذي رأينا ونرى، إلا نوع من تكريس الضعف وإفساح المجال ــ بوعي أو من دون وعي ــ ليقوم الغرب، باسم المجتمع الدولي، بإعادة استعمار المنطقة وتنفيذ مشاريع " إسرائيل " فيها .

– نمو الدولة القطرية وتعزيز مكانتها وقوتها وجغرافيتها ومصالحها، ولا سيما بوجه النزوع القومي، وازدياد سطوة السلطة التنفيذية في الأقطار العربية، على حساب سائر السلطات في الدولة، وتجسد تلك السلطة في شخص أو أشخاص يصبحون الكل والوطن والإرادة والقرار .

– تجذر وانتشار : الخوف، المصلحة، الاستقلالية القطرية [ــ هنا بوجه المصلحة القومية ــ الأنانية]، النزوع نحو الغرب ونحو الغير من غير العرب في الصلات والعلاقات والتصرفات والسياسات العربية .

– انتهاج سياسات، ووضع استراتيجيات « عسكرية واقتصادية » على وجه الخصوص لا تأخذ بالاعتبار المصلحة العربية المشتركة، ولا تحسب أي حساب للرأي العام العربي، الذي كان مرهوب الجانب في يوم من الأيام ويؤخذ

رد فعله بالاعتبار ؛ ولم يصل الأمر بعد إلى درجة المجاهرة برفضه واحتقاره، وإن كانت الممارسة تشي بذلك .

في ظل هذا الواقع، الذي يهدف بالدرجة الأولى إلى حماية الدولة القطرية حتى لو ساد بسبب ذلك نمط الدولة البوليسية، في ظل هذا الواقع تبني العلاقات السياسية العربية أو تمارس، ولا ينقصها أبدا مراعاة شعارات معينة مراعاة شكلانية آنية آخذة بالزوال، كما لا ينقصها الزعم بأنها لم تتنازل عن الانتماء القومي أو القضايا القومية عندما تسأل بجدية عن ذلك . ومما لا شك فيه أن لهذا كله انعكاساته على مجمل الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية العربية، وله أيضا انعكاساته الخطيرة على القضايا العربية التي تحتاج إلى حضور عربي شامل وتماسك قوي، مثل الصراع العربي الصهيوني وقضية فلسطين ؛ وقد ظهر تأثير ذلك وما زال يظهر، في مسيرة مؤتمر "سلام الشرق الأوسط " على الأقل .

وإذا أضفنا إلى ما سبق وأشرت إليه من سمات واهتمامات، نظرة النظام السياسي العربي إلى المواطن العربي، وتعامله معه، والممارسات التي يقوم بها نحوه، ونظرته إلى الأفراد وحقوقهم وحرياتهم ودورهم في التعبير عن الرأي والموقف، ومشاركتهم في القرار، وفي التعبير عن صدق الانتماء، وما يأخذه بالاعتبار عند رسم السياسات الداخلية وتنفيذها وترتيب أولوياتها، إذا ما فعلنا ذلك، نصل إلى مقاربة لتصور عن الواقع السياسي العربي، تمكننا من النظر بجدية إلى الاستنتاجات والوقائع الآتية:

١ – إن خوف الأنظمة السياسية العربية بعضها من بعض يجعلها تعتمد على القوى الكبرى التي تحميها، ولذلك تقوم بتمتين علاقاتها مع تلك القوى ولو على حساب مصالحها القطرية وحرية قرارها السياسي وإرادتها . ومن تحصيل الحاصل أن يتم ذلك على حساب المصلحة القومية كلما اقتضت المصلحة القطرية ذلك، وعلى حساب المصلحة القطرية كلما اقتضت مصلحة النظام في أي قطر ذلك أيضا .

٢ - إن هذه التبعية القائمة على الخوف والمصلحة الضيقة، تجعل معظم ما يتخذ من قرارات عربية، ثنائية أو عامة، محكوما على نحو ما باستراتيجية القوة المسيطرة ومصلحتها، وهو لا يخدم إلا مصالحها المباشرة أو غير المباشرة في نهاية المطاف، سواء تم ذلك بالإيحاء أو بطلب علني يفرض بأشكال مختلفة ؛ وهي في النهاية قرارات تخدم مصالح القوى المسيطرة بالدرجة الأولى، وقد تلتقي في حالات مع مصالح قطرية، ولكن لا يمكن أن تلتقي مصلحة القوى المعادية للأمة العربية مع قرارات وسياسات قطرية من شأنها أن تعزز مكانة الأمة وتبني قوتها وتقيم أسس تقدمها .

٣ - إن الرؤية الاجتماعية أو الاقتصادية أو الثقافية أو السياسية، التي تقوم على أساس قطري، لا يمكن أن تقدم حلولا شاملة للمشاكل القطرية على أي مستوى، مهما بلغ حجم القطر العربي وعدد سكانه ومساحته وموارده، لأنه لا يوجد في عالم اليوم إمكانية لاكتفاء من أي نوع في نطاق الدول الكبيرة نسبيا، فكيف يمكن أن يقوم مثل ذلك الاكتفاء في أقطار هي مقتطعات جغرافية وسكانية واقتصادية الخ من أرض مشتركة، أرض الوطن الكبير وجسم الأمة المتكامل !؟ وكيف يمكن أن يحقق أي قطر عربي خلاصا وتقدما من أي نوع، وهو محروم من التعامل والتواصل، ومن أن يتكامل فعليا مع النسيج المتمم لكيانه ولمجاله الحيوي ؟؟.

٤ - إن السياسة العربية القائمة على القطرية، والولاء للغرب، والتسليم بسطوة نظام القطب الواحد وتفرده، واعتماد

النظرة القطعانية إلى الجماهير، والتي تبني تصرفاتها على الخوف، من الأخ، وعدم الثقة بالقريب جراء واقع وتجارب أو خطط آتت أكلها جيدا ؛ إن تلك السياسة القائمة على تلك النظرة لا تبني ولا تهتم بأن تبني مستقبلا قوميا مشتركا لها، لأنها أسست مستقبلها ورتبت لبقائها، على أسس مغايرة للمنظور العربي المشترك ؛ وإلا كيف نفسر بقاء الجامعة العربية ــ والسوق العربية المشتركة ــ واتفاقية الدفاع العربي المشترك ــ والتضامن العربي ... الخ وكل صور العمل العربي منذ تأسيس الجامعة في الأربعينيات من هذا القرن وحتى يوم الناس هذا ؛ كيف نفسر بقاء ذلك في مهده، وعجزه عن تحقيق خطوة واحدة بناءة ومثمرة على طريق الوحدة، على الرغم من وجود كل المسوغات والدوافع والعوامل والمقومات، التي تجعل من ذلك العمل ضروريا وقابلا للتقدم والنجاح، أقصد العوامل المادية والتحديات الخارجية ؟؟!

٥ – إن السياسة العربية لم تضع خططا وبرامج تنفيذية جادة من أجل إقامة المؤسسات القومية القوية القادرة على ترجمة خططها وبرامجها ومواثيقها واتفاقياتها، على المستويات المختلفة، إلى واقع يفرض نفسه في الحياة العربية، سواء أكان ذلك عن عجز منها، أو عن عدم رغبة، أو انطلاقا من عدم إيمان بالعمل العربي المشترك وعدم اكتراث به . ويمكن أن نأخذ تجارب ثنائية وثلاثية ورباعية، وما هو أكثر من ذلك في التاريخ العربي المعاصر، هدفت إلى إقامة علاقات أو تجمعات اقتصادية وأشكال من الوحدة والاتحاد والتعاون، ولكن القليل منها هو الذي حقق شيئا على

مستوى الطموح، في إطار المؤسسات القادرة على التنفيذ ومتابعة العمل، وإنجاز شيء ملموس ينعكس على الناس خيرا وقوة وأمنا وسعادة ومتعة .

٦ - إن كثيرا من مقررات القمم العربية، على رفعة شأنها وهيبتها وأهميتها، على الرغم من الإجماع عليها، لم تتحقق!! وللمرء أن يسأل لماذا وكيف ؟ وإن كثيرا من القرارات والتوجهات القومية ذات الخطورة وذات الانعكاس الإيجابي على الحياة العربية والقضايا المصيرية، كانت تواجه باعتراضات سياسية عليها، سافرة أو سرية، من دول وقوى ذات مصالح ونفوذ، مما أدى إلى عدم تنفيذها أو إلى إيقاف ذلك التنفيذ، أو إلى تشويهه وعرقلته .

إذن القرار السياسي العربي، والقرار الاقتصادي العربي، والإرادة العربية، كل ذلك ليس بيد الساحة القطرية، ومن تحصيل الحاصل ألا يكون في خدمة المصلحة العربية العليا، ويصور للأقطار أو يظهر لها على أنه ليس في مصلحتها ممارسة سياسة تجعل الجزء في خدمة الكل للمنفعة القطرية أو القومية، ومن الطبيعي أن ينعكس ذلك على مجالات العمل العربي ومحتوياته بأشكال مختلفة، في معظم الأقطار وفي معظم المجالات، فضلا عن انعكاسه على منزلة الأمة بين الأمم، وعلى كرامتها وحقوقها ودورها الحضاري .

وقد وصلنا بعد كل الفعل العربي العتيد، إلى ما نحن فيه الآن وما نحن عليه، من أوضاع وأزمات وعلاقات، وهي أوضاع لا ترضي، بدليل امتعاض معظم الناس منها، وشكوى السياسيين أيضا مما آلت إليه القضايا الكبرى والعلاقات العربية جراء ذلك، فهل هناك استعداد جدي للخروج مما نحن فيه ؟ وهل يراد لنا أن نخرج منه أصلا ؟ وهل ملكنا الرؤية الواحدة لكيفية الخروج والعزيمة الصادقة على فعل ذلك ؟! أو هل نرغب في أن نصل إلى شاطئ سلام وأمان فعلا ؟ أم أن كثيرين منا يريدون الخروج على حساب إخوة لهم، ويريدون الخلاص، على أن يدفع غيرهم ثمن ذلك الخلاص ؟!

أيا كانت الأجوبة على تلك الأسئلة المرة، فإن كل خلاص فردي أو قطري للعرب هو خلاص آني، وهو أدنى لأن يكون هدنة في قتال، أو استراحة في طريق صعبة، أو فجوة في فضاء كابوس، أو ورطة مفخخة، إنه إغراء بتصور للنجاة، ينطوي على تأخير في تنفيذ إجراء الفناء، الذي ليس بالضرورة أن يكون فناء جسديا دائما، إذ يكفي أحيانا أن تفنى الإرادة ويزول الإحساس بالكرامة والهوية والتمايز والاستقلال، كما يكفي في كثير من الأحيان أن يزول الحضور الفاعل، وتغرس الدونية في النفوس إلى الحدود التي يشعر فيها الفرد أو القطر بعدم جدوى القيام بأي عمل لتحقيق التقدم والخلاص، والوصول إلى حالة استقرار وتوازن نفسي وروحي، وشعور بتساو وتعادل مع الآخر في الحرية والكرامة وامتلاك العلم والتقانة، وسائر مقومات النجاح والسعادة، للإحساس بمعنى الحياة الحرة في وطن حر .

إن ذلك يملي علينا أن نفكر جديا ونعمل لمواجهة ضرورات تفرضها علينا الحياة والتحديات، ويفرضها كوننا نعيش مع الآخرين في عالم لا يعرف التوقف ولا يعترف بالجمود، عالم محكوم بالصيرورة على مدى السيرورة، ولا يحملنا معه في قطار ينقل الناس دائما إلى المستقبل المتجدد أبدا بالوعي المعرفي وبامتلاك أدوات التقدم ومقوماته والاستعداد للتضحية من أجله، إن لم نكن مؤهلين لذلك حريصين عليه.

وإذا لم نفعل ذلك من أجلنا فلا أقل من أن نفعله من أجل أولادنا وأحفادنا، الذين لا بد أن يكون لهم وطن وكرامة وهوية يحملونها، وخصوصية يعتزون بها، ومكانة يدافعون عنها، ومشاركة في الحضارة الإنسانية يقومون بها ويتطلعون إليها، انطلاقا من تاريخ لهم، أثله الأجداد في بناء الحضارة، وهم ورثة ذلك التاريخ ؛ وانطلاقا من حتمية عيش مع الناس، في حياة تدعو أبناءها دائما لإثبات حضورهم فيها، وتعرضهم لامتحانات صعبة لإثبات ذلك الحضور، وتحرضهم كما تحفزهم على التعبير عن ذواتهم وتمايزهم وحيويتهم، إذ بذلك يعيشون حياتهم بامتلاء .

وبين يدي تلك الضرورات أجدني مشدودا إلى تأكيد الثوابت الآتية:

- إننا عرب، هكذا نحن وهكذا عرفنا بين الناس، لنا تاريخ وشخصية ثقافية وحضارة، وكل ذلك يحمل سماتنا وخصوصيتنا ويدل على مشاركتنا في الحضارة الإنسانية ؛ ولنا في التاريخ البشري مساهمات من أغنى وأقدم ما عرف ذلك التاريخ، وسنبقى عربا وسيبقى لنا تاريخ لا يخجل به التاريخ، ولا نخجل نحن به أمام أحد، مهما كان من أمرنا اليوم ومن هزال حاضرنا، وقتامة بعض مراحل تاريخنا، وسقوط بعض نماذجنا القيادية . فكل أمة وكل تاريخ، فيها وفيه، مثل تلك المراحل والحالات والنماذج، وعلى من يفكر في ذلك، ويريد تاريخا مثاليا ويعتقد بوجوده، أن يقدم لنا ذلك التاريخ أو تلك الأمة، الأنموذج؟!

أما نحن فنرى أن كل تاريخ الأمم سجل هزالا في مراحل، وسقوط نماذج وبعض انهيارات، عبر دورة الحياة ودورة الحضارة المستمرتين، منذ وجد الإنسان على الأرض ومنذ بدأ صناعة التاريخ .

- إن مستقبلنا المشترك سيبقى أمامنا، تقودنا إليه طريق يحدد معالمها: ماضينا وحاضرنا وإرادتنا في آن معا . ولن نبدل هويتنا ونحن نبحث عن طريقنا التي تقودنا إلى الفلاح والنجاح، فنحن سنبقى أبناء العقيدة الإسلامية السامية، وأتباعها، وأهل العربية العريقة وأشياعها، وأصحاب التراث الغني، والتاريخ الحضاري العهيد، وستبقى لنا عاداتنا وأعرافنا وتقاليدنا وخصوصيتنا التي نتمسك بها، تلك التي لا تعيبنا في شيء، وسنبقى أصحاب ذلك التسامح القومي الذي يعزز إيماننا بالقول الكريم « وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

- إن الذين يحملون العداء لنا ولحضارتنا ولدورنا ولما تمثله ثقافتنا عبر التاريخ، لن يكفوا عن مناصبتنا العداء، وقد وجدوا من أنفسنا أنصارا لهم علينا، في كثير من الأحوال، وقد عبثوا بالضعفاء منا ونمت قوتهم بضعفنا وتخلفنا، ولن يتركونا من شرهم ؛ وليس لنا إلا قبول هذا التحدي، أو التنازل لهم عما نملك وعما نمثل من عقيدة وثقافة وهوية. ولن تكون لنا قدرة على المواجهة إلا بانطلاق من ذواتنا وبالاعتماد على ذواتنا وإمكاناتنا وبتعزيز انتمائنا لواقعنا وأمتنا، ولن يكون خلاصنا أو نصرنا إلا جماعيا، فحال الفرقة

هي الحال الأمثل لتغلغل سرطان العدو في كياننا والهزيمة في مواجهاتنا وفي نفوسنا على حد سواء .

- إن جوهر خلاصنا يكمن في إخلاصنا لحقيقة أن العلم، والعمل به، على أرضية من الإيمان بالله وبالذات، هي الحقيقة التي تبدأ بها طريق مواجهة الواقع بهدف تغييره، ومكاشفة الذات بالضرورات التي ينبغي القيام بها على مستويات شتى، ابتداء من النفس وانتهاء بالوطن مرورا بالغير ؛ وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

أما الضرورات التي أرى ألا مناص لنا من مواجهتها بمسؤولية ووعي، وبوتائر من التنمية قادرة على تحقيق نقلة نوعية في واقعنا وسلوكنا وردودنا على الأحداث، وفي تصدينا لما يفرض علينا من صراعات وتحديات ؛ فهي ما سوف أشير إليه هنا، وهو لا يعدو كونه اجتهاد فرد يخطئ وقد يصيب، وتطلعات مواطن عربي يتجرع كؤوس هذا الزمن العربي الرديء ويكتوي بنار ما يرى ويسمع، ويخشى الآتي وتطوراته ومفاجآته وتفاعلاته، على أرضية عربية « بشرية ـ مادية ـ نفسية » لم تعد ولم تستعد لذلك الآتي، بالقدر الذي يمكن من دفع أذاه والتخفيف من بلواه .

وهو مع ذلك لا يفتأ يتردد على ساحة الحلم يحدوه الأمل، وفي كل مرة يتردد فيها على تلك الساحة يصاب في الصميم، ولكنه لا يزال يتردد ويردد مع متمم بن نويرة :

وكنت كذات البو ريعت فرجعت	
	ولا ينفعنها نظرة وشميم
أطافت فسافت ثم ريعت فرجعت	
	ألا ليس عنها سجرها بصريم

ولا يرمي ما سأشير إليه، إلى أي نوع من أنواع الحصر والإحصاء لضرورات ملحة، يمليها علينا واقع، نعاني منه وفيه، أشد المعاناة، وتمنعنا المعوقات الكامنة فيه من مجاوزته نحو ما نرى أن فيه خيرنا وصلاح أحوالنا وتلاؤمنا مع عالم يفرض علينا ضرائب العيش فيه، وفي عصر يقبل علينا بما

لا طاقة لنا به، ونقبل عليه بما لا يؤهلنا لامتلاك زمام أمرنا فيه، وللتحرك من موقع القادر المبادر، ونحن محمولون على أجنحته، عصر فيه للقوة ذراع ومخلب ولسان، وللعلم سيف وسطوة وبيان، وللثقافة العالية مكانة وغلبة قهارة، بينما نحن نحبو على عتبات تلك المقامات ونسعى لامتلاك تلك المقومات، التي تصنع لمن يمتلكها في هذا العصر، منزلة ومهابة ودورا في الحياة، وترتب له حقوقا تصان ومصالح تراعى، وتحفظ لكلماته ومواقفه وقيمه مكانة وتعطيها معنى .

ومن المؤكد أن ذاك الذي نحتاج إليه في عصر يقبل علينا ونقبل عليه، لا يصنعه إلا الإنسان بتفوق بنيته الروحية والعقلية، بعلمه وبصيرته وإيمانه، بطاقته وقدرته على تحويل المعرفة والخبرة إلى مادة وقوة تحميان وجوده وحقوقه .

ولا تقيم أسس بناء ذلك الإنسان، وترسخ ذلك البناء الاجتماعي المدني الذي هو نواته، إلا مؤسسات رسمية وشعبية، تقوم في ظل دولة شرعية عادلة، يراعى فيها الدستور وتحترم القوانين والأنظمة.

مؤسسات ذات إمكانات مالية وقدرات بشرية وتجهيزات فنية عالية، فيها تراتبية أخلاقية ـ علمية ـ عملية، تقوم على الاقتدار، وتستند إلى معيار فيه للمعرفة والقيم الرفيعة المقام الأول .

مؤسسات يعلو فيها القانون فوق كل الرءوس، ويتساوى فيها وأمام أنظمتها وأحكامها ومعاييرها الناس كل الناس، في الحقوق والواجبات، وتحترم حرياتهم السياسية، ويطالبون بأداء الواجب من موقع المواطن الحر الشريك الملتزم باختيار، الذي له مثل ما عليه، لا يستثنى من ذلك إلا من أسقط الله سبحانه عنه ما وجب بسلبه إياه ما وهب .

ويتمايز في تلك المؤسسات الناس بأسمائهم وأحسابهم وأنسابهم وألوانهم وأشكالهم وأجسامهم ومواصفاتهم، ليعرفوا ويتعارفوا، ولكنهم لا يتميزون ولا يرتفع بعضهم فوق بعض درجة أو درجات، إلا بعلم وعمل وخلق، ومتانة بنية روحية وتضحية، وبجهاد واجتهاد من أجل منفعة الناس،

ومصلحة الوطن، وتقدم العلم، وارتفاع شأن الحق، وشأن الأمة بالحق، وشأن الإنسانية جمعاء .

وتقوم تلك المؤسسات بدورها القومي والاجتماعي والعلمي والعملي، كل واحدة في مجالها، ضمن إطار تكامل يحكمها بخططه وأهدافه، وتعامل باحترام تام، من الجهات المعنية، لأنظمتها ولدورها وصلاحياتها وغاياتها .

وتضع تلك المؤسسات برامجها، التي تحقق أهدافها وتنفذ خططها، حسب احتياجات الناس في أقطار الوطن العربي، وحسب حاجة الأقطار والأمصار، بما يلبي متطلبات الحياة وتحديات العصر ومجاراة التطور ؛ وتكون لها الحرية والإمكانية لتنمية أعمالها وبرامجها وإنتاجها، اعتمادا على متغيرات العلم ومتطلبات العمل وحاجة الناس، وبما يحفظ استمرار الازدهار ويحقق مساهمة العرب حضاريا بما يقدم شيئا جديدا للحياة والناس ولمستقبلهم هم كأمة .

على أن تحكم تلك المؤسسات ثوابت ومبادئ قومية ـ وطنية، عربية ـ إسلامية تبقيها في خدمة الأمة كلها، تلك التي لا يمكن فصل مصلحة قطر فيها عن قطر، فتتلاحم فيها الوطنية بالقومية وتتماهى معها، ولا يمكن فصل عروبة فيها عن إسلام ـ ولا نجاح لمن يضع منا العروبة في مقابل الإسلام ـ فيتحقق على ذلك الصعيد شيء مشابه، من التلاحم والتماهي، لذلك الذي تنشده بين الوطنية والقومية .

وتبقى تلك المؤسسات على ثوابتها وفي أطرها العامة، ضمن رؤية شاملة للمصلحة العربية ـ الإسلامية العليا، على الرغم من تغيير الأحكام والحكام، وتداول الأشخاص وتنوعهم، وعلى الرغم من اختلاف السياسات القطرية وتضاربها، وخلافات الحكام وتعاركهم وتفاوت اهتماماتهم ومعارفهم ومصالحهم، لأننا نريد أن نقيم مؤسسات الأمة التي تمثل مصالحنا جميعا، أفرادا وتجمعات وأقطارا، وتمثل وحدة شعبنا وثقافتنا، وحقيقة المصير المشترك الذي ينتظرنا .

ولا بد أن نعمل على أن نرسخ لمثل تلك المؤسسات روائز في الأنظمة

والحياة معا، وأن تقوم على أسس ثابتة وملموسة المردود، منفعـــة للنـــاس، وتواصلا وتنسيقا فيما بينها، ليبقى ببقائها، ما تعنيه لنا وما تمثله علـــى أرض الواقع من إنجاز، يمثل وحدة الشعب والأرض والمصير ويؤكدها، وما تعمقـــه وتبلوره وتظهره من مصالح وثوابت وقضايا وقواسم مشتركة، هي في النهاية ما يرسم خطوط مستقبلنا وتوجهنا كعرب، وما يثبت استمرار عملنا من أجـــل ما يقوينا ويجمعنا.

وإذا كان الإنسان من جهة، والمؤسسات من جهة أخرى، أهم مقومـــات البناء وعوامله، وأهم ما يصرف الجهد لإشادته من بناء، فإن الواجب يقضـــي بالتعرف على الضرورات التي لا بد من مراعاتها لنجعل من أهم ضرورتين من تلك الضرورات وهما : « بناء الإنسان، وبناء المؤسسات » مقومين رئيســـين ومحورين للاهتمام والعمل، يستقطبان الإمكانات والقـــدرات وجـــهد الثقافـــة والسياسات، ليقوم كل منهما بدوره الفعال، في علاقة تعطي نتائجـــها طابعـــا لحياتنا وصلاتنا وخططنا، ويصبح كل منهما قويا وقادرا على دخـــول ميـــدان المواجهة والتحدي، ومؤهلا لذلك، تحقيقا لما تتطلبه ظروف العيش فـــي هـــذا العصر، الذي تحكمه القوة الغاشمة، والمصلحة الفجة، وغريزة تلون القـــانون والقيمة بلون الحضارة والمدنية والتسامي، ويزخر بأشخاص ودول، لهم ولـــها أخلاق الحيتان وقوانينها، وتحكمهم وتحكمها شرائع الغاب ؛ عصر يوظف فيـــه أصحاب القوة والمصلحة والاندفاع الغريزي، ما ملكته الإنســـانية مـــن علـــم وتقانة وتقدم، ويستخدمون القوة والقهر، لتحقيق أغراضهم وأهدافهم، وهـــم يصوغون القيم والمثل والأحكام والقرارات والعلاقات والمعايير، وحتى الحكـــام وتوجهات الإعلام بما يحقق غاياتهم وهيمنتهم ومنافعهم، مستبيحين، في سبيل الوصول إلى غاياتهم تلك، الوسائل كلها، ولا تنقصهم الذرائع والشعارات، وهم يعرفون جيدا كيف ينثرون الوعود، ويلوحون بالتهديد، ويســـتنبتون الوعيـــد شوكا في القلوب والجفون، وكيف يفرضون العقوبات، ويقومون بـــالاعتداءات، وينشرون الرعب، ويمارسون الإبادة باسم العدالة .

وفيما يتعلق بالضرورات التي أراها ملحة لمصالح الإنسان العربي أشير إلى :

أ – احترام حرياته وحقوقه الأساسية، السياسية والاجتماعية، في إطار الشريعة والتشريع، دونما ذرائعية ترمي إلى استلاب يتم بشكل مباشر أو غير مباشر، ويكون لمصلحة الأنظمة أو لمصلحة الحكام . ولا يتحقق احترام للإنسان من دون احترام لرأيه وحريته ومشاركته في القرار، حسب قدراته، وفي حدود ما يرسمه الدستور والقوانين ؛ التي تراعي أحكام الدستور، والأنظمة واللوائح التي لا تخالف تلك القوانين . واحترام الناس فيه احترام للوطن، وقوة له وفيه طاعة الخالق بتنفيذ أمره وشرعه وتعاليمه، وتقوية للدولة وللحاكم الشرعي الذي يقوى بقوة شعبه، ويرتفع مكانة باحترام الشعب له .

والمواطن الحر يصنع الحرية الوطن ويدافع عنها وعنه، ويجدد معنى الحرية ويوسع أفقها بالوعي الذي تغنيه الممارسة وتصقله . والحرية ليست عبئا على الحكومة حتى في البلد النامي أو المتخلف، لأن كل عمل يقوم به المواطن، في نطاق ممارسته للحرية، يحمله مسؤولية، بحكم عيشه في مجتمع تحت سقف الوطن والقوانين الناظمة لحياة الناس ومصالحهم فيه، وهذا يجعل عيبه أو خطأه بوصفه مواطنا مكشوفا ومدانا، بموجب القانون، ومن قبل الناس أيضا، ويجعل أية حكومة، تعرضه للمساءلة جراء ممارساته تلك، يجعلها في حل من أية اعتراضات وأحكام أخلاقية واجتماعية تطلق بوجه فعلها ذاك، لأنها تطبق قانونا وضعه الناس لخدمة الدولة والناس، فهي تقوم بواجب ما دام فعلها لا ينصرف إلى الجور والقمع وتسخير القانون والدولة لخدمة شخص أو مجموعة أشخاص .

وانطلاق الحرية بموجب القانون يجعل الدولة والمؤسسات محصنة بجرأة المواطن على النقد، في حدود ما يمليه الواجب والمصلحة، وما يحدده القانون ؛ وفي هذا ضمان من استفحال الخطأ واستمراره من جهة، وضمان لتجدد وعي المواطن ويقظته ومسؤوليته وإحساسه بالشراكة التامة فيما يحدث من جهة أخرى، « فكلكم راع ومسؤول عن رعيته »، وكل يمارس الجهاد وخير الجهاد، وكل يتابع بوعي ومسؤولية ما يجري، في نطاق العقد الاجتماعي الذي ارتضاه أبناء القطر والأمة، لقطرهم وأمتهم، بما يرضي الله

والضمير ويحقق مصلحة الإنسان والوطن، وبما يبقي على الحيوية ومقومات التقدم والحياة سليمة معافاة .

ب – إتاحة فرص تعليم وتدريب عصريين أمام الطلاب والراغبين في تعلم الحرف بأساليب نظرية وعملية تواكب ما يحققه تقدم العلم وتطور أساليب التربية والتكوين، على أن نعطي للتجريب والمبادرة حيزا ومكانة، ونربط بعض مراحل التعلم والتدرب على المهن والحرف بمردود يحققه الإنتاج، ليشعر المرء بالجدوى من جهة، وبالثقة والقدرة على الإنجاز من جهة أخرى، فنوفر بذلك دوافع وحوافز ظاهرة لبواعث كامنة، ونفسح المجال أمام إطلاق طاقات الفرد الخلاقة وانطلاقته البناءة، ونصنع مناخا للإبداع في مجالات العلم والعمل .

وكم يكون مجديا، وكم هو مفيد وضروري أيضا، أن تنشأ مؤسسات في هذا المجال على المستوى القومي، تحقق خدمات للناس وللأقطار في هذا المنحى ... وكل ما يصرف على ذلك هو توظيف رابح للمال، من حيث مردوده الطويل الأمد على مناحي تكوين الإنسان وتقوية البنى الاجتماعية والاقتصادية والتقنية وحتى الدفاعية للأمة، وإقامة الصلات والعرى التي لا تنفصم بين أفرادها وأقطارها على أرضية المنفعة والانتماء معا .

ج – إيجاد فرص عمل لطاقات وكفاءات تفتك بها الحاجة والفاقة والبطالة، ولفئات اجتماعية تشكو من بطالة أو عطالة ذاتية أو موضوعية، خلفتها ظروف عمل سيئة أو فقدان إمكانات وتجهيزات وبيئة تمكن من تطوير العمل وتطوير الذات ؛ والاستفادة من الخبرة لتفجير طاقة المرء على الإنتاج والاختراع والإبداع . ولا يمكن فصل هذا المطلب ـ الضرورة عن ضوابط العمل ونواظمه، ولا عن مقومات مناخ الإنتاج والاختراع والإبداع ؛ وأعني بذلك ضرورة إعادة النظر بكثير من أنظمة العمل وقوانينه في الوطن العربي، لا سيما بعد المتغيرات التي جعلت من سلطة « البروليتاريا » التي ورثناها محنطة، سلطة قائمة في موت القانون أو في قتله لروح العمل وعلاقاته النشطة، ولروح العامل وحرصه على تجديد ذاته وتطوير قدراته وإحساسه بالارتباط بعمله وبالمسؤولية حياله، وشعوره، ولو من باب الافتراض، بأنه

مهدد إن لم يعمل بإخلاص، ويتطور بفاعلية تجعله قادرا على مجاراة روح العصر وهضم تقنياته ؛ بعد أن وصل العامل في أقطار عربية كثيرة إلى تواكل وتآكل أضرا به وبسواه .

إن هذا الجانب يتصل اتصالا وثيقا باستخدامنا للآلة، ويحرصنا عليها، وصيانتنا لها، وامتلاكنا لأسرارها ومن ثم البدء بتصنيعها وتطويرها، والإبداع في مجالات الإتقان انطلاقا من ذلك . والآلة أداة تقدمنا في العصر، وإن نظرة نلقيها على علاقات العمل والأنظمة التي تحكمها، وعلى علاقة العامل بالآلة وموقفه منها، وكيفية عمله، وحالته النفسية والروحية حين يواجهه بتقانة أعلى، كل ذلك كفيل بأن يضعنا أمام واقع لا بد لنا من مواجهته ومجاوزة صعوباته، إذا أردنا أن ندخل العصر بالإنسان، ونبقى مواكبين لمسيرة تقدمه وصيرورته بإبداع وإتقان واندفاع، وأن نتجاوز حالات التخلف والتفكك التي تنتعش بين ظهرانينا .

د – اهتمام بأسس تربية سليمة وأصيلة وعصرية وبمقوماتها وقيمها، تربية تخلص إنساننا من كثير من العقد، ولا تجعله بين خيارين إما رفض الهوية والخصوصية الاجتماعية للحاق بالعصر أو بما يقال له إنه التقدم، وإما تقوقع عبر الماضي بحثا عن الذات وانصراف عن كل تجدد في الحياة والعلاقات من حوله !! وفي كل من الحالتين تصاب الأمة بخسارة، فلا المنبت من جذره وبيئته وانتمائه وواقعه ينجح في خدمة الأمة – بشمول مدلول الكلمة – ولا المتقوقع في ما يتراءى له أنه الأصالة والصحة والسلامة ينجح في خدمتها هو الآخر على الوجه الأمثل، أي بالشكل المجدي في هذا العصر بمعطياته ومقوماته وأسلحته وتحدياته .

وليس أضر لنا في ما نأخذه من مناهج وأساليب وقيم تربوية من أن نعرف ونؤكد أننا : عرب – مسلمون – في القرن العشرين نربي أبناءنا لقرن قادم وعقود قادمة، ونحن في وضع ضعيف نواجه احتلالا وعدوانا وحقدا مبيتا ضد أمتنا وعقيدتنا، وأن خلاصنا يكمن في الاعتماد على الذات أولا، وأن كيان القوة في الذات القوية هو : صلابة روحية وأخلاقية – وإيمان بالحق والوطن وثقة بالنفس وبالنصر – ومعرفة بما لنا وبمن نحن وبمن نواجه – وبحث

عن امتلاك المعرفة وأسلحة العصر التي بها نبقى ونتقدم – ويقين بأننا لا نعاني من معوقات خلقية من أي نوع، تمنعنا من امتلاك التقانة والعلم والتطور، ومن تحقيق كل ما نصبو إلى تحقيقه ؛ والوصول إلى حالة من القوة الروحية والمادية تمكننا من تحقيق النصر لمبادئ وحقوق تستحق أن تنتصر، وأن تبقى مشعلا في ليل البشرية .

وما أحوجنا إلى تعزيز الثقة بالنفس وبالأمة والعقيدة، وبهويتنا وخصوصيتنا القومية، على أرضية موضوعية من الوعي والمعرفة والمنطق والعقلانية .

وما أحوجنا إلى تبصير أنفسنا وأبنائنا وإخوتنا وأخواتنا بالعيوب والعلل التي تجعلنا ننهزم في مواجهاتنا المسلحة، وبعوامل التكوين التربوي والاجتماعي التي تعوق تقدمنا، وكل تلك أمور تستحق أن نعيد النظر فيها .

ما أحوجنا إلى معرفة الأصالة من حيث هي قيم ومقومات صالحة للبقاء والتقدم، وما أحوجنا إلى اكتساب دروس الحياة، وإتقان استخدام أسلحتها وأدواتها، وإتقان التعامل أيضا مع الأقوام والأشخاص والظروف، بما يحفظ البقاء والحق والكرامة والهوية والتمايز لأمتنا .

وما أحوجنا، حتى نحقق شيئا من ذلك ومما نرمي إلى تحقيقه من بعد، إلى تكوين المربين والمعلمين القادرين على قراءة حاضرنا وماضينا بعين العصر القادم علينا، بثقة واقتدار وإصرار ؛ ما أحوجنا إلى مراجعة جادة وصارمة للذات حول هذا الموضوع، لنرى كم قصرنا في تكوين أولئك، وكم هضمنا من حقوقهم، وفرطنا في مقومات مناخ العمل السليم الذي يحتاجون إليه، ليؤسسوا بكفاءة وصدق، مستقبلنا، من خلال تأسيسهم لتربية النفس والعقل والجسد، تربية الروح العالية للإنسان الذي يصنع المستقبل ويلونه، بعد أن يستعد له ويمتلك مقومات التعامل معه بثقة واقتدار .

هـ – الاهتمام بثقافة وإعلام لا يكونان تبعا ولا يكونان الأتباع .

الاهتمام بثقافة تبني مقومات الإنسان وتستنبته في تربة الأمة بأصالة، وتغذوه القيم السليمة، وتلقنه المعرفة على أرضية من احترام المنطق والعقل

والحقائق، وتبني فيه حب الحرية، وحس الكرامة، وصدق الانتماء للأمة والوطن، والولاء لقيم وثوابت وعقيدة ومعايير وحقائق، يرى في بقائها الأمة والوطن والمجتمع والذات، وفي دمارها دمارا له ولكل ذلك الذي يقيم حياته ويبقي جنسه .

والاهتمام بإعلام قادر على قول الحق وكشف الزيف وإعلاء شأن الدولة على شأن السلطة، وشأن السلطة على الفوضى . إعلام يجاهر بالحق ويواجه الخطأ، ولا يتعثر بين ركام المغالطات وهو يبحث له في سوق الكلام عن مشتر وسوق .

كم نحن بحاجة لاحترام الثقافة وتوظيفها لخدمة ثوابت الأمة والعقيدة، ومستقبل الأجيال والوطن والمعرفة، وكم نحن بحاجة لأن نستظل بظل سيوفها التي لا تثلم، ونحن نخوض أعظم الجهاد، ونحرر إرادة العباد وعقولهم وقلوبهم من تسلط وقهر، وننسج حول الأرواح، المرتعشة من سطوة التسلط والبغي، بردة أمان من جوع وخوف، باستخدام الكلمة والوعي المعرفي استخداما شريفا نظيفا يحقق ما فيه مصلحة الإنسان والوطن والدولة والأمة .

فنحن نحتاج للدولة الشرعية العادلة المبنية على أسس شرعية وتشريعية، دستورية وقانونية، لأنها عندما تكون كذلك تكون لنا كلنا، وليس لفرد أو لأفراد منا، ولأنها عندما تكون كذلك تصون حرياتنا وكراماتنا وقدراتنا، لأنها ترى في ذلك واجبها من جهة وثروتها وقوتها ودرعها من جهة أخرى . ونحن نحتاج للفرد الواعي الذي يصنع تلك الدولة ويحمي مسيرة تنميها، ويقيمها على الصلاح، حصنا للوطن والناس . ونحن نحتاج للدولة التي تعرف، بحس واقعي موضوعي عصري وبحس قومي ووطني نظيف وسليم، أنها لن تكون شيئا ما لم تكن جزءا من كل، يسند الكل ويسنده الكل، وما لم تكن حلقة في درع الأمة، لأنه لا حياة في هذا العصر إلا لقوة ضلع يسند الضلع الأخ، ليقوم جسد يحمل أعباء العيش ويكرس وجود الأمة على أرضها إلى الأبد .

وكم ينقصنا أن نتفهم علاقة ينبغي أن تصل إلى نوع من التكامل بين السياسة والثقافة، حيث يرى كل من السياسي والمثقف أنهما يعملان من أجل أهداف أسمى وأبقى وأهم من أشخاصهم ونزعاتهم وتنازعهم، وأنهم يبقون في ذهن الناس وتاريخ الأمة ما أخلصوا للناس وللأمة وما خدموا الحق باجتهاد وصدق، كل منهما ــ المثقف والسياسي ــ قد يخطئ ولكن حين يكون المعيار الذي يحتكمان إليه معيارا سليما، وحين يكون كل منهما قادرا على الرؤية بحق وعلى رؤية الحق، أو لديه الاستعداد لأن يفيء إلى الحق إذا ما ذكر به أو عرف به، فعند ذلك تصبح العلاقة علاقة بناءة، وعلاقة بناء في صرح، هو للأمة ولكل فرد من أفرادها في آن واحد .

وربما كان داء التسلط والتمرد، الاتهام، والاتهام المضاد، داء يمنعنا من رؤية الأهداف الأكبر والطريق الأسلم التي ينبغي أن نتوجه إليها ؛ وقد آن الأوان لنتخلص من ذلك حرصا على شرف الحياة وعلى وجودنا فيها، وحرصا على الأمة ومنزلتها بين الأمم .

لقد أشرت في هذه العجالة إلى بعض الضرورات التي لا بد من مراعاتها لنبني الإنسان العربي ونجعله أكثر مشاركة في بناء الحياة وفي خوض المواجهة والدفاع عن الذات، ولكن لا بد من أن أشير إلى أن تربيته وتكوينه ينبغي أن يكونا على أساس انتمائه للوطن العربي وللأمتين العربية و الإسلامية بما لهما من قيم ــ ذلك الانتماء الذي هو من الأهمية بمكان لا سيما في هذه الظروف ــ لأننا نريد أن نبني الإنسان الذي يبني وطن الجميع من أجل الجميع، والذي يؤمن بذلك ويعمل له . فلا بد إذن من نبذ تربية الجهل والفرقة والمقت والعداء، وتوسيع مدارك الأفراد ليعرفوا أن مصالحهم في لقائهم داخل سياج الوطن ــ الأمة والأمة ــ الوطن، وتعريفهم على حقيقة أننا كلنا مستهدفون : وجودا ــ وعقيدة ــ وثروات ــ وحريات ودويلات قطرية، ما لم ندافع عن أنفسنا بكل ما نملك، وما لم يخض كل منا معركة الآخر وكأنها الدفاع عن الذات ؛ ودعوتهم إلى تربية الوجدان الجمعي وإنعاش الحس القومي النقي، الذي يمكننا من استشعار الود فيما بيننا ووقع المصيبة التي يصاب بها أي منا وكأنه في قلوبنا، وإدراك الخطر الوافد علينا، ذاك الذي

ينبغي أن يستفزنا كأمة لنبني ونواجه ونتقدم، ويحمينا من شرور أنفسنا ومن الغير .

وربما من أجل هذا وتطلعا إليه أرى : أن للثقافة دورا، وأن على أهلها تقع مسؤولية المبادرة ؛ وربما على طريق ذلك ووصولا إليه أدعو: إلى حوار يقوم بين المثقفين العرب في هذا المناخ وفي هذا الوقت بالذات، الذي أراه ملائما للحوار، لأن كل الأطراف في الساحة العربية لديها الاستعداد لمراجعة ذاتها وللاعتراف بالآخر : من اليسار الماركسي أو الذي كان ماركسيا إلى الاتجاه القومي والاتجاه الإسلامي. والحوار الذي أدعو إليه في مجال الثقافة يبدأ في نطاق ضيق ثم تتداح دوائره، بعد الاتفاق على نقاط رئيسة بين أطرافه، تصبح برنامج عمل للجميع . وأرى أن يقوم هذا الحوار في مناخ سليم، وعلى أرضية واضحة، أهم ما يحكمها وتحتكم إليه، معيارية قيمية خلقية قومية ــ عقيدية ــ إنسانية، فيها الأسس الآتية :

* الاعتراف بالآخر وبحقه في الاختلاف، وعدم إلغائه أو تهميشه أو مصادرة رأيه، وعدم التشكيك به لأنه الشريك الكامل الشركة في المواطنة والوجود والقرار والمصير، واحترام حقوقه وحرياته الأساسية وانتمائه للوطن، في إطار مفهوم للوطنية يتماهى مع القومية، ولا يشكل ندا لها، أو بديلا عنها، أو صيغة اعتراضية عليها، لأنها الأشمل والأبقى التي يتناهى إليها الفعل الوطني في تساميه وتحققه النهائي .

* الاعتراف بأهمية التعدد، والتنافس من خلاله، وصولا إلى خدمة أفضل للوطن ــ الأمة، والأمة ــ الوطن، وتحت سقف الثوابت المبدئية التي يقرها الحوار . على أن يكون مفهوما ومعلوما أن الحوار لا يهدف إلى تحقيق نتائج تسفر عن جعل المثقفين متوافقين ومتفقين في كل شيء وعلى كل شيء، كأنما هم نسخ طبق الأصل، بعضهم عن بعض وأنه لا يرمي إلى إلغاء التيارات الفكرية والتوجهات السياسية، والأطر التنظيمية لها، وإنما يرمي بالدرجة الأولى إلى اكتشاف المشترك وتعزيزه، وتركيز الموقف حول الثوابت المبدئية، ــ القيمية والقومية ــ وتبين الروائز المعيارية التي يحتكم إليها وتعلو فوق كل اعتبار، وتحديد المواقف، في ضوء ذلك، من قضايا ومشكلات

ومشروعات جوهرية فيها صلاح شأن الفرد والمجتمع والأمة، والاتفاق على كيفية خدمتها بإخلاص وفاعلية مجدية .

* ان الحوار يجب أن يتم بصراحة وموضوعية وحرية تامة، تحت سقف الانتماء للوطن ـ الأمة، واحترام عقيدتها، وهويتها الثقافية ولغتها، وأن يلتزم من يختارون طريق الحوار، بما يسفر عنه، التزاما أخلاقيا ومبدئيا وسياسيا فعالا .

* ان الحوار يتم في مناخ ديمقراطي سليم وتام على أساس من المساواة والحرية والمسؤولية، مناخ يسمح للمتحاورين بالانتقال من ساحة رؤية إلى ساحة رؤية أخرى، يقود إليها تبادل الرأي والمعلومات وتواصل المتحاورين، على أرضية من الثقة والاطمئنان والاحترام المتبادل والأهلية التامة ؛ حيث تكون الغاية هي نشدان الحقيقة والمصلحة القومية والحفاظ على الوجود وحيوية الحضور، واستقلال الإرادة والقرار والوطن والإنسان، في أرض الأمة العربية كلها .

وهذا يقتضي أن يكون كل طرف من أطراف الحوار ـ الذي يبدأ ضيقا ثم يتسع وتنداح دوائره بين المثقفين العرب بشكل مبرمج ومنظم ـ وكل فرد من الأفراد المشاركين فيه، على استعداد لأن يرى الحقيقة وينشدها ويتمسك بها حين تتبين له معالمها حتى لو لم يكن من قبل في مجالها أو قريبا منها، ويستشعر المصلحة القومية العليا ويرتفع إلى مستواها بالقول والعمل .

لأن الاعتراف بالخطأ ونشدان الحق هو بداية الاستعداد لتغيير الرأي والموقف، ووصول التغيير إلى تحقيق نتائج ذات مردود إيجابي في الداخل وعلى جبهات المواجهة مع العدو، وفي التصدي للتحديات في مجالات الحياة جميعا، دونما ادعاء بعصموية فردية أو أيديولوجية من أي نوع، الأمر الذي يهيئ فرصة لإلغاء حالة التمترس المزمنة في الحياة العربية، خلف المواقع وفي المواقف وعند الآراء التي تستند إلى أحكام مسبقة بداخلها كثير من الوهم والجهل والظلم، والتراشق من تلك المواقع مع الآخرين بالكلام وأنواع الاتهام . ذاك الذي دفعنا وما نزال ندفع ثمنا غاليا له لأنه يفرق الصف ويشتت

القدرة، ويجعل القوة متضادة في ساحة مواجهة تستدعي تضافرها وتوجهها نحو العدو، بعزم ووضوح رؤية وثبات هدف .

وأن حالة المراجعة الذاتية والاستعداد للاعتراف بالخطأ واستيعاب الواقع والبحث عن الصحيح والسليم والمفيد، تلك الحالة التي بدأت تشيع في أوساط فكرية وتنظيمية وثقافية عربية ؛ تبشر بإمكانية ولادة صيغة جديدة يكون فيها تفاهم وتعاون وتركيز للرأي والفكر والجهد في فعل مجد على الصعد والمستويات جميعا، فالتيارت الأربعة الرئيسة في الوطن العربي وهي : التيار القومي ـــ التيار الماركسي ـــ التيار الإسلامي ـــ التيار الليبرالي . كلها لديها استعداد لمراجعة الذات وتتحسس مواطن الضعف ومواقع الخطأ والخطر في مسيرتها، كما تتحسس الخطر المحدق بالجميع، وهذا معطى إيجابي علينا أن نستثمره إلى أقصى الحدود لما فيه خير الأمة وخير كل فرد فيها .

ولا أظن أنه من الصعب، في الظروف الحالية وحيال التهديدات والمتغيرات الدولية، وما تحمله حقيقة قيام قطب وحيد بتسيير سياسة العالم، وكون ذلك القطب ـــ الولايات المتحدة الأميركية ـــ حليفا " لإسرائيل "، مؤمنا بمشروعها التوراتي التوسعي ملتزما بتحقيقه، وهو يعمل في الوقت ذاته على تحقيق مصالحه الرئيسة في وطننا على حساب حقوقنا وسيادتنا وتقدمنا، وحتى على حساب وجودنا إن اقتضى الأمر، تلك التي تتلخص في المصالح الرئيسة الثلاث وهي : إسرائيل ـــ النفط ـــ السوق الاستهلاكية التي تبقينا حياله مجرد أفواه وسواعد، أفواه تستهلك ما ينتج وسواعد تعمل في خدمة إنتاجه .أقول ليس من الصعب أن يتفق المثقفون، من خلال الحوار، على موقف من بعض الموضوعات والقضايا الرئيسة التي تهم الأمة وتنعكس إيجابيا على الحياة والإنسان في الوطن العربي ؛ ويشكل اتفاقهم حولها برنامج عمل ذي أهداف رئيسة تقدم على ما عداها، وترفع فوق كل خلاف وعصبية وانتماء، ويحمي كل منهم ظهر الآخر في أثناء العمل من أجلها ؛ ويمكن أن أشير هنا بإيجاز شديد إلى بعض تلك القضايا والموضوعات مثل :

١ - الموقف من الصراع العربي الصهيوني، هل هو ـــ بعد الذي صار والذي جرى والذي ينتظرنا على طريقه، وبصرف النظر عن توجهات السياسة

وأفعال الساسة ــ صراع وجود مع وجود لا ينتهي إلا بحسم الأمـــر لصـــالح أحدهما، وأن الوجود العربي يتناقض كليا مع الوجود ــ أي شكل من أشـــكال الوجود ــ الصهيوني في " دولة إسرائيل" ؟؟ أم أن ذلك الصراع قد تحول فعلا إلى نوع من النزاع على حدود، وأن المثقفين يقرون هذا التحول، ويعـــترفون لإسرائيل بحق الوجود والبقاء والشراكة في كل ما يتصل بالمنطقة ومســتقبلها ومصيرها ؟!؟

إن الموقف من هذه القضية الرئيسة الكبرى في تاريخ العرب الحديـــث، التي هي القضية المركزية لنضالهم منذ عقود، سوف يحدد موقفا من السياسة العربية ومن الأنظمة التي اعترفت وسوف تعترف بإسرائيل، وسيملي توجـــها ونضالا، وسيطرح أسئلة كثيرة على الناس، وعلى الثقافة والمثقفين من بيـــن الناس، وسوف يحدد توجهات للتفكير والعمل والإبداع والتدبير .

وفي تقديري أن الثقافة العربية لن تقبل أن تغلق بـــاب تحريـــر الأرض العربية إلى الأبد في وجه الأجيال القادمة، لأن الجيل أو الأجيال الحالية عجزت عن التحرير أو انهزمت في معارك على طريقه . ولا أظن أن الثقافة العربيـــة، يمكن أن تبارك الاستسلام وتؤيده وتربي الأجيال القادمة عليه، أو أنها ســـوف تكتب صكوكه، وتباركها وتسوغها في نظر جماهير الأمة العربية .

فالأمم ــ والثقافة تمثل شخصية الأمـــة وهويتـــها وحصـــن صمودهـــا ودفاعها الأخير ــ الأمم لا تكتب صكوك استسلامها بدماء شهدائها، وثقافتـــها ترفض أن تكون عرابا للاستسلام، أو مكرسا للانهزام ومسوغا له.

وعندما يحدد المثقفون موقفا من ذلك، في إطار جبهة تحفـــظ هيبتـــهم وتفرض رأيهم وتشكل لهم حضورا في ساحة القرار السياسي، بفعل تـــأثيرهم الجماهيري، عندما يفعلون ذلك، فإنهم سيتوصلون ببساطة إلى تحديد مواقـــف على أسس معيارية ثابتة من العدو والترويج له، ومن التعامل مع السياســـات العربية في ضوء موقعها من قضية الصراع العربي الصهيوني وموقفها منـــه، وكذلك من السياسات والثقافات والاتجاهات الأخـــرى التـــي تدعـــم حقنـــا أو تطمسه؛ وتعرف كيف تضع خططها وتخوض معاركها في الداخل والخارج من

أجل تعزيز مواقفها ونضالها ورؤاها .

٢ ــ احترام الحقوق والحريات المدنية للمواطن العربي، والدفاع عنها، والعمل على ترسيخ مفهوم للديمقراطية المعافاة، وممارستها، وإرساء تقاليد ثابتة لتعاون السلطات، ولبناء مؤسسات المجتمع المدني واحترام القوانين .

٣ ــ استعادة التضامن العربي وتعزيزه بكل الوسائل ابتداء من إيجاد حالة تسمح بمصالحة عربية ــ عربية، تجب العداء المستحكم، وتوقف تساقي كؤوس المرارة وممارسة الثأر المستجد بأشكال مختلفة، وصولا إلى إنعاش مؤسسات العمل العربي المتعددة، سواء تلك التي أقيمت في إطار الجامعة العربية، أو بجهود ثنائية أو إقليمية عربية .

لأن خلاص أي قطر عربي مما يعاني من مشكلات، تمتد من الأمن الغذائي إلى الأمن القطري مرورا بتلبية سائر الاحتياجات، لن يكون إلا من خلال تكامل الجهد العربي . إن الخلاص الفعلي يكون قوميا أو لا يكون، لا سيما في مجالات : الاقتصاد ــ وامتلاك القوة على أسس العلم والتقانة والتصنيع القومي ــ والمواجهة الثقافية لأشكال المحو والتهجين والغزو . فلا يوجد على الإطلاق إمكانية لتحقيق اكتفاء ذاتي شامل، حتى في أكبر الأقطار العربية وأكثرها سكانا ــ ضمن الجغرافيا السياسية الحالية ــ كما يتعذر ضمان الاستقلال الكامل وضمان الأمن والاستقرار، وتحرير القرار السياسي والإرادة الوطنية واحترام السيادة قطريا، من دون اعتماد على الآخرين ومن دون دفع ثمن ذلك الاعتماد .

فخلاص العرب مما هم فيه وتقدمهم يكون جماعيا أو لا يكون، كما أسلفت ؛ وذلك انطلاقا من تجارب تاريخية طويلة، واستقراء لواقع ومعطيات، ومراعاة لمتغيرات ومتطلبات عملية، وليس اعتمادا على ما يدفع الحس القومي من مشاعر وواجبات وانفعالات .

٤ ــ تعزيز موقع الثقافة حيال السياسة من جهة وحيال الجماهير من جهة أخرى، لكي تستعيد هيبتها واستقلالها ومصداقيتها، ولتفرض من بعد حضورها في ساحة القرار السياسي، ولتتمكن من الدفاع عن حقوق الناس

وحرياتهم وقيمهم، وعن العدل والحق والحرية في المجتمع، حيال كل ما يضر بتلك الحقوق والقيم أو ينتقص منها . ولتستطيع أن تمثل طاقة وعي وتغيير، وقدرة على التحريض والتحريك، باتجاه ما يمكن أن يكون الأفضل والأسلم للإنسان والمجتمع . فالثقافة إن لم تفعل ذلك، عربيا، بتكاتف وتعاون، فإنها لن تستطيع أن تواجه القطرية المتجذرة، والأنظمة المتسلطة باسم تلك القطرية، ولا أن تحقق نقلة نوعية في الحياة الاجتماعية والعقلية للناس ؛ ولن تتمكن بعد ذلك من امتلاك القدرة للدفاع عن الثقافة العربية حيال ما تتعرض له خارج الوطن، لأن الضعف يفتك بكيانها، ولأن أفرادها يسلم بعضهم بعضا داخل القطر الواحد، فكيف داخل الوطن الكبير كله ؟؟ ومن باب أولى أن تكون ــ في مثل تلك الحالة ــ أضعف في مواجهاتها حيال قوى منظمة غازية أو معادية.

وفي تقديري أن وضع حد لأشكال التبعية الثقافية ولأشكال الخلافية، والعصبية القطرية أو الحزبية الضيقة، والطائفية والعشائرية، وما كان على شاكلة ذلك كله من مرض يفتك بالجبهة الثقافية، أفرادا وتجمعات، إن وضع حد لذلك يشكل مدخلا لتعزيز حرية التعبير وتشكيل القوى المتماسكة التي تحميها . وستكون قوة التعبير بدورها المدخل الذي تشكله الثقافة للدفاع عن الحريات العامة ولإشاعة الوعي المعرفي الذي يحرر الإرادة والعقل ويطلق طاقة الإنسان في البناء والدفاع والإبداع .

قد ينهض سؤال بوجه ذلك يقول : كيف يمكن أن ينشأ ذلك والمحرر المفترض يحتاج إلى تحرير ؟ ومن الذي يبدأ تلك الطريق ويقوم بالمبادرة ؟! أهو السياسي أم المثقف، ورقبة الثاني في قبضة الأول، كما أنه يتحكم بقوته وحياته وبالقانون، والسلطة العربية تخرج على القانون ولا تقيم وزنا لما يتصل بالحقوق والحريات والقانون ؟!

إنني أقول ببساطة تامة إن على المثقف أن يبدأ، وأن يضيء شمعة في ظلمة الليل ــ هذا على افتراض أن الأمور بهذه الدرجة من القسوة والظلمة ــ وإذا كان ثمة ثمن لذلك فليدفعه، وليكن ذلك الثمن غاليا جدا، إلا أنه سوف يبذر بذرة صالحة نافعة في الحقل، وأزعم أنه لا بد أن يأتي وقت على تلك البذرة، يحتضنها فيه الحقل الذي يرتجف خوفا، ولا بد أن يشعر بها جنينا

ينمو في أحشائه فيحن عليها ويغذيها فتنمو في وجدانه .

إن المجتمع، المتلقي الفعلي للكلمة، لا بد أن يكون درعها الحامي لها، والحقل الذي ينتفع بخصوبتها وينمو وعيه بفعل تأثيرها الطيب . إن ذلك قد يحتاج إلى وقت، وقد يحتاج إلى تضحية .

ولكن على المثقفين أن يكونوا درع الكلمة الشجاعة وحماة قائلها، فلا يخلعونه ولا يسلمونه ولا ينبذونه، ما دام على حق ويسير في طريق الأمة والحرية، وعليهم إذا ما سقط مضحيا، أن يسقوا الشمعة التي أضاءها زيتا حتى لا تنطفئ، وأن يعلوا شأن تلك التضحية ويشعلوا نارها في الوجدان الجمعي، حتى إذا ما زادت الشموع والتضحيات، أصبح الليل مهددا بمنار، وأصبح تيار النور دافقا يأخذ طريقه إلى العقول والقلوب، وأصبح الوقوف في وجه ذلك من الخطورة بمكان، لأن الشعب عندها سوف يتقدم في الطريق التي شقتها الكلمة وعبدها المضحون من أجل إشراقة النور ويقظة الشعب، وصحوة العقل والضمير، وانطلاقة الحرية والإرادة ؛ في صباح المساواة الذي تشرق فيه الشمس على كل الناس، ويكونون جميعا، صغيرهم وكبيرهم، من يشرفونه بمسؤولية ومن لا يتمتع بذلك الشرف، يكونون تحت ضيائها سواسية، وتحت قبة سماء يرتفع فيها ميزان العدل، وسيف الحق، وصوت الشعب، وسقف القانون، ونداء الضمير، والخلق القويم، والمصلحة العليا للأمة .

إن الثقافة قادرة على تحرير ساحاتها واستعادة مبادراتها، وتحقيق شيء هام في هذا الليل الغربي الطويل، فهل تراها فاعلة ؟! لتواجه التحديات المطروحة عليها وعلى المثقف العربي ؟!

<u>المثقف العربي والتحديات الراهنة :</u>

ما هي التحديات الراهنة المطروحة على وطننا وأمتنا، وعلى المثقفين أولا من بين أبناء وطننا وأمتنا لتكون المواجهة على أرضية واقعية منطقية وموضوعة ؟؟

١ ـ إن انتقال الأمم المتقدمة من عصر الحضارة الصناعية التجميعية الكبرى إلى عصر الفضاء والذرة والحواسيب والإنتاج القائم على سد الاحتياجات الناشئة في الأسواق المختلفة، حسب تنوع الأسواق والسلع، وحسب الجداول الزمنية التي تتطلبها تلك الاحتياجات، جعل العقل ينتقل من ساحة عمل على منوال معين إلى ساحة عمل ومنوال مختلفين ٠

وإذا كنا، حتى الوقت الحالي نفكر، بالانتقال من عصر الحضارة الزراعية والنمط الإقطاعي والاستهلاك المتصاعد للمنتجات الصناعية التي يقدمها الغير والصناعات البدائية أو الأولية التي تعلمناها، إذا كنا نفكر بالانتقال إلى عصر الصناعات الكبرى والمركبة والتجميعية المعقدة؛ فإن هذا يجعل الفارق المنظور بيننا وبين الآخرين فارقا ضخما يزداد اتساعا يوما بعد يوم؛ لأن التقدم في مجالات الذرة وعلوم الفضاء والحواسيب يمكن من تحقيق تقدم سريع جدا في حين يبقى التقدم حسب معطيات علوم وتطبيقات ما قبل ذلك العصر ضئيلا ونمطيا ومحدودا ٠

فهل نستطيع أن نواجه الأمة بحقيقة ما يجري، وأن نشكل حالة من الوعي المعرفي والعلمي والقومي، تجعل الانتقال ممكنا من واقع المجتمع الاستهلاكي، والتفكير الصناعي الأولي، والحضارة الزراعية، إلى استيعاب علوم الذرة والفضاء ومعطيات الحواسيب وتطبيقات ذلك، مع امتلاك الحرية، من خلال تحرير ذواتنا من الحاجة والتبعية وقيود تحكم الآخرين بكل ما نحتاج إليه حاجة حيوية في الدفاع عن أنفسنا، وتحقيق تقدم في أي مجال من مجالات حياتنا ؟؟

إن المثقف العربي مطالب بامتلاك معرفة في هذا المجال، وبتحويل هذه المعرفة إلى وعي لدى الآخرين، وتحويل الوعي إلى قرار وسلوك وإنتاج وعلاقات عمل وأخلاقيات تعامل، وهذا يحتاج منا إلى عمل مضن، ابتداء من مجالات التربية والتعليم والمناهج وانتهاء بمجالات الإعلام والسياسة ومعايير القيم والتفكير العلمي ومناهجه وأبحاثه واستثمارات تلك الأبحاث ٠

٢ ـ التحدي السياسي - الثقافي - الاجتماعي والاقتصادي، الذي يطرحه الغرب الاستعماري والكيان الصهيوني المتحالفان، على أمتنا ووطننا وثقافتنا ومثقفينا، والذي يتجلى في:

ـ تفتيت الأمة والقضاء على كل أشكال التضامن والتفاهم والتنسيق بين أنظمتها وأقطارها وحكامها، وجعل كل قطر عربي يسعى وراء مصالحه الخاصة مثقلا بأعباء ضعفه، وبنظرته الضيقة ومنفعيته المرحلية، التي تكرس انعزاله وهزاله ومحدودية نظرته وفعاليته على المدى البعيد؛ ولا تجعله يخدم، في نهاية المطاف، سوى مصالح أشخاص وفئات لا مصالح أمة ووطن، وتكرس اعتماده على العدو الصهيوني والغرب الاستعماري في إقامة تحالفات أو تقديم أتاوات لحماية الأشخاص والأنظمة والمصالح، ولو تم ذلك على حساب الوطن والحق والانتماء والعقيدة ومصلحة الأمة وأجيالها ومستقبلها.

ـ فرض الهيمنة الصهيونية على المنطقة العربية من خلال :

أ - تعزيز القدرة العسكرية الصهيونية / تسليحا وتصنيعا للأسلحة وتطويرا علميا وامتلاكا للتقانة، بكل أنواعها / في المجالات : الفضائية والجوية والنووية والبرية والبحرية؛ وإضعاف قوة العرب وقدراتهم في تلك المجالات، وإبقاؤهم في حالتي عجز وتبعية، ومحاصرتهم، ومنع بيع حتى الأسلحة التقليدية لهم، إلا في حالات ضمان كونها : لاستنزاف الثروة وليس لتحقيق أي حسم أو أي نصر في المعارك، أو لمحاربة بعضهم بعضا. وكذلك منع حصولهم على أو امتلاكهم لـ : أية أسلحة متطورة وتقانة قادرة على إنتاج ذلك النوع من الأسلحة.

ب - رفع المقاطعة العربية عن "إسرائيل" وجعل عمقها الاستراتيجي اقتصاديا يمتد ليشمل الوطن العربي كله، واتخاذ أهل اتفاقيات : كامب ديفد وأوسلو - القاهرة، ووادي عربة جسورا للامتداد في العمق العربي بصفة وكلاء ووسطاء " كمسيونجية " يخدمون من يحركهم في تلك الاتجاهات إلى أن

يأتي وقت الاستغناء النهائي عن خدماتهم

والتوجه نحو سياسة ترمي إلى أن يصبح الكيان الصهيوني مفتاح الازدهار الاقتصادي أو الكساد الاقتصادي، من خلال وقوف الغرب والدول الصناعية إلى جانبه، وتواطئه مع الفئات العربية المنتفعة ببيع الوطن والقضايا الكبرى، لقاء البقاء والثراء والنفوذ الأوسع ٠

جـ - التوجه نحو فرض النظام الشرق أوسطي ماليا واقتصاديا وسياسيا وأمنيا وحتى ثقافيا، بما يحمله ذلك من نفي للشخصية العربية - الإسلامية ومقوماتها وقيمها، ولما تسبغه تلك الشخصية من هوية وخصوصية على المنطقة وأهلها، وما يقود إليه الإحساس بالتمايز، الذي تمنحه الهوية والشخصية، من صلات ومواقف وتيارات تفكير وتدبير وتحرير ٠

وجعل أبسط الصلات والمؤسسات العربية القائمة اليوم، ومنها الجامعة العربية، بضعفها وهزال تأثيرها، أثرا بعد عين، إذ هي "جامعة الكراهية"، كما يسميها شمعون بيريس، تلك التي يجب أن تزول ــ حسب رأيه ــ لتحل محلها "الجامعة الشرق أوسطية" حيث " لإسرائيل " متربع ومربع وربيع فيها وموقع قيادي تأسيسي، ونصيب وافر من الهيمنة الشاملة / أمنيا واقتصاديا وسياسيا/.

د - تعزيز نمو قيم المجتمع الاستهلاكي في الوطن العربي، مما يزيد من ضعف الإنتاج الأساسي، وتدهور العلاقات الاجتماعية والأسرية السليمة، والفتك بقيم الفرد وبتماسكه الروحي وصلابته الوجدانية والنضالية. ويؤدي ذلك إلى شيوع الفساد الاجتماعي وقيمه وأساليبه وعلاقاته، ومناخه العام، الأمر الذي يقضي على الفرد والمجتمع، ويغير التطلعات والطموحات والمعايير الأساسية لما هو جيد ونظيف ومقدم في الحياة، وإلى ما هو نقيض ذلك في النظرة الاجتماعية .

وفي ظل مجتمع متهالك متهافت منهار لا يسود إلا الانحلال والسطحية والجهل والتواكل والتخلف الروحي والنفسي، وموات الطموحات والتطلعات الكبرى ٠ وهذا يقود إلى أن يستمر استنزافنا بإرادتنا، وجعلنا مجرد أفواه

وسواعد، نخدم ونأكل، ونكون في خدمة الغير / وهو هنا العدو / الذي يحتل مرتبة الرأس من الجسد، ويأخذ الاهتمامات العلمية والمعرفية والحضارية والتقنية العليا، بينما نبقى نلهث عند عتبة السلم في هذه المجالات .

فهل يستطيع المثقفون العرب استيعاب معنى هذه المخاطر والتحديات والتصدي لها، من خلال رؤية مستقبلية وبرامج تربية وتثقيف وأداء سياسي واجتماعي واقتصادي، علمية وعملية، تهدف إلى تغيير الواقع والتحريض على السير في طريق:

الصمود للإغراء – مقاومة الصدمة – الابتداء من نقاط الانطلاق المفيدة والمجدية – ثم التقدم بثقة على طريق مجاوزة التخلف والضعف والإحباط، والانتقال إلى امتلاك : الإيمان والثقة والعلم والتقانة وكل الإمكانات التي تحقق مشروعا نهضويا ومنقذا، وتضع حدا لمشروع الغير المناقض لمشروعنا ؟ ! .

إن هذا التحدي ليس بسيطا وقد يحتاج – بل إنه يحتاج فعلا– إلى أن نعود إلى المدرسة وننطلق منها بقيم تربوية ومعطيات معرفية وعلمية لنبدأ تكوين الإنسان الصلب القادر على حمل مشروعه وتحقيق ذلك المشروع .

ومن المؤكد أن المدرسة ليست مجرد جدران وإمكانات مادية وإنما هي المعلم والمدرس والأستاذ / إنها الإنسان القادر على صنع الإنسان / وهل يبنى ذلك بغير الثقافة الجادة، والمعرفة العميقة، والحب الكبير للأرض والحق والحرية والحقيقة والإنسان ؟؟

أشك بإمكانية تحقيق ذلك من غير وجود الإنسان المؤهل، وأومن بقدرة الثقافة على تكوين ذلك الإنسان وتأهيله .

وهذا التحدي الكبير ملقى على الثقافة العربية وأهلها، وهم قادرون على التصدي لذلك التحدي، فهل تنهض وننهض بأعباء مواجهة استحقاقاته ؟ ! إنه سؤال مطروح بحدة وشدة .

ومن المسلم به أن رأس حربة التغيير الجذري في هذه المجالات وقاعدته المتينة هو التربية والمناهج والجامعات والبحوث العلمية، ونحن نذكر

أنه في بداية الستينيات من هذا القرن، وبعد أن حقق السوفييت تقدما على الأميركيين في مجالات غزو الفضاء، قرع الرئيس كينيدي ناقوس الخطر، وابتدأ بالمدارس والمناهج، وبعد عقد من الزمن تقريبا تقدم الأميركيون على السوفييت في هذا المجال. وهذا لا ينفي مشاركة الثقافة ودورها وتأثيرها في هذه المجالات جميعا؛ ولكن لا بد من مواجهة سؤال هام هنا وهو :

هل تستطيع الثقافة أن تؤدي دورها فتحرر بالوعي المعرفي، وتنقذ من الخواء الروحي والضلال، وتدفع الإنسان في طريق العلم والحضارة والتقدم بأنواعه؛ من دون أن تنمو في مناخ من الحرية، ومن دون أن تقوم على أسس من احترام الممارسة الديمقراطية ؟!

وهل يستطيع المثقفون أن يحرروا الوعي والإنسان، وأن ينيروا القلب ويخصبوا الروح، من دون أن يحرروا أنفسهم من التبعية والنفعية والإغراض المريض، ومن كل خلل في سلم المعرفة والمعايير والقيم الخلقية والإنسانية السليمة ؟!

أكاد أقطع بأن جوهر الإبداع والفكر هو: قيم رفيعة، وتعلق بالحرية والعدل والحقيقة والقيم .

وأكاد أقطع أيضا بأنه من دون إشاعة المساواة بين الناس، واحترام الحقوق والحريات العامة، لا سيما احترام حق الآخر في الاختلاف تحت سقف ثوابت الانتماء والمواطنة والوطن؛ لا تقوم لثقافة أمة ولمثقفيها قائمة يستند إليها المجتمع ونظام الدولة، فتحرر وتبني وتمارس وجودها الحيوي الذي تحتاج إليه الأمة والبشرية، ولا تتقدمان من دونه أبدا .

ولذلك فإن:

ــ قضية الممارسة الديمقراطية على أرضية الانتماء، واحترام الحقوق والحريات العامة، وربط الحرية بالمسؤولية عن أمة في واقعها ومعطيات ذلك الواقع، وفي تطلعاتها ومشروعية تلك التطلعات، وما يرتبه كل ذلك من تبعات والتزامات ... هو مما يطلب من المثقف

والثقافة رعايته؛ مع التأكيد على أهمية جعل أفق الحرية مفتوحا على مداه، يجدده الوعي المعرفي باستمرار ويساهم هو في تجديد الوعي المعرفي وتعميقه باستمرار، من دون أي نوع من أنواع الوصاية أو التضييق، وصاية مثقف على مثقف وتضييق سلطة على ثقافة ، وإن التعمق في دراسة موضوع : السلطة والحرية، لاسيما في المجال الثقافي، والعلاقة بين السياسي والثقافي من أهم الموضوعات التي تستدعي الاهتمام والرعاية في هذا المجال ،

ـ مقاومة الاعتراف بالعدو الصهيوني وأشكال تطبيع العلاقات معه.

ومن المفارقات التي يواجهها المثقف الملتزم بتلك المقاومة، في هذه الحالة : أنه يبدو وكأنه ضد السلام، أو يراد له أن يبدو ضده، وهو يقدم على أنه كذلك، ومثل هذا الوضع ـ المفارقة التي يبنونها حوله ـ يجعله مرتبكا في بعض الحالات، لأن الثقافة المبنية على مسؤولية خلقية وقيم إنسانية، هي تاريخيا مع السلام، فكيف يكون هو ضده؟!

والتحدي الذي يواجه المثقف في مثل هذه الحالة هو القدرة على التفريق والإقناع بذلك التفريق بين السلام الصهيوني - الإمبريالي المفروض علينا نحن العرب والمرفوض منا عقليا ووجدانيا لأنه ليس السلام، وإنما هو اتفاقيات إذعان تفرض في حالة من عدم التوازن الإستراتيجي بيننا وبين العدو، نتيجة لخلل في الموازين الدولية جراء المتغيرات، ذلك الخلل الذي لا يمكن أن يدوم أبديا على هذا النحو، وبين سلام ينبع من إقامة العدل في المنطقة وإزالة العدوان وأسباب التوتر فيها؛ ولن يتأتى ذلك إلا باقتلاع الاحتلال الصهيوني والقضاء على أشكال العدوان ومظاهره، وعلى رأس ما ينبغي القضاء عليه : قيام سيادة صهيونية في فلسطين العربية ،

وعلينا أن نوضح أن موضوع السلام ليس هو الموضوع الذي نقاومه، وإنما التزييف الفاضح والفادح لكل من مفهومي العدل والسلام معا، وما يفرض علينا من مفاهيم مزيفة وفاسدة بقوة التفسير الدولي للقانون، الذي

تحتكره وتفرضه وتسوقه الولايات المتحدة الأميركية، بامتلاكها القوة وسيطرتها على مجلس الأمن الدولي .

فما يفرض علينا هو اعتراف قهري بحق القوة المعتدية الغاصبة الغاشمة، حقها في الوجود فوق أرضنا على حساب وجودنا، وإقامة دولة وسيادة على حساب دولتنا وسيادتنا. ما يفرض علينا هو إلغاء لقوة الحق التاريخي التي تتمثل في عروبة فلسطين وحق شعبها في العودة إلى كل شبر منها وإقامة دولته المستقلة فوق تراب وطنه المحرر، وإقرار وتمكين لحق القوة العدوانية في الوجود فوق أرض الغير.

وعلى ذلك فان مسيرة الاعتراف بالعدو الصهيوني، وتطبيع العلاقات معه، هي مسيرة مناقضة للحق والعدل ولمصلحة أمتنا وللمبدأ الخلقي القيمي والإنساني العام، الذي تتعلق به الثقافة ويقوم عليه الإبداع الأدبي والفني والفكري؛ وهي مسيرة مكرسة للظلم والظلام والقهر ولسيطرة القوة، وهو ما يتناقض مع نور الحق الذي تهدي إليه الكلمة وتهتدي به الثقافة . والنور والعدل والحق والحرية، سلام بل هي جوهر السلام، لأن ذلك يرسخ الأمن والاطمئنان والسكينة في نفوس الأفراد والجماعات، على أرضية الخلقية حقانية .

فهل نحن قادرون، في المجال الثقافي بمفهومه العميق الشامل، الذي يضم المثقفين جميعا،حسب ذلك المفهوم، من المعلم إلى العالم إلى ذوي الثقافة العامة والثقافة التخصصية ؟! هل المثقفون قادرون على مواجهة هذا النوع من التحدي الكبير الجارف، وهذا التحريف للمفاهيم، والتزييف للواقع والوقائع والمسلمات والرؤى والمعطيات ؟!؟ ذلك الذي تحشد للقيام به وترسيخه وسائل إعلام ومراكز أبحاث غربية وعربية، وتقف وراء ه قوى وسياسات وأجهزة مختلفة، وتدعمه رؤوس أموال كبيرة ؟!؟

هل يستطيع المثقفون العرب تكوين جبهة قادرة على العمل بجدية لتحقيق حضور في ساحة القرار السياسي العربي يلغي اتفاقيات الإذعان؟!؟

وهل المثقف قادر على أن يصرخ في وجه السلطة الغاشمة، أيا كانت

السلطة، حينما يكون معه الحق، وأن يمارس انتماء فعليا للحرية المسؤولة؟!؟

هل المثقف العربي مستعد لمواجهة هذا التحدي بقدراته الذاتية وإيمانه ووعيه التاريخي، وأن يتحمل جراء تلك المواجهة صعوبات وضائقات وتضحيات، تصل إلى حدود إسراج فتيل الدم نورا عند عتبة الظلام ؟!؟

إن هذا الموقف المطلوب لا يتصل بالحق والعدل والانتماء الوطني والقومي فقط، وإنما يتصل أيضا بترسيخ القيم ورفع الأنموذج الأفضل والأسمى، وفتح باب النضال الإنساني في الحياة على مصراعيه، ضد الظلم والعنصرية والعدوان والقوة القهرية، ومن أجل ألا تشوه الحقائق. وهذا باب يديم قيمنا ويبرر نشدانا للوعي والمعرفة والقوة، ويديم العرف والمعروف بين الناس، إذا ما فتحناه بجدية وجرأة وكفاءة !!

فهل المثقف العربي، المدعو إلى مواجهة هذا التحدي، جاهز للمواجهة وقادر على تحمل أعبائها وتبعاتها ؟!؟

إن السؤال مطروح على القادرين على المواجهة والراغبين فيها، في آن معا .

ـــ ومن التحديات المتصلة بهذا الموضوع والمرتبطة به أو الناتجة عنه، قضية تشويه معنى المقاومة الوطنية للاحتلال وجعلها إرهابا وتخريبا . وهذا عدوان على الحق وتشويه للحقيقة واستهتار بالمعرفة وبالقوانين والأعراف الإنسانية والدولية؛ واستهتار فاضح بالتقدم العلمي والحضاري الذي أنتج تلك المفاهيم وأدى إليها .

فكل من يقاوم احتلال الصهاينة لأرضه اليوم من العرب، وكل من يفكر بالتحرر من السيطرة الإمبريالية الصهيونية وبمقاومتها، ويوجه جهده لتحرير الأرض أو الإرادة أو القرار السياسي، أو يقاوم ويكافح للتخلص من أشكال التبعية الفكرية والاقتصادية والسياسية هو مخرب وإرهابي وعدو للمجتمع الدولي ـــ الذي يمثل الولايات المتحدة الأميركية و"إسرائيل" ودول الاستعمار الغربي الأخرى فقط – بعرف القائلين بمقاييسه وتفسيراته.

ومن يريد أن يعود إلى أصالة من أي نوع وإلى مقومات شخصية ثقافية وحضارية أو هوية قومية، أو إلى عقيدته ومقوماتها وقيمها وأصالة تعاليمها وسلامة تلك التعاليم، محكوم بتهمة الأصولية، بمفهومها السياسي المقدم صهيونيا والمروج أميركيا ۰ وقد غدت هذه التهم الجاهزة : (إرهابي – مخرب – أصولي..) تلحق بكل من يرفع راية العروبة والإسلام، راية القومية والدين، راية التحرر من التبعية للآخرين والتمسك بشخصية ثقافية وبهوية متمايزة. ولا يدرك بعض العرب، وبعض المسؤولين من بين العرب على الخصوص ـ أو هم لا يريدون أن يدركوا ـ خطورة هذا الوضع وانعكاساته المستقبلية على المنطقة والأمة؛ بل يشاركون أحيانا في إيجاده وتضخيمه وتعزيزه وتعميمه ۰

كما تشارك عناصر مدسوسة على العروبة والإسلام، أو مشوهة الرؤية لكل منهما، تشارك في ذلك الفعل، وتعطي للصهيونية العنصرية الحاقدة وللغرب المتواطئ معها، ذرائع ومسوغات ۰

ويترتب على المثقفين العرب تغيير تلك النظرة من خلال الرد على كل حملات التشويه والتشكيك الرامية إلى إبادة الوعي وزعزعة الثقة لدى المواطن العربي والأمة العربية، تلك التي تقوم بها الإمبريالية والصهيونية ۰

ولا يكون ذلك إلا :

ـ بمراجعة صريحة وشجاعة ودقيقة للمفاهيم والمصطلحات والمواقف والاعتقادات، على أرضية من الفهم والعلم والانتماء والموضوعية، والنظرة المستقبلية الواعية لذاتها وأهدافها ووسائلها، المتبصرة جيدا بتاريخها وعلاقاتها التاريخية مع الأمم والدول.

ـ بإقامة جسور التواصل البناء بين الثقافي والسياسي والاجتماعي في هذا المجال، بنجاح وتوازن وحكمة.

فهل ينجح المثقفون في هذا العمل ؟؟!

هل يكونون قوة معرفية وجدانية تملك المصداقية والجـرأة وتتصـدى بكفاءة وجدارة، للضخ المعلوماتي المشوه والمشـوه الموجـه إلـى إنسـاننا العربي؟!

هل يملكون المقدرة على جلاء الثوابت القيمية والقومية والعقائديـة التي تميز شخصية أمتنا عن سواها من الأمم، وتمايز ملامـح هويتـها عـن الهويات الأخرى، وتجعلها قادرة على المثاقفة بثقة واقتدار، وعلـى تحقيـق معنى الانفتاح على الآخر باعتزاز ودونمـا خلـل؛ فيصبحـون قـوة تدافـع، بالمعلومة والفكرة والتحليل والأسلوب ونوع الخطاب، عن كل تلك المقومـات والقيم بعلمية ومنطقية وحماسة ؟ أم أنهم سيهابون الأحكام المسبقة والعصـي الغليظة المرفوعة في وجه من يفعل ذلك، وأساليب التعتيـم والتقزيـم التـي يلاحق بها من يتوجه مثل ذلك التوجه؟!؟

وهل سيصمد المثقفون العرب أمام الإغراءات المالية والإعلامية، وأمام إغراء المكاسب وجوائز التلميع، وأساليب التصديـر والتسـويق والـترويج العالمي، ذلك الذي تقدمه الجهات الإمبريالية والصهيونية لكل من يخرج مـن العرب والمسلمين على أمته وعقيدته وبيئته الثقافية، ويترك حقوقه ويـزري بانتمائه لهذه المنطقة من العالم ولمقولاتها وحقوقها ومعتقداتـها وتاريخـها ونضالها ومعاناة أبنائها وآلامهم وآمالهم وتطلعاتهم؟؟!

هذا التحدي مطروح على المثقفين العرب، ومطروح عليهم في الوقـت ذاته التفكير بإيجاد الإمكانات والوسائل، والإبداع في ذلك كله، لمواجهة أشكال التضييق والمنع والقمع الذي تشارك به جهات عـدة، ابتـداء مـن أجـهزة مخابرات التحالف الدولي ضد الشعوب وانتهاء بعناصر السمسرة، والميوعـة الثقافية والإعلامية العربية وأعلامها وإمعاتها، الذين بدؤوا يدخلون " التـاريخ " في عصر التطبيع، من خلال ادعاء الوعي الزائف والتسامح المحمول علـى حق العرب والمسلمين في أرضهم، وبالواقعية الانهزامية التي أخـذت تضـع بيوضها وأجنتها هنا وهناك، وتفرخ فسادا وإفسادا، وانفلاتا وجـهلا، وحقـدا مقيتا يمليه ذلك الجهل وينميه، ويبثه ضد كل من يقاوم تيارا يدعون أنه لـن يقاوم، ومن يدعو إلى بناء الثقة بالذات وبالمستقبل للإبقاء على صلابة روحية

واجتماعية وأخلاقية تحمي ما تبقى لأمتنا، وتؤسس لبناء أجيال وقدرات تمكن من استعادة الحق والدفاع عن الذات .

نعم قد لا ينجح جيل من المثقفين العرب المؤمنين بالتغيير في تحقيق غاياتهم، وقد يكون موج التطبيع والتطويع والتركيع والإذلال والابتذال أكبر منهم؛ ولكن كلماتهم ومواقفهم لن تموت وستبقى شعلة ومصباحا، وزيتا يمد ذلك المصباح من زيتونة نقية، استقرت في الوجدان النقي لعرب ومسلمين وبشر أسوياء يرون ميزة الإنسان في العدل لا في التخلص من كل حمل يثقل وجدان الإنسان وذاكرته بسبب من هدم صرح العدل .

ولا بد أن تهدي تلك الشعلة عقولا وتنير دروبا، فتضيء من بعد ظلمة، وتصيب عدلا من بعد يأس من تحققه، فالكلمة الطيبة نبتة طيبة لا تموت، و(شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء) "النور"(٢٥).

ـــ ومن التحديات التي تواجه الثقافة العربية والمثقفين العرب تحدي إعادة الاعتبار للكتاب والقراءة في ظل الانصراف النسبي عنهما، لا سيما بسبب مزاحمة أجهزة السماع والرؤية المتقدمة، في عصر القنوات الفضائية ووسائل الاتصال الحديثة وزمن المعلوماتية المتدفقة كالسيل .

ولن يتأتى ذلك بمجرد لمسات تعالج سطح المشكلة، إنه يحتاج إلى مراجعة مضنية وقاسية وشجاعة للذات، لما نستند إليه من مستقرات، ولما نملكه من معلومات وأساليب أداء ومناهج بحث، وأسلوب خطاب، وطرائق توصيل وتعبير وتأثير، وما نعالجه من تجارب وقضايا ومشكلات، وما نقدمه من نماذج بشرية في إنتاجنا الإبداعي.

إن جوهر المشكلة هو محتوى الكتاب، ومضمون ذلك الذي نقدمه وفائدته ومصداقيته، ومواكبته للعصر والعلم ومدى الحاجة إليه.

إنه هو الذي ينبغي أن يتوافر فيه ما لا يتوافر في تلك الأجهزة، وأن تبقى الحاجة إليه قائمة على الرغم من تطورها الهائل.

إن المصداقية التي تكتسبها الكلمة بالجهد والتحصيل والعلم والتجربة

والغوص في المعاناة البشرية بعمق، على أرضية الثوابت المبدئية والقيم الإنسانية والخصوصيات البيئية، هي ما يشد الناس ويؤثر فيهم.

إن لما تقدمه تلك الكلمة من رؤية عميقة في الحياة وللحياة، وما تفيض به من مشاعر، في إطار خصوصية تفتقدها الأجهزة المزاحمة وأفلاكها ومرجعياتها المعرفية، هو ما يمكن أن تنفرد به الكتب، والمستويات الرفيعة من إبداع الكلمة .

وأسلوب الخطاب الثقافي العربي هو أكثر وأهم ما يحتاج إلى مراجعة وتدقيق وتغيير، ليكون موضوعيا من دون برود، وعلميا من دون جفاف، وأصيلا عصريا ومستقبليا؛ يتصل بالحياة في واقعها من جهة ويفتق ببصر وبصيرة عوالم الخيال ومنافذ الأمل ويستشرف من جهة أخرى، ينغرس في طين الأرض ومعاناة البشر، ويمتد رؤى وأجنحة نحو السماء لتنير دروبا للروح تجعل قدرتها في تجدد لاستيعاب الواقع ومجاوزة الصعاب والانفتاح على غد آخر وفرح قادم وعمل مثمر؛ أسلوب يؤمن بقدرته على الخلق والتأثير والتغيير، ويقاوم من أجل الحياة والإنسان بعبقرية الإنسان وطاقته، ويتوجه إليه وينطلق منه، ويستند بالدرجة الأولى إلى مصداقيته وجوانيته، وإلى الكنوز القابعة في أعماقه، وأنهار الطاقة التي تحتاج إلى من يفجرها ويستثمرها .

فهل يستطيع المثقفون العرب دخول ميدان هذا الأداء باقتدار؟!

وهل يعطون الزمن في هذه القضية حسابه الدقيق وأهميته البالغة الأهمية ؟؟

إنه التحدي العصري الكبير الذي يتوقف على النجاح فيه إحداث نقلة نوعية في الأداء الثقافي والبشري، وفي مساهمة ذلك الأداء في التقدم الاجتماعي والمعرفي بشكل عام.

ـــ وهناك تحد رئيس آخر يتصل بالبيت الثقافي العربي ذاته، ولا سيما بمن يتعاملون مع الكلمة بحثا وتأليفا؛ ويتصل ذلك التحدي بالتراتبية الثقافية / تراتبية الأشخاص والنصوص / فقد تأثر المشهد الثقافي

العربي، لا سيما في النصف الثاني من هذا القرن، تأثرا كبيرا بالمواقف والأحكام والانتماءات السياسية والأيديولوجية؛ وأصبح الحكم جاهزا على الشخص والنص والمنتج الإبداعي، من خلال الانتماء السياسي أو الرضا السياسي عنه، الأمر الذي رافقته أو انبعثت عنه حملات إعلامية و"نقدية – مع الاحترام العميق للنقد السليم الذي كثيرا ما كان بريئا من ذلك – تقوم على المدح أو القدح، على الإضاءة والتعتيم، التضخيم والتقزيم، بعيدا عن الموضوعية وعن القيم والمقومات الأدبية والفنية؛ الأمر الذي أدى إلى إصابة ذلك المشهد بخلل كبير، حيث تنتشر في سمائه نجوم لا يصمد بريقها لامتحان الأصالة عند الجد، وأثقلت في موائنه شخصيات ونصوص وإبداعات بمراسي ثقيلة، فغرقت أو كادت تغرق في خضم الإيهام والتثريب والاختصام، وأبعدت عن مساحات الرؤية والرأي بفعل الثقافة المصنعة، والجماهير المصنوعة، التي كانت تنقل من قاعة إلى قاعة، ومن ساحة احتشاد إلى أخرى، لتكون بديلا عن الرأي الحق و"الجماهير" الحقة، ويجسد بعد ذلك رأيها في الإعلام فيكون حقائق الإعلام، التي أتت في هذا العصر على كل أثر للحقائق؛ ومما يؤسف له، أننا في السياسة والثقافة والأدب نعيش عصر حقائق الإعلام وليس عصر الحقائق . وهذا الأمر، الذي مازال تأثيره السلبي مستمرا، لا يمكن التأسيس عليه والبناء على أسسه الخربة . وما لم يقم أهل الثقافة بإعادة ترتيب بيتهم على أسس سليمة، ومعايير دقيقة وواضحة وأصيلة، موضوعية وعلمية، يعرضون عليها الأشخاص والأفكار والنصوص لوضعها في إطار تراتبية تقويمية صحيحة، ويقيمون على أساس راسخ من الجدية والاحترام للقيم والمقومات الأدبية والفنية والفكرية، أسس التذوق والفهم والتقويم والحكم والانتشار، فإن تأثير الخلل سيأتي على كل أسس البناء السليم

لقيم الثقافة، وعلى دورها في الحياة وتأثيرها في الناس، وستلحق تلك الآثار ضررا فادحا بمناخ الثقافة وإنتاجها، وبقدرة ثقافة الأمة على خوض معترك المثاقفة بثقة، والبقاء في إطار الحيوية والفاعلية والتجدد .

فهل نرتب بيتنا قبل أن نزعم القدرة على ترتيب بيوت الآخرين، لا بل القدرة على ترتيب برامجهم الحيوية وأهدافهم ودواخلهم وتوظيف قدراتهم، حسب منهج واستراتيجية وبرامج وأهداف قومية وإنسانية عليا؟!

إن ذلك التحدي مطروح بحدة، شأنه شأن ما سبقت الإشارة إليه من تحديات، وعلينا أن نواجه واقعنا وأنفسنا لتبدأ مسيرة مدروسة في ظل الظروف الصعبة، والتطور السريع الذي يجتاح معارف العالم وقدراته وقاراته، وأممه ومجتمعاته.

■———— /// ————■

ثقافة المقاومة ... ومقاومة التطبيع

هناك دعوة في الشارع الثقافي العربي لثقافة تقاوم تطبيع العلاقات العربية مع العدو الصهيوني، وهي في الوقت ذاته، دعوة لنشوء مقاومة، رأس حربتها الثقافة، تضع حدا للانهيار والانهزام في الروح المعنوية العربية، وفي العلاقات العربية ـ العربية على كل مستوى وصعيد. فما هي حدود تلك الدعوة ؟ وما هي الآفاق التي يمكن أن تتحرك فيها ؟ لمن تتوجه، وما هي أهدافها وبرامجها وأدواتها وأساليبها؟ وإلى أي شيء تستند، بعد أن تعرت كثير من القيم والمقومات والتوجهات القومية والتحريرية في الوطن العربي، وفي الشارع السياسي العربي ؟ وما هو التطبيع الذي تقاومه وترفضه، ولماذا تفعل ذلك، وبمن تقاومه وبماذا ؟ وما هي مقومات تلك الدعوة وقيمها ؟ كل تلك الأسئلة لا بد من مواجهتها في هذا الوقت بالذات، أعني الوقت الذي تكبر فيه كرة الثلج وتزداد سرعة وقتامة واتساخا وهي تتدحرج من قمة مدريد إلى حضيض أريحا، حيث لا يوجد على سطح الكرة الأرضية أكثر انخفاضا من أريحا، ليس بالمعنى الجغرافي للكلمة فقط، وإنما بالمعنى السياسي والنضالي، وربما الأخلاقي القومي والوطني أيضا، إلا إذا كان وادي عربة قد نافسها في ذلك سياسيا ؟؟ إن الإجابة على تلك الأسئلة، وتلمس مقومات الأجوبة وأسانيدها وحججها لا يذهب إلى الاعتماد على معطيات : عقلانية ـ منطقية ـ علمية ـ واقعية خالصة، محكومة بالمنظور والمصلحة الراهنين، ذلك لأن تلك الأجوبة لن تغفل عوامل رئيسة منها : الإرادة والإيمان والعواطف والمشاعر، والقوة الروحية، لأمة تحرقها المعاناة، ويصهرها الدرس التاريخي

المر صهرا، يوما بعد يوم، وتجربة بعد تجربة .

اللجوء إلى الثقافة، وإلى المقاومة انطلاقا من الثقافة، بأدواتها وقدراتها، أمر منطقي، وتوجه طبيعي، واقعي وإنساني مجرب، فالوعي الذي تخلقه الثقافة هو الشمعة التي تبدد ظلام الجهل، وتكشف المسالك للناس، والوعي يولد لدى الفرد والمجتمع مناخا روحيا يعزز الإرادة والثقة والإيمان بالذات وبالحق من جهة، ويدفع طاقته على هذه الأرضية إلى التجسد في فعل ناجز، وإبداع متألق في الأساليب والأدوات من جهة أخرى، ويجعله يستفيد من كل ما يقدمه الوعي من قدرة عقلانية وعلمية وسلوكية ليحقق من خلاله أهدافا وقيما أبرزها الوعي ذاته ووضعها في مجتلى عالي المقام من سلم الحياة والقيم والغايات البشرية .

والثقافة هي الحصن الأخير الذي تلجأ إليه الشعوب والأمم والمجموعات البشرية المتمايزة والمتميزة للدفاع عن نفسها وحقوقها ومقومات حضورها النوعي، وعن نوع ذلك الحضور بين الأمم والشعوب والمجموعات البشرية الأخرى ؛ وهي السلاح الاستراتيجي الذي تدافع به أمة من الأمم عن هويتها وقيمها ووطنها وعقيدتها وسيادتها وحقوقها التاريخية، وتعمل من خلالها على تكوين الفرد والإرادة والمناخ الاجتماعي الملائم والسلاح الفعال وكل ما يمكن من الدفاع عن النفس والحق والممتلكات، وما يساعد على تأكيد الحضور النوعي واستمرار النمو والتطور .

وحين نقول بدور أساس للثقافة تنطلق منه المقاومة، وبمقاومة تكون منطلقاتها الثقافة، فإنما نركز، في النتيجة، على دور العقل والوجدان والإيمان معا، وعلى دور الكلمة والروح، المعرفة وطاقة الإبداع، في تجليات الانتماء البشري لأرض وعقيدة وأمة، في حالة من التوهج والاندفاع الأقصى، دفاعا عن الحياة والحرية والكرامة والحق والوجود النوعي والقرار الحر والسيادة . ومن الطبيعي أن يستنفر الفرد والشعب الطاقات المختزنة كلها عندما يتعرض هو أو ما يملك للتهديد الجزئي أو الكلي . والمثقفون الذين تعنيهم الدعوة، وتتوجه إليهم، وتزعم أنها ستنطلق منهم وبهم، هم أولئك الذين يشكلون طاقة الوعي والإبداع والفهم والفعل العلمي الناجز، استجابة للتحدي وتعبيرا عن

الوجدان العام لأمة ومجتمع ووطن يتكثف تاريخه ووجوده في بوتقة توقد تحتها النار .

إنهم كل تلك الشرائح البشرية التي تشكل طليعة في الرأي والرؤية واستشعار الخطر واستشراف المستقبل، والتي تستطيع، بالمعرفة والخبرة والمبادرة، أن تتلمس طرق الخلاص، وتحقق الانتصارات في المعارك التي تخوضها المجموعة البشرية التي تنتمي إليها وتمثل تطلعها أو طموحها.

إنهم أهل الكلمة والرأي، والأساتذة والمعلمون، والمبدعون في مجالات الفن والتربية والتعليم، وذوو الثقافة التخصصية العالية في المهن الرفيعة، والساسة المناضلون المجربون، وأهل الخبرة الرفيعة في ميادين الحرب والسلم، ممن يقودون شعوبهم بطاقات إبداعية عالية وثقة واقتدار في معارك البناء والدفاع والتقدم، وهؤلاء جميعا هم المعنيون بالنهوض بالأمة، وبمنع انهيار كيانها وبنيانها، وباسترداد حقوقها وحضورها، وببقائها في حالة تفاعل خلاق مع الأمم والشعوب ضمن تيار الحياة؛ وهم بالتالي الذين تتوجه إليهم الدعوة وتعنيهم القضية قبل سواهم. وانطلاقا من ساحتهم ومن مبادراتهم وتضحياتهم وأفعالهم وأقوالهم المسؤولة، تبدأ إنارة شموع على عتبات الظلام، لتبدأ مسيرة قهر الظلم والظلام معا .

أما حدود تلك الدعوة فهي تتسع وتضيق حسب الجهد والمجتهدين وحسب توافر مناخ العمل، وتوسيع فسحة الأمل، ولا بد من انطلاقة ضيقة الاتساع أولا في كل قطر أو حتى في كل مدينة عربية، لا تلبث وأن تتسع دوائرها وتتلاقى لتشكل بتلاقيها تيارا يشكل خضما يستعصي على الحصر والقهر . .

ويكون تشكل تلك الدوائر على أساس المشترك الذي يجمع ولا يفرق، ويوحد الصف والموقف والرؤية، ويضع الطاقات في تيار عمل واحد خدمة لأهداف واضحة،ليكون من بعد ذلك توسع في نقاط الالتقاء وتركيز للمشترك، وتوسيع لرقعة الأرض العامة التي تلتقي عليها الإرادات .

والسبيل إلى ذلك : الحوار على أرضية احترام حق الآخر في الاختلاف، ولكن تحت سقف القيم والأهداف والمصلحة العربية العليا التي تشكل نهج التحرك وتحدده، في هذه الظروف . وقد حدد ذلك بشكل جزئي ودقيق ميثاق المثقفين العرب الذي أصبح الآن يجمع حول أهدافه ونقاطه المشتركة عددا لا بأس به من الكتاب والمبدعين والمفكرين في الوطن العربي.

وإذا كنا سنحصر الحديث هنا في مقاومة التطبيع، ولأننا نرى ترامي عرب عليه من سياسيين ومثقفين وتجار، ولأننا نريد أن نتلمس طريقنا إلى مواجهته، بوصفه المنتج السياسي والاجتماعي الذي يراد تسويقه الآن، ولأنه يشكل ثغرة لا تلبث أن تكبر في سلسلة تشكل قوام الدرع التي نصوغها ونتمسك بها ـ أعني : ثغرة في موقفنا من الصراع العربي الصهيوني، وهو صراع رئيس بالنسبة لتلك الدعوة الموجهة إلى المثقفين والمتجهة بهم وبقوتهم واختيارهم والتزامهم إلى المستقبل ـ نريد أن نصوغه بالجهد والوعي والعلم واستقراء التجربة، لنحفظ حقوقنا التاريخية، ونستعيد حضورنا الفاعل في التاريخ المعاصر.

فالصراع العربي الصهيوني هو، في نظر تلك الدعوة، صراع وجود، هكذا كان وهكذا نريد له أن يستمر، إلى أن يستعيد العرب حقهم التاريخي في فلسطين، ويلغوا المشروع الصهيوني من أرضهم، إذ هو المشروع النقيض لمشروعهم القومي والحضاري والوحدوي، وقد أقيم ليمنع تقدمهم وحضورهم الفعال، وليبقيهم قيد الاستعمار والاستثمار والاستلاب والاغتراب .ولأن الصراع العربي ـ الصهيوني يتحول في ضوء نظريات التطبيع، ونظرات دعاته ورموزه ومسوغيه، إلى نزاع على حدود، آخذ بالتلاشي بين " كيانات " لها الحق في البقاء على أرض " مشتركة "، ولا بد لها من " تسوية خلافاتها " بالطرق السلمية والحوار ... الخ ... لأن ذلك كذلك، فإن الدعوة الموجهة من أجل "ثقافة مقاومة التطبيع " هي في جوهرها دعوة لإبقاء الصراع العربي ـ الصهيوني مستمرا بصفته صراع وجود، إلى أن يتحقق حسم تام وشامل ونهائي للقضية الأساس، قضية عروبة فلسطين، التي هي قضية قومية بالدرجة الأولى ؛ وإلى أن يعود الشعب العربي الفلسطيني، كل الشعب العربي

الفلسطيني، إلى أرضه ليمارس فوقها سيادته ويقرر فيها مصيره بحرية تامة بوصفه جزءا من أمته العربية .

ويرتب هذا التفريع الجزئي للموضوع أهمية خاصة لمعنى : رفض الاعتراف " بإسرائيل "، ورفض تطبيع العلاقات معها، ورفض الحقيقة السياسية " العربية " أو شبه العربية التي تقول بحق " لإسرائيل " في المنطقة، لأن هذا الذي يجري في وطننا العربي اليوم يتم تحت وطأة القهر والإحباط وشبه الهزيمة المعنوية، كما يتم بتأثير الإغراء والابتزاز، وفي ظل أجواء بعيدة عن الممارسة الشعبية التامة للحقوق والواجبات والحريات .

ولذلك لا بد من أن يرتفع صوت الثقافة والمثقفين عاليا بموازاة صوت السياسة والسياسيين ليقول باستمرار الصراع العربي الصهيوني،وبرفض الاعتراف بالعدو وتطبيع العلاقات معه، إيمانا بحق الشعب العربي في وطنه، ويقول كذلك برفض الوعي العربي للهزيمة، ورفض اقتطاع جزء من وطن الأمة بقوة القهر، ولمنع الإقرار بمشروعية الاغتصاب أو شرعيته، إلى أن تتغير الظروف والمعطيات والتوازنات العربية والدولية .

إن التطبيع الذي ترعرع اليوم في الذهن العربي ويغزو الوجدان، ويمارس تحت شعار " الواقعية " بأشكال مختلفة، في السياسة والإعلام والاقتصاد والسياحة والتجارة و " الثقافة "، هو ثمرة الإقرار السياسي العربي بالأمور الآتية ، أو مؤشر على ذلك النوع من الإقرار بها، وهي :

١ ــ سقوط نظرية تحرير فلسطين . ومن ثم سقوط مقولة الصراع العربي الصهيوني، والحق العربي بفلسطين، أو بالجزء الأعظم منها.

٢ ــ سقوط نظرية المسؤولية القومية : سياسيا وأخلاقيا وتاريخيا، وحلول المسؤولية القطرية الخالصة محلها . وهذا يعني أنه لم يسقط البعد القومي للقضية الفلسطينية فقط ــ من وجهة النظر تلك ــ وإنما سقط البعد القومي لأية قضية عربية؛ ولم يعد هناك أي التزام من أي نوع حيال حق عربي مشترك، وموقف عربي مشترك، وعمل عربي مشترك، وقضية عربية

مشتركة . وهذا يتضمن الإقرار " السياسي " شبه النـهائي باندثـار الأحـلام الوحدوية والقومية، وبحلول التجزئة النهائية في الوجدان الجمعي محل أيـة قيمة أخرى، حتى على الصعيد النظري وصعيد الحلم .

٣ـ تسليم العرب /سياسيا على الأقـل / بـأن " لإسـرائيل " الحـق التاريخي في الوجود كدولة من دول المنطقة، التي أخذت تغير اسـمها : مـن المنطقة العربية، أو الوطن العربي، حسب تسميات أهلها علـى الأقـل، إلـى منطقة " الشرق الأوسط " حسب تسليم أهلها على الأقل أيضا . ويتضمن هـذا إقرارا بأن أية مقاومة للكيان الصهيوني في فلسـطين هـي مقاومـة غـير مشروعة عربيا، لأنها تتعارض مع الإقرار العربي بحق "إسرائيل" في الوجـود . ومن ثم هي لا تنضوي تحت اسم المقاومة الوطنية للاحتلال من أجل حريـة الشعب وتحرير الأرض، وإنما تقع تحت مسميات : الإرهاب والعنف والعـدوان ... الخ .. مما كانت تقوله "إسرائيل" والغرب سابقا، ومما يقـول بـه أولئـك الآن.

وهذا يتضمن حكما أخلاقيا ـ تاريخيا ضمنيا على النضـال العربي، السابق والحالي والمستقبلي، الذي يتم على طريق تحرير فلسـطين، ويوحي بضرورة تغيير التقويم والقيم والتاريخ وفق ما تريده "إسرائيل" ومـا يسود من روح انهزام قومي على المستوى العربي .

٤ـ سقوط كل الحجج والمبررات والأسباب التي تفرض على العربـي، أيا كان وأينما كان، أن يقاطع "إسرائيل" . لأنه حسب ذلك المفهوم، يعادي بـلا معنى، ويقاوم من دون حق؟؟! وهذا التوجه يسحب البساط " قوميا وإنسـانيا وأخلاقيا " من تحت أقدام المناضلين والمقاومين، سواء في داخـل فلسـطين المحتلة أو في خارجها، ويغير نوع الحكم على المقاوم والشهيد في آن معـا، فينقله من مقاوم ذي مكانة واجتهاد وجهد شرعي وتشريعي وإنساني مقبـول ومقدس بنظر شعبه والناس، إلى معتد مذموم لا شرعية معه ولا تشـريع ولا مرجعية أخلاقية له، وليس هو الشهيد بل المقتول بعدوانه على الآخرين .

وهذا يتضمن " تجريما " باسم الأهل والوطن والشرائع لمن يقاتل من " أضفى "، بقوة القهر والاغتصاب والمكر، شرعية علـى عدوانــه واغتصابــه وسرقته لوطن الغير وقهره لهم . ولا تنحصر خطورة هذا المنطق فـي هـذه القضية التاريخية وحدها ــ على أهمية ذلك ــ وإنما تمتد تلك الخطورة، فـي الوجدان الجمعي والفردي، لتطال أي نضال مستقبلي ضد قوة ظالمـة قـاهرة تعنو لها الرقاب، لأن المقاتل ــ في ظل هذا التشويه للقيم والمعايير والأحكـام ــ سوف يصنف خارجا على القانون، ولأن حدود القيمة بين الخـير والشـر، الظلم والعدل، الحق والباطل، سوف تزول، وتتبدل المعايير والأحكام تبعا لحكم القوة، لا لقوة الحق .

٥ــ سيادة مفهوم عربي قطري نفعي ضيق إلى أبعد الحـدود، يحكـم الأقطار والأنظمة والأحزاب والتوجهات العامة، وينتقل إلى التربية والتعليم، ثم إلى التاريخ والاجتماع والثقافة والأدب، ويجعل ذلك المفهوم مـن كـل تطلـع قومي صادق متجاوز للمصلحة القطرية الضيقة نوعا من خيانة وطنية، كمـا يجعل كل التزام قومي مبدئي، يعلي الشأن العام على الخاص، ــ القومي علـى القطري ــ نوعا من عمالة لدولة ولنظام عربي آخر . وسوف يترتب على ذلك أن تذوي نهائيا بذور الاهتمام والتواصل القوميين، وكذلـك النضـال والعمـل العربيين على كل مستوى وصعيد،وأن تشل المصلحـة العربيـة العليـا بكـل مقوماتها وقيمها وأبعادها وآفاقها، ويضمحل حتى التضامن العربي الشـكلي الهزيل.

ومن شأن ذلك أن يطلق العنان للارتماء في أحضان القوى التي تحمـي دويلات وأنظمة وشخصيات تبحث عمن يحميها ، لتخوض " حربـا" مطلـوب خوضها " ضد من كان " الأخ " وأصبح الجار العدو ؟؟ ولتطبق شعار : ضـع يدك بيد القوي واسحق الضعيف .

والتطبيع على صعيد آخر سوف يعني أيضا :

١ ــ إزالة كل الحواجز، المادية والمعنوية، التـي كـانت تجعـل مـن "إسرائيل" كيانا غريبا عن المنطقة منبوذا منها، ليس له مستقبل فيها ولا حياة

ولا حق. الأمر الذي فتح ويفتح الآمال العراض أمام الكيان الصهيوني وأطماعه وطموحاته، فيمكنه من التوسع الشامل، أفقيا وشاقوليا، ماديا ومعنويا، في غزوه للعرب، وفي التأسيس لمراحل قادمة من مشروعه المستمر : "إسرائيل" الكبرى ثم "إسرائيل" التوراتية، جغرافيا واقتصاديا وأمنيا، حسب الإمكان .

وهذا يعني عمليا : توفير كل مقومات الحياة الطبيعية لجسم غريب زرع في جسم كان يرفضه، وتمكين هذا الجسم الغريب من التغذي والنمو على حساب الجسم الأصلي ؛ إنه تطعيم تام لشجرة بطعم يغير ثمرها وهويتها، ويجعل جذرها القوي يخدم طعمها الذي يزيدها هجنة .

٢ ـ إلغاء كراهية العدو المغتصب، أو إلغاء مسوغات تلك الكراهية مع استمرار الاغتصاب، وتقديم العدو كصديق طال مدى " ظلمه " و " سوء فهمنا له " ؛ بل إن البعض يذهب إلى حدود " الشفقة على "إسرائيل" العنصرية لأن العرب تأخروا في فهم حقها ومشروعية وجودها ؟؟! وأن عليهم أن يكونوا حضاريين، وأن يذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك الاعتراف البارد .

٣ – تحويل جهد بشري ـ عربي كبير، من العمل على تكريس حقائق تاريخ العرب والتاريخ الموضوعي للمنطقة، وتربية الأجيال على تلك الحقائق وتهيئتها لاستعادة حقوقها، تحويل ذلك الجهد إلى العمل على تشويه حقائق التاريخ وتثبيت التاريخ المشوه، والعمل على زرع المعطيات " الجديدة "

على أنها " قناعات "، مع ما يرافق ذلك من ضخ معلومات ملفقة، وما ينتج عنه أو يحدثه من خلل روحي ووجداني ـ خلقي عام، يؤسس لتشويه تكوين أجيال وتطلعاتها وطموحاتها وقيمها، ويؤدي إلى انعدام الثقة، وضياع المفاهيم والقيم والمعايير ومعالم الشخصية والهوية.

٤ ـ خلق مناخ ملائم تنمو فيه تربية مريضة وعلاقات مريضة، وهيمنة للعدو، وقبول بحالة العدوان . مما يرسخ إحساسا بالدونية، وإحساسا بانعدام الكرامة، ويروج لها بأسماء مختلفة . أي إشاعة حالة من الكذب على الذات لا تلبث أن تكرس ازدواجية الوجه والقناع في حياة الناس، وتحل قيما

وسلوكا سيئا محل قيم وسلوك طيب فيهم . وهذا الجرثوم الفتاك من جراثيم الفساد لا يلبث أن يفتك بالمقومات السليمة للنفس والفرد، ومن ثم بعلاقات المجتمع وقيمه، ثم بالمجتمع ذاته، ملغيا ما يمكن أن يكونه أو أن يحققه.

٥ ـ خلق طفيلية مالية تنشأ بسرعة، وتؤثر بسرعة وتنشر قيمها بسرعة أيضا، وتصبح عنوانا للمجتمع الجديد أو "الشرق أوسطي" حسب التعبير المطلوب ترويجه ؛ طفيلية تقدم "أنموذجا يحتذى" من قبل الآخرين، وهو أنموذج فاسد مفسد لا يقيم قوام الناس على أساس من العمل السليم أو التوجه السليم .

وسوف يكون هذا و سواه أفضل الأحزمة الأمنية التي تقيمها "إسرائيل" ـ من خلال التطبيع ـ حول نفسها، لأنها ستفتك بالإنسان ذي القيمة الخلقية، والصلابة الروحية، والانتماء العربي، والنقاء العقيدي، تفتك به لأن ذلك النوع من البشر، بتلك النوعية من التربية والتكوين والصفات، هو الذي يمكن أن يستذكر حقا ويكون حوله موقفا ثابتا صلبا ويدافع عنه . و"إسرائيل" تعمل لتحل محله ذلك الأنموذج الذي يجسد الفساد والانحلال والاغتراب التام عن الأرض والشعب والتاريخ والعقيدة والثقافة.

ولن يكون صعبا على "إسرائيل"، التي يفوز فيها دائما أنموذج /شايلوك/ المرابي اليهودي الحاقد على الآخرين، وأنموذج باروخ غولدشتاين الإرهابي العنصري الذي قتل المصلين في الحرم الإبراهيمي وهم ركع سجد لله ؛ لن يكون صعبا عليها أن تستعيد المال ممن لم يتعبوا في الحصول عليه، وذلك بالطرق المعروفة لديها والمجربة من قبل عناصرها وعنصرييها .

إن التطبيع فضلا عن كونه تسويقا "لإسرائيل" وتسويغا لها عربيا، رسميا وشعبيا، هو في النهاية نخر شامل للبنية الفردية والجمعية العربية التي قامت عليها تربية العقود السابقة، ورفض لتلك التربية التي كان في مقدمة أسسها وأهدافها تكوين إنسان مؤمن بقدرته على استعادة أرضه المغتصبة ومكانته تحت الشمس، وتحرير ذاته وإرادته وقراره من الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، ليستعيد حضورا وكرامة، وليتمكن من بناء مشروعه الحضاري،

وليتقدم في مناحي الحياة على أساس من الانتماء والاعتزاز والاقتدار والتمايز الخلاق .

إنه دفن لمشروع الإنسان العربي ـ المسلم الذي يحفظ حق الوطن وحرمته، وحق الإنسان وحرمته، وحق الله وحرمته . إن الدعوة إذ تتجه إلى رفض التطبيع مع العدو الصهيوني، بعد رفض الاعتراف به، انسجاما مع استمرار مفهومنا للصراع العربي الصهيوني على أنه صراع وجود مع وجود وليس نزاعا على حدود، تعتمد على المثقفين في انطلاقتها، بسعة ما يحدده المفهوم الشامل للثقافة، وتعتمد على الوعي المعرفي في تثبيت ذاتها وتوسيع رقعتها، وعلى الإرادة الخلاقة المستندة إلى العلم والعمل به ؛ من أجل خلق مناخ يساعد على توظيف الجهد البشري العربي توظيفا سليما لتحقيق أهداف استراتيجية ـ حيوية لا تتحقق إلا بتعزيز مقوماتها وتركيز قيمها في النفوس، وتهيئة الإمكانات اللازمة ـ ماديا وتقنيا ـ لتحقيقها . فما هي تلك الأهداف ؟

من المنطقي أن يكون حسم الصراع العربي الصهيوني لمصلحة العرب هو ركيزة تلك الأهداف ومحصلتها النهائية، وهذا لا يتحقق إلا بتحقق نقلة حضارية نوعية، توفر وعيا معرفيا وعلميا كبيرا، ونقلة نوعية في السلوك والممارسة، وامتلاكا للتقانة المتطورة، واستعدادا شاملا، لدى كثرة من الناس، لخوض ذلك الصراع بثقة وإيمان ثابتين بالحق وبإمكانية تحقيق النصر ؛ وتوظيف طاقات وإمكانيات كبيرة جدا لتكون في خدمة تلك الأهداف .

ومما لا شك فيه أن هذا سيؤدي بالضرورة وبشكل آلي، إلى نهضة شاملة في جوانب الحياة والعمل المختلفة، أي أنه سوف ينعكس على الفرد والأسرة والمجتمع، وعلى مؤسسات المجتمع المدني والدولة، وكذلك على أسلوب العمل والتعامل، وعلى الحقوق والحريات العامة والممارسات الديمقراطية، وعلى أسلوب تداول السلطة وتوظيف الطاقة البشرية، وإبداع المبدعين لتحقيق الأهداف العامة للمجتمع، التي يتداخل أمر تحقيقها مع الأهداف الاستراتيجية ـ الحيوية ؛ أو لا يكون إلا بها ولا تكون إلا من خلال تلك النهضة .

ومعنى هذا أن انطلاقة المثقفين ودعوتهم لمقاومة التطبيع ولرفض الاعتراف بالعدو الصهيوني، هي في الوقت ذاته دعوة لرفض التخلف والواقع المريض، ولرفض الطغيانية والفساد والقطعانية المفروضة على أبناء العرب في أقطارهم، ورفض لأساليب العمل والتعامل السائدة، ولانتهاك الحقوق والحريات العامة، ولكل ما يؤدي إلى قهر الإنسان أو ظلمه أو تغييب دوره وحضوره وإبداعه ؛ ومن ثم فهي دعوة للعلم والعمل والإيمان على أسس مغايرة للسائد، ودعوة للاستفادة من كل تجارب الماضي، ولا سيما تجارب سنوات الصراع مع العدو الصهيوني، والسنوات الماضية من هذا العقد التي زلزلت الكثير مما كناه وبنيناه، وصولا إلى استخلاصات تترجم إلى برامج تثقيف وتربية وتعليم وعمل، وإلى أساليب أداء وممارسات اجتماعية وسياسية وتثقيفية وإعلامية، تساهم في خلق المناخ الجديد والإنسان الجديد وأسلوب التواصل والتعامل الجديدين المجددين .

والسؤال السريع الذي ينهض هنا هو: هل نبدأ من الصفر؟

أقول بكل بساطة : بشكل مطلق : لا، ولكن بشكل أساس في بعض المجالات نعم، ولن نبدأ بكل شيء دفعة واحدة، فالمهم الأول هو أن نرفع الصوت الآن برفض الاعتراف بالعدو ورفض تطبيع العلاقات معه، وأن نعمل على تصليب موقفنا وتعزيز إرادتنا، كما نعمل على هذا البرنامج الرئيس بالذات من دون أن نهمل العمل في المجالات الأخرى على برامج أخرى .

وقبل الدخول في مجال تلمس برنامج العمل الملح، لا بد من مواجهة سؤال ملح هو الآخر: على أي شيء نستند في دعوتنا، والمجرب لا يجرب ؟ وما هي المعطيات التي تدفعنا إلى خوض التجربة في الوقت الذي نرى فيه ثقل السياسة العربية التي تحكم الشارع العربي لا يمضي في هذا الاتجاه بل العكس هو الصحيح ؟!؟

إن نقطة الاستناد الأولى هي : حقانية ـ أخلاقية، فعروبة فلسطين ليست ادعاء ولا وهما ولا نوعا من التطلع التاريخي الحالم أو الطموح القومي المريض أو السلوك العدواني أو الشوفيني، ففلسطين، عبر تاريخها، هي أرض

أقوام من العرب العموريين / الغربيين / الذين عرفوا باسم الكنعانيين، ومن تشعب منهم، وتسمى بأسماء مشتقة من الموقع أو العمل أو سوى ذلك مما هو معروف في تاريخ الأسماء والتسميات . ولم تكن فلسطين يوما لليهود حتى بعد مجيء أقوام منهم إلى فلسطين وقتالهم للكنعانيين وغلبتهم لبعض الوقت على بعض المدن . إن فلسطين عربية عبر آلاف السنين وعبر تكوينها السكاني، ولا يشكل تاريخ العابرين والمستعمرين لها تاريخا أو يكون لها هوية ولونا وانتماء غير هويتها العربية ولونها وانتمائها العربيين . وحين يتم اغتصابها والتواطؤ على قهر شعبها وتشريده، وتمزيق الأمة العربية صاحبة الحق فيها، فلا يعني هذا نهاية تاريخها العربي ولا نهاية التاريخ بالنسبة للعرب ؛ فقد تم قبل ذلك دور استعماري طويل للصليبيين دام مئتي سنة ثم استعاد العرب حقهم ووطنهم / فلسطين/ ولم يعترفوا بالهوية الصليبية الاستعمارية لفلسطين، ولم يتنازلوا عن أرضهم ولا عن مقدساتهم، والأمر ذاته ينبغي أن ينسحب على المواجهة المعاصرة .

والهزيمة المعاصرة لعرب اليوم أمام المشروع الاستعماري الاستيطاني الصهيوني والاستثماري الغربي / "إسرائيل" / ينبغي ألا نعدها نهائية وأبدية ولا مخرج منها ، كما ينبغي ألا تجرنا إلى التنازل عن الحق، وعما يعنيه الحق عبر التاريخ، وما يملكه من بعد أخلاقي عند الأفراد والشعوب والأمم والأوطان.

أما نقطة الاستناد الثانية فهي طريق الشهادة، وطريق الشهادة ننظر إليها هنا في اتجاهين لكل منهما امتدادات وتفرعات كثيرة وكبيرة، والأول منهما يساعد على جلاء معالم الثاني.

ـ الاتجاه الأول يذهب من حدود الحاضر نحو الماضي بشقيه : الماضي القريب : وتحدد بدايته (افتراضا تعسفيا) ببداية الشهادة على طريق الخلاص من الاستعمار والتحرر من التبعية المباشرة، وببداية الشهادة على طريق القضية الفلسطينية في إطار الصراع العربي الصهيوني، ونجد زخم ذلك كله في هذا القرن العشرين، ويتصاعد ابتداء من العشرينيات منه.

الماضي البعيد : ويضرب مداه في عمق التاريخ، حيث تمتد مواجهات الأمة العربية دفاعا عن وجودها وحقوقها، ونشرا لعقيدتها وحضارتها، وهي مواجهات في مجالات الحرب والسلم جميعا مع أمم شتى، بأشكال شتى . وكل ذلك يقدم دليلا ساطعا، واستقراء واضحا للتاريخ يبين أن الأمة قدمت تضحيات لا حدود لها، وبسخاء منقطع النظير، لكي لا تذوب أو تزول أو تركع . نعم كانت تنهزم في بعض المعارك ولكنها لا تسلم نهائيا بأنها المهزومة إلى الأبد، ولذلك كانت تستأنف القتال والصراع من أجل الحق والحضور والكرامة .

والشهادة في منظورنا للماضي القريب، لا سيما في الشق المتعلق بالقضية الفلسطينية وبالصراع العربي الصهيوني، تقدم لنا سجلا حافلا بالعطاء، ولا يمكننا التنكر له أو دفنه في ظلام الذاكرة . فالشهداء الذين قضوا على طريق القضية الفلسطينية ليسو أغبياء ولم يكونوا من المغرر بهم، وليسو بلا قيمة، ولم يستشهدوا على مذابح ليست طاهرة ومن أجل قضايا تافهة أو عابرة أو جائرة، ولم يساقوا من قبل الحكام على طرق ظلم وظلام، حتى نطلب منهم الغفران وننساهم ونتجاوز عنهم وعن كل ذلك المسار الذي عبدوه بالدم .

الشهداء على طريق فلسطين والصراع العربي الصهيوني، مواطنون لهم أسر وأطفال وتطلعات وحقوق وأحلام، وقد استشهدوا في سبيل قضية عادلة، حسب كل المقاييس والمعايير والشرائع والقوانين، ومن أجل هدف مقدس يرتبط بحق الأمة العربية في أرضها ومقدساتها، وبحق الشعب الفلسطيني في وطنه وسيادته وكرامته ؛ ومن أجل مشروعنا القومي وأمننا وبقائنا . ولأن القضية عادلة والهدف مقدس، وحق الشعب لا يموت، ولأن الدم الذي سفك على طريق تحرير الأرض والإنسان ليس ماء، وليس بلا ثمن، ولم يهدر خطأ أو ظلما أو عبثا، فلابد من متابعة الطريق حتى تتحقق أهداف الشهداء، وتعود فلسطين لأهلها ولأمتها، عربية الوجه والانتماء واللسان والسيادة . والشهداء هنا يحكمون وجداننا ولا يمكن تجاوز حقيقة أنهم ليسو مما يساوم عليه أو يتجاوز عن تضحياته . والشهادة في هذا المنحى أو هذا الاتجاه، من منظورنا إليها، تسجل حضورا لها في الوجدان الشعبي العربي،

وفي أعماق الاعتقاد، ويسيطر منطقها على كل منطق يريـد أن ينبذهـا أو أن يتجاوزها، لتصبح دافعا نحو مزيد من العطاء والتضحية والشهادة، فهي، مـن هذه الزاوية، دافع لاستمرار تيار المقاومة، ورافد لنهرها المتدفق، وحجة على الانهزاميين والاستسلاميين .

ويعزز الماضي القريب الذي أشرنا إليه، الماضي الممتد عبر التـاريخ، وهو زاخر بالشهادة والمقاومة من أجل الأمة وعقيدتها وحقوقها ومقدسـاتها عموما، ومن أجل فلسطين وعروبتها والقدس ومكانتها عند العرب والمسلمين على وجه الخصوص .

ـ أما الاتجاه الثاني فيمضي من الحاضر نحو المستقبل، وهـو اتجـاه نحو استمرار التضحية والشهادة من أجل تحرير الأرض والإنسـان وعـودة الشعب العربي الفلسطيني إلى وطنه وتقرير مصـيره فـوق ترابـه الوطنـي المحرر، في إطار انتمائه لأمته . وهذا اتجاه مستقر، في تقديـري ؛ ويشـير استقراء الماضي بشقيه، القريب والبعيد، وتاريخ الشهادة ومعانيها، ومكانـة فلسطين في الوجدان الجمعي، كل ذلك يشير إلى أن التضحيـة علـى طريـق التحرير الشامل، واستمرار الشهادة ليتواصل نورها عبر تاريخ الأمة، إمكانيـة قائمة في النفوس إذا ما صدقت القيادة الرسمية، واستقامت على تلك الطريـق، طريق التحرير، ووظفت الطاقات والإمكانات البشرية والمادية توظيفا صحيحـا في طريق البناء والتحرير .

الشهادة نقطة استناد وإسناد فاعلة، ومستند فعلي وتاريخي بعطاءاتـها وقدراتها واستعداداتها المستقبلية، وهي في قداستها وطهارتـها وخلوصـها الكلي النقي للأهداف والقضايا النبيلة، حقيقة واقعية لا يمكن القفز فوقـها أو إغفال حضورها وتأثيرها في مجالات صنع القرار وتنفيذه.

ونقطة الاستناد الثالثة : هي عدم إقرار جماهيرنـا العربيـة بالهزيمـة النهائية، وعدم اقتناعها بأن لليهود حقا في فلسطين، واستعداد تلك الجمـاهير للتضحية من أجل مواصلة الصراع مع العدو الصهيوني إذا ما رأت جدية فـي التوجه نحو ذلك، ومبدئية صلبة في المواقف، وإخلاصا وصدقا واقتدارا مـن

قبل القيادات العربية في هذا المجال .

ولأن الجماهير كانت ولا تزال خارج دائرة المشاركة الفعلية في صنع القرار واتخاذه، إذ هي مكرهة على أن تكتفي بالفرجة، وتستهلك ما يقدم إليها، حتى لتكاد تشارك في تسويغ ما يقدم إليها من خلال سلبيتها التي طالت بسبب من ممارسات الأنظمة العربية على الجماهير، وتهميش دورها ذلك التهميش الذي يتسع ويزداد، وتراكم الإحباط لديها، وما يضخ في كيانها من كلام ومعلومات ومواقف ومعطيات مثبطة للهمم، لا تساعد على بناء مواقفها، واستعادتها لحضورها الفاعل، ومبادراتها الإيجابية الخلاقة، وقرارها الحاسم .

وحين يحتكم إلى الجماهير، باحترام لها ولقرارها، ويؤخذ فعليا بتوجهها الجذري العام، وتوضع سياسة وخطط وبرامج للوصول بها إلى ما تتطلع فعليا إليه، وما يترجم إرادتها إلى أفعال، انطلاقا من توظيف عطاءاتها وقدراتها، تنفيذا لإرادتها وقرارها؛ فإن طريق المقاومة واستمرار الصراع مع العدو الصهيوني لا يلبث أن يضيء ويبقى مفتوحا وممدا بزخم عظيم . فالجماهير العربية لم تقر بأنها خسرت الصراع مع الصهاينة، بل تعتقد بأنها لم تخضه بشكل جاد وحاسم وسليم ؛ وليس من الإنصاف الحكم على غائب ومغيب من خلال وكلاء عنه ثبت أن كثرة منهم تتواطأ ضده، وتتاجر باسمه، وتقبض أجورها منه ثم تبيعه في السوق كبضاعة بعد أن تتهمه بأنه ليس أهلا ليدافع عن نفسه، وليس له حق يدافع عنه (؟!؟) .

إن الجماهير العربية ما زالت نقطة من أهم نقاط الرهان إسنادا للحق العربي، واستمرار الصراع العربي الصهيوني مع العدو وصولا إلى ذلك الحق.

أما نقطة الاستناد الرابعة : فهي حقيقة أن الأوضاع العربية الراهنة، بما تحمله من تفكك وتشرذم وتناحر وتخل عن روح الصراع وتفريط بالحق جراء عوامل عديدة، ليس هنا مجال التفصيل فيها، وكذلك المتغيرات الدولية القائمة في عالم اليوم، بعد سيطرة قطب واحد عليه وهيمنته على شؤونه ؛ إن هذه الأوضاع العربية والدولية، ليست بالضرورة قدرا، وأنها سوف تستمر إلى الأبد .

فالأوضاع الدولية لن تبقى إلى ما لا نهاية محكومة بالمصلحة الأميركية ـ الصهيونية، إذ أن الصراع على المصالح والنفوذ لا يلبث أن يخرج إلى الوجود قطبا أو أقطابا في الساحة السياسية الدولية، ولن يكون هذا من دون تأثير على الأوضاع والقضايا العربية . ومن جهة أخرى لن يستمر الركود في الوضع العربي الراهن إلى ما لا نهاية، ولن ترين إلى الأبد على سطح الحياة العربية سموم وشحوم وزيوت تمنع تسرب الهواء إلى الأعماق، وتقيم حاجزا بين الشعب والحياة، وبين الأعماق وتجدد الانطلاق الحي ؛ فهذا كله مناقض لقوانين الحياة التي تقوم على الصراع ولا تعرف التوقف، فكل شيء يتجدد، وتستمر عملية التغيير المحكومة بقانون الحركة كما يستمر الصراع الذي يقوم بين الأحياء تطبيقا لقوانين الحياة . ولن تكون الأمة العربية استثناء من قوانين الحياة واستقراءات التاريخ في هذا المجال .

وحين تستعيد الجماهير العربية حضورها ومبادراتها وقرارها فلن تبقى الأوضاع العربية المتردية الراهنة على حالها، ولن تستمر حالة التراخي والتراجع والإحباط، فدورة الحياة تحكم دورة الحضارة وتؤثر فيها، والصعود الحضاري يدفع باتجاه نوعي لمعنى الحياة .

وسوف أحاول فيما يلي تلمس بعض ملامح ثقافة المقاومة وثقافة التطبيع :

<u>ثقافة المقاومة : تعمل ثقافة المقاومة على :</u>

١ - أن تجدد في الذاكرة قيم النضال والأدب الذي حمل قيمه، لتكون فلسطين في الوجدان وفي الذاكرة وفي صلب الرؤية المستقبلية العربية من خلال التربية والإبداع معا .

٢ - رفض كل ما يؤدي إلى تغيير هوية المنطقة وهوية سكانها، فهي منطقة عربية ـ هويتها القومية واضحة، للوطنية فيها وجه قومي وللقومية فيها وجهها الوطني، لا فصل فيها بين العروبة والإسلام، والثقافة العربية الإسلامية فيها هي أساس التكوين والقيم، بفهمنا للثقافة العربية الإسلامية

على أنها ذلك الجذر القديم للثقافة العربية منذ السومريين والأكاديين وما أضافه أبناء الديانات السماوية الأخرى / اليهودية والمسيحية / من عطاء ثقافي هو في صلب الثقافة العربية الإسلامية .

٣ - استلهام النماذج الوطنية المناضلة في الحياة السياسية والفكرية والأدبية العربية المعاصرة، ورفع الأنموذج القدوة في الوعي والعمل والإنتاج وتكريسه في الوجدان القومي .

٤ - التصدي للمحاولات المحمومة التي ترمي إلى تقديم الأدب والفكر والعمل الإبداعي الذي اقترن بالقضية الفلسطينية ودار في محورها واستلهم الكفاح على طريقها وكل ما اتصل بالصراع العربي الصهيوني ؛ ترمي إلى تقديمه على أنه أدب انتهى دوره وحضوره وتأثيره بعد اتفاق أوسلو ـ والحكم الذاتي في غزة وأريحا واعتراف بعض الفلسطينيين "بإسرائيل" وبحقها في البقاء .

وإظهار حقيقة أن هذا الجهد المحموم هو فعلا مدخل ثقافة التطبيع التي لن تقوم إلا على هدم ثقافة المقاومة ومرتكزاتها وإسقاط رموزها وإلغاء تأثيرها، وبيان أن كل ما قدمته آل إلى السقوط وانتهى تأثيره في تاريخ الأدب والفكر وحركة الإبداع ؛ وانتهى تأثيره الجماهيري والتاريخي .

إن تلك مغالطات كبيرة تقف وراءها جهات إعلامية وسياسية واستخباراتية قوية مهمتها تشويه صورة الكلمة ونضالها وصورة أبطالها وكل ما قدمته على طريق المقاومة، وجعل كثير من الكتاب المناضلين يتوبون، أو يتنصلون من مواقفهم ومن إبداعاتهم على طريق المقاومة الثقافية، وفي إطار الثقافة المقاومة لروح الانهزام والاستسلام، والداعية إلى التحرير والتقدم .

وهذا أيضا مدخل لتغيير القيم النضالية وتشويه فترة من التاريخ وأجيال من البشر من أبناء الأمة العربية، تمهيدا لزعزعة التكوين الراهن وصولا إلى تقديم وإنعاش صورة مغايرة يحاولون غرسها في الأذهان ويروجون لها من خلال ثقافة الاستهلاك ـ ثقافة التطبيع ـ ثقافة التسوية والتنازل عن الحق

والذات والصفات، وصولا للتنازل عن الهوية بعد أن تم التنازل عن الحقوق والأوطان.

٥ ـ التأكيد على البعد القومي للقضية الفلسطينية وعلى الشمول القومي للثقافة العربية، وتواصل ذلك مع الأصول من جهة ومع الواقع المتطور المتغير من جهة أخرى .

ورفض الثقافات القطرية والسياسات الثقافية القطرية التي تحاول أن تشوه تاريخ الأدب، وترفع قيما نضالية ضيقة الأفق غامضة الأغراض زائغة الرؤى، تقيم من العربي خصما للعربي وتلغي العدو الحقيقي : الصهيونية والغرب المتصهين في شراكتهما لإقامة المشروع الاستعماري ـ الاستثماري الاستيطاني الصهيوني واستمراره على أرضنا وضد شخصيتنا الثقافية ووجودنا الفعال .

٦ – التأكيد على البعد الإنساني للثقافة المقاومة فليست هي ثقافة الإرهاب والعنف المجاني والفوضى المهلكة، ولكنها لا تقبل أبدا أن يصبح الاحتلال مقدسا ومقاومته جرما وإرهابا، ولا يمكن أن تقبل تلك الصورة التي تقدم للمقاومين والثائرين والمناضلين من أجل حرية الأرض والإنسان في منطقتنا وتحريرهما من الكابوس الصهيوني، على أنهم : مخربون وإرهابيون ومتمردون وخارجون على القانون !؟!

إن تصحيح الصورة التي بدأت تنشر عن المقاوم، سواء في جنوب لبنان أو في فلسطين المحتلة، وتقدمه على أنه خارج على الشرعية والقانون وحدود العمل الإنساني، هي من أولى المهام الملقاة على عاتق ثقافة المقاومة وأولها في المرحلة الراهنة، وتصحيح تلك الصورة ليس أمرا يسيرا ، فهي صورة مشوهة بعناية ودراية وتصميم مدروس، وراءها المستعمرون والصهاينة وقوى الاحتلال والذين ارتبط مصيرهم باستمرار الاحتلال، ووراءها أيضا أولئك الذين يريدون لجم الثورة الشعبية في الأراضي الفلسطينية المحتلة والإمساك بزمام الأمور ليثبتوا للصهاينة والأميركيين أنهم أهل للثقة وأنهم قادرون على وضع حد للانتفاضة وضبط الشارع العربي الذي عجزت "

إسرائيل" عن ضبطه ؛ ومن ثم فإنهم يستحقون مراكزهم كما يستحقون الثقة التي منحهم إياها العدو والغرب الاستعماري ليكونوا شرطته وأدواته وعصيه الغليظة في المنطقة، وكذلك جسوره الاقتصادية والثقافية والأمنية نحو الوطن العربي، وأدواته للسيطرة عليه مستقبلا بعد تفتيت قوامه القومي وقيمه وتماسكه النضالي وتشويه أهداف المناضلين وتاريخهم كله وثقافتهم .

٧ – إن ثقافة المقاومة مطالبة بتغيير أسلوب خطابها من جهة، وبإعادة النظر بوسائلها وأدواتها من جهة أخرى، ليكون الخطاب الذي تبناه منطقيا علميا واقعيا مسؤولا، والوسائل ممكنة والبرامج واضحة . كما أنها مطالبة بالدرجة الأولى بتحديد معالم الإنسان الذي تدعو إلى تكوينه، والمجتمع الذي تريده، والأهداف التي ترتادها والسبل التي تراها ملائمة للوصول إلى تلك الأهداف .

ثقافة التطبيع :

المداخل إليها :

أولا : في المجال السياسي الثقافي العام :

أ – زيادة مساحة الإحباط واليأس العربيين، وإظهار أن العرب لم ينتصروا في معركة، وأن هذا الصراع الطويل مع العدو الصهيوني قد كلف الكثير من دون أدنى جدوى . وأن المنطق "الواقعي " يقتضي إعادة النظر بكل ذلك على أرضية : أن القضية لن تحل إلا بتسوية يكون فيها " لإسرائيل " حق الوجود والبقاء، وكأن ما بين العرب و" إسرائيل " من سرقة وطن وتشريد شعب هو موضوع قابل للتسوية !!

ب – إظهار أن الصراع العربي الصهيوني لم يعد منطقيا بعد أن مال العالم كله إلى خيارات الشراكة من أجل السلام، وانتهت الحرب الباردة، وانتهى وجود معسكرين يتناحران، كما انتهى الأمل بعمل قومي ناجز على أي مستوى أو صعيد، لا سيما بعد انتشار حالة انعدام الثقة عربيا .

ج – المتغيرات العربية والدولية أظهرت أنه لا مجال لامتلاك سلاح أو قدرات عسكرية نوعية، يمكن بواسطتها حسم الصراع عسكريا مع " إسرائيل " لصالح العرب، كما أظهرت أن مزاج العالم لم يعد ميالا للحرب . (؟!)

وعلى ذلك فإن الصراع لم يعد قائما بالمعنى الاستراتيجي، وأن الحلول البديلة هي حلول سلمية، وأن الغاية الرئيسة أو الأهداف الاستراتيجية قد تغيرت فلم يعد تحرير الأرض الفلسطينية بكاملها هو الغاية النهائية وإنما استعادة الأرض المحتلة عام ١٩٦٧ مع الاعتراف بحق " إسرائيل " في الوجود .

وهذا يستدعي :

١ – التفاوض

٢ – الاعتراف

٣ – التطبيع

٤ – تغيير صورة العداوة .

٥ – وتغيير الكثير مما كان من استراتيجيات الماضي. – ويعني بالدرجة الأولى قبول مبدأ تغيير هوية المنطقة ليغدو لإسرائيل " مكان فيها، ودور في أمنها ومستقبلها .

وعلى هذا فإن قيما جديدة لا بد أن تنشأ – من وجهة نظر أولئك الدعاة – لتعطي الإنسان والمجتمع والعمل البشري في هذه المنطقة أهدافا وسبلا جديدة بأدوات مغايرة ونيات مغايرة لما كان سائدا . وذلك يستدعي تغييرا جوهريا في قيم وتوجهات وأهداف وسلوك وأساليب تفكير وتدبير وعمل، أي في ثقافة وتربية ومناهج وأهداف سياسية واجتماعية، وطنية وقومية ؛ كما يستدعي تغييرا في الاستعدادات النفسية لقبول معطيات الجغرافيا الراهنة وما يستتبع ذلك من معطيات تطال تغييرا في التفكير والتاريخ ؛ ومن الطبيعي – من وجهة النظر تلك – أن يتم تداول مصطلحات جديدة بدلا من مصطلحات سابقة على ثقافة التطبيع، أقدم هنا بعض الصيغ المتقابلة منها :

- الصراع العربي الصهيوني	- النزاع العربي الإسرائيلي
- تحرير فلسطين من البحر إلى النهر وتكريس عروبتها .	- اقتسام فلسطين مع العدو والرضا بجزء منها مع تحالف فلسطيني إسرائيلي يبقي الهيمنة لإسرائيل فلسطينيا وعربيا .
- العدو الصهيوني .	- الجار الإسرائيلي والشريك في التنمية والأمن والمصير .
- الوطن العربي - أو بلاد الشام	- الشرق الأوسط .
- السوق العربية المشتركة	- السوق الشرق أوسطية
- العمل العربي المشترك	- العمل في إطار تحالفات دول الجوار، وهي في حقيقتها تحالفات أميركية مع دوائر عربية تبقى متناحرة وذات برامج خاصة متنافرة . فأميركا تشرف وتتعاون مع : ١ - الخليج ٢ - الأردن والفلسطينيين وإسرائيل ٣ - مصر
- الوحدة	- التجزئة التامة الشاملة العميقة الجذور، مع تأكيد أن الوحدة : هوس - وهم - أحلام تجاوزها العصر والزمن .

ثانيا - في الأدب : وأنا أذكر هنا المقولات التي يقدمها دعاة التطبيع من دون تفنيد لها أو تقديم ردود عليها .

أ - إحداث قطيعة مع التراث تحت شعار التجديد والعصرنة ورفض السلفية الكامنة في " الأوراق الصفر " .

ب - الدخول في حداثة / على علات ذلك الدخول ومن دون تمييز بين حداثة وحداثة، / لأن مجرد تبني الحداثة هو تبن للعصر (؟!؟) ورفض

لأوهام الماضي من وجهة نظر الداعين إلى ذلك .

ج – إعلان موت الأدب المرتبط بالقضية الفلسطينية والأدب المقاوم كله والملتزم، لأن العالم تغير، والرغبات والتوجهات لدى القراء تغيرت، ولم يعد أحد يقبل على ذلك النوع من الأدب الذي لم يفقد فقط مسوغات وجوده بل فقد كل تأثير وحضور له .

د – الإعلان عن أغراض واهتمامات جديدة للأدب، وعن موضوعات جديدة للإبداع تستقطب اهتمام المبدعين مغايرة لما مضى، فالأغراض الجديدة لا صلة لها باستلهام النضال القومي أو التحريري، فلم يعد هناك توجه قومي أو هم قومي، كما لم يعد هناك قضية تحرير، فكل ذلك من أوهام الماضي . فالأغراض الجديدة ليس لها صلة بإعلاء قيم مثل : البطولة ـ الوطنية ـ التضحية من أجل الآخرين : بل هي في إطار نوع فردي أناني ـ نهلستي من الأداء الأدبي والفني .

هـ – بطلان قيم خلقية في ظل الفساد المستشري، وقيم روحية في ظل المجتمع الاستهلاكي، الذي تطغى ماديته على كل شيء فيه.

و – إفراغ الإنسان من كل اهتمام عالي المستوى على الصعد : الوطنية ـ القومية الإنسانية، وإجباره على اللهاث وراء الغريزة ـ والمصلحة الفردية الضيقة ـ والمتعة العابرة ـ والاهتمامات الرخيصة؛ والبحث عن خلاص فردي خاص ولو كان ذلك على حساب الآخرين والمثل والأوطان .

ز – ضرب كل مفهوم للتضامن الجماعي والمسؤولية الجماعية وللحلول الشاملة مشكلات شرائح اجتماعية ووطن وأمة.

ح – الإرهاص بتوجهات فنية وأدبية : غامضة ـ ضائعة ـ فوضوية ـ متعالية بجهل ـ هلامية الأدوات والأساليب والرؤى والأهداف – يائسة ـ مهزومة ـ تنظر إلى المستقبل والممتع على أرضية الحلم الفردي والخلاص الفردي .

ط – الإعلان عن هزيمة البطل في الأدب وهزيمة القيم، والموضوعات السامية ؛ والتركيز على موضوعات الجنس وصور الانحلال والفساد بعيدا عن

روح النقد البناء .

ي – النداء بواقعية : "انهزامية" في العمل والنظر للمستقبل والحياة والسلوك والتفكير، ولكن لهذه الواقعية طعم الهزيمة وعقم الإحباط، وعلينا ــ من وجهة النظر تلك ــ أن نستمرئها ونستسلم لها، ونأخذ بقداستها وسيطرتها وصحتها ؟!!.

وستمهد لهذه الثقافة قوى وأجهزة وسلطات تقوم بتهيئة المناخ الملائم لانتشار مقولاتها وتهافت مقولات سواها، وتسخر لخدمتها الأموال والمنابر، وتصنع من أجلها العصي الغليظة التي تضرب بها الآخرين وتفتح بأقوالها المحفوفة بهالات مصنعة جيدا ومخدومة جيدا دروبا لذلك النوع من التوجه والتفكير والإنتاج .

وفي هذا المجال سيكون الهم الأول ــ أو الدور الأول ــ لسلطة الحكم الذاتي الفلسطينية، وللأنظمة العربية التي تتعهد بتطبيع العلاقات مع العدو، التأسيس لتوجهات ثقافية عامة وتربوية خاصة هدفها التحكم بتكوين الأجيال الصاعدة تكوينا مغايرا في قيمه ومعاييره ونماذجه العليا وسلوكه وممارساته لكل ذاك الذي كانت تقوم عليه ثقافة المواجهة وأهداف التحرير والعمل القومي في إطار الصراع العربي الصهيوني بمفهومه الجذري وأهدافه النهائية والأساليب التي تؤدي إلى تحقيق تلك الأهداف .

وسيكون الهم المباشر لتلك السلط، ولا سيما من خلال توجيه وسائل الإعلام والثقل الثقافي المباشر (ندوات ــ خطابات ــ محاضرات .... الخ) هو السيطرة على الأجيال التي عرفها العالم باسم (جيل الغضب ــ شباب الانتفاضة ــ أطفال الحجارة ... الخ) . وإخال أن الدوائر الثقافية ومراكز الأبحاث التي تعمل في هذا المجال، مشغولة إلى ما فوق آذانها، وبتنسيق مع أجهزة الاستخبارات المعنية، بوضع الخطط للتحكم بعقول وإرادات ومنطق شباب انفلتوا من قبضة العطف الأسروي نفسه والقيد الاستكاني للواقع البائس، وانطلقوا شراة يبغون الحرية أو الشهادة ــ التحرير أو القبر، ينشدون الخلاص من جهنم العدو وحلفائه أو استخلاص الجنة بالشهادة .

وينبغي ألا نستهين على الإطلاق بقيمة الجنة ومعانيها وإيماءاتها وما يستنفره مدلولها في النفوس من استعدادات كبيرة للتضحية عندما تذكر الشهادة والجنة .

إن الأنموذج المطلوب، انطلاقا من استعداد لتقديم مشروع مارشال ثقافي للمنطقة، هو أنموذج الإنسان العاطفي، المشدود إلى الرفاهية، المأخوذ بمعطيات الاستهلاك، المسمر إلى وقائع الحياة اليومية وإغراءاتها وشجونها وتفصيلاتها، والذي يزين له التعلق بالراحة بعد التعب، والتعلق بشكليات الحياة لا بروحها ومعانيها وسمو مكانة الإنسان فيها وسمو مكانة الحرية في تلك الحياة . الإنسان الذي يكفر بكل نضال وبكل مناضل يقوده إلى « متاهات جديدة »، بعد أن تاجرت به الدكاكين السياسية طويلا، وأذهله سقوط مناضلي فنادق الخمس نجوم، وجعله كل ذلك على استعداد تام لتغيير طريقه بعد أن سدت النماذج الفاسدة، في السلوك والعمل والنضال، كل طرق الخلاص والأمل أمامه .

ومهمة ثقافة التطبيع الآن أن تحيي في ذاكرته صور البؤس والفساد تلك وتوظفها توظيفا سلبيا، وتطمس الصور المشرقة للنضال والتضحية ابتداء من بطولات انتفاضات الشعب الفلسطيني قبل عام ١٩٤٨ وانتهاء ببطولة (زكارنة وعمارنة) في العفولة والخضيرة .

إن ربط عنق المقاتل وساعده إلى الرغيف، والدفء المزيف، والأحلام اللازوردية، والنضال المؤسساتي في إطار الحكم الذاتي وآفاقه والتزاماته وتحالفاته والقيود التي تكبله ؛ سيكون هدف الثقافة التي تقتحم ميدان التطبيع رافضة ذاتها وذاكرتها وتطلعاتها السابقة، بائعة كل شعاراتها ومنطلقاتها وقضاياها ومواقفها ومبدئياتها .

وستعمل ثقافة التطبيع من خلال رموزها وخططها على أن تكون جسرا مفتوحا بين الكتاب والمثقفين " الإسرائيليين" وبين الوسط الثقافي العربي وقرائه وعقول أبناء الأمة، وستحرص على أن تصور ذلك وتقدمه للناس على أنه النضال " الواعي الواقعي" بعد أن تسبب العرب بالهزيمة، وأجبروهم على

أن يحصدوا نتائجها ... فما فعلوه وما حصلوا عليه ما هو إلا خلاصة لهزيمة العرب وللواقع الراهن الذي يعيشونه(؟!؟).

إن منطق الاستسلام لا يعجز عن التماس المسوغات المنطقية المستقاة من الواقع والمدعومة بالوقائع، ولكن منطق المقاومة وصولا إلى الحق وإلى واقع أفضل ـــ ذاك الذي ينبع من الإيمان بالحق والقدرة على تجسيده ـــ كان وما يزال وسيبقى، هو الذي يبدأ منه تغيير الواقع والثورة على كل ما يلحق بالإنسان والحق والقيم والشعب من مهانة وذل واستخذاء ؛ وهو الذي يعبد طرق الشعوب إلى الكرامة شبرا شبرا ومترا مترا . ويحتاج هذا المنطق اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى تبنيه والدفاع عنه والانطلاق منه بثقة وأمل .

ـــ إن ثقافة التطبيع ستكون مزودة بزهو « الواقعية » وبدعم وسائل الإعلام وهالاته الجذابة، وبدفقات من المعلومات والأموال قد تكون بلا حدود، لا سيما في المراحل الأولى، وسوف تستقطب أسماء لها تأثير وتاريخ، وسوف تصنع أسماء وتلمع أخرى ؛ وتزين أدبا وفكرا وتروج له، وتشوه آخر وتعتم عليه بكل الوسائل . وسوف تعمد إلى استغلال كل التطلعات المرضية والنجومية لدى كثيرين لتضعهم في شباكها، وسوف تلجأ إلى تقديم خدمات حقيقية لبعض الأشخاص وبعض التوجهات، ولكنها لا تفعل ذلك أبدا خدمة للحقيقة أو لقيم الأدب وثقافة الشعب وقيمه ومبادئه، ولا من أجل أصالة الثقافات وحماية لتمايزها وتفاعلها الخلاق في إطار التنوع الذي يغني الحضارة، بل تفعل ذلك خدمة لتوجه فكري وثقافي يخدم مصالحها ويقوي(٢) تيارها ويرسخ قيمها الانهزامية ويجعل من برامجها وأهدافها وأساليبها قدوة وأنموذجا يحتذى، لأنها تريد أن تصبغ عالم عرب اليوم بصبغتها .

<u>ـ إن ثقافة التطبيع سوف تركز على :</u>

١ ـ السلام : ومن الذي لا يعشق السلام ؟! إذن من يقاوم ذلك الذي يعشقه ؟ ولكنها لن تركز على مفهوم السلام ومبدئيته واستقراره واستمراره

---

[٢] ـ نفذ (زكارنة) عملية العفولة في ١٩٩٤/٤/٦ ونفذ عمار عمارنة عملية الخضيرة في ١٩٩٤/٤/١٣ ثأرا لشهداء مذبحة الحرم الإبراهيمي في الخليل.

بالعدل والحق والكرامة .

٢ _ وعلى إزالة حالة البؤس والفقر التي خلفها الاحتلال في الأرض المحتلة، والتي خلفها استمرار الصراع العربي الصهيوني واستحقاقاته وتكاليفه ؟ ومن الذي يهوى البؤس والفقر واستمرار حالة عدم الاطمئنان، والبقاء في حالة انعدام الوزن والاستنزاف المستمر ؟ ومن الذي يرغب في استمرار البؤس والفقر ومخلفات الاحتلال ؟!

ولكنها لن تركز على التضحية من أجل الوطن والأرض والحرية، ولن تلتفت إلى بؤس أولئك الذين سيبقون خارج الوطن محرومين منه ومن نعمة الاستقرار في أرضهم بعد طول نفي وغربة وتشرد، ولن تركز على لحمة الشعب ووحدته في الداخل والخارج، ولا على أحقية كل فلسطيني في العودة إلى وطنه وبيته، وأن ذلك من واجب الجميع مهما امتد النضال وارتفع ثمنه .

٣ _ وسوف تركز ثقافة التطبيع الكلام على إنعاش المجتمع وإيجاد فرص عمل للعاطلين عن العمل وعلى حل مشكلات الشباب، والبحث عن بدائل ملائمة لأوضاع ضاغطة تخلق أزمات وتطورها ؟ ومن الذي يستطيع أن يدافع عن البطالة والأزمات وعن حالة الضياع التي يستشعرها الشباب في أقطار الوطن العربي؟!

٤ _ وثقافة التطبيع سوف تركز أيضا على حقائق منها :

* أن العداء لا يمكن أن يدوم إلى الأبد .
* وأن الأموات ينبغي ألا يحكموا الأحياء دائما ويتحكموا بهم .
* وأن الإنسان أفضل من الأرض .
* وأن المرونة تحقق للشعوب وللأفراد تجاوز العقبات والعواصف والأزمات ... إلى آخر ذلك مما تزخر به "الحكمة" .!

وسوف تغيب تلك الثقافة حقائق ومعطيات جوهرية في حياة الأمم، وفي الوضع الحالي الذي يسود منطقتنا، وفي جوهر صراعنا مع العدو الصهيوني، ومن تلك الحقائق والمعطيات :

آ _ أن تنازل الأمم عن حقوقها التاريخية، يزري بتاريخها كله، ويطمع الآخرين بها، ويؤسس لاضمحلال شخصيتها وكرامتها وحضورها الفاعل بين الأمم، ويجعلها قادرة على ابتلاع الإهانة وتسويغ الذل، والتماس الأعذار لأقبح الهزائم والتنازلات وحالات الاستسلام .

ب _ أن الوضع الذي يسود منطقتنا وأمتنا ليس قدرا ولن يدوم أبدا، وأن استقراء تاريخنا وتاريخ الأمم يشير إلى استخلاصات مغايرة لاستخلاصات الانهزام والإحباط والقبول بمستوى حياة وأفق تفكير يجعلان من لقمة الخبز الممزوجة بجرعة العار : سعادة وطموحا وغاية عليا ومحافظة على الحياة والوجود وهو مما يحمد ويطلب ؛ بينما جوهر الحياة هو نوع الحضور فيها، ونوع الوجود مرتبط بالكرامة والفعالية واستقلال الذات والإرادة والقرار ؛ واستشعار السعادة يكون في الحرية وليس في التبعية، وفي الاتحاد بالوطن فوق ترابه والجهاد من أجله وليس في التنازل عنه والسكوت على سرقته واغتصابه من قبل الغير والرضا عن ذلك كله لأن استرداده سيكلف غاليا !؟!

ج _ أن صراعنا مع " إسرائيل " ليس صراعا بين جارين قديمين يختلفان على مصالح وحدود ومنافع ولا بد أن يسوى ذلك الصراع عملا بقانون الحياة واستمرار الجوار وانتصار منطق العقل، بل هو صراع بين العدوان الأسود والدفاع عن الحق والأرض والذات، وهو صراع بين العنصرية البغيضة في سطوة قوتها، وبين ضحاياها الذين يرفضون التمييز والخضوع لقهر القوة . وهو صراع بين السارق والمسروق وطنه وأمنه وسعادة أبنائه وحقهم في الحياة، وهو صراع بين الجلاد والضحية بكل ما يمثله ذلك الصراع من قيم وما له من تاريخ في حياة الأمم والأوطان والأفراد، وما يعمل ذلك الصراع على استقراره واحترامه وصيانته من حقوق وتطلعات مشروعه، وما يملكه من مشروعية خلقية وقانونية وإنسانية تقوم على شرعية حقوقية ودينية ودولية وشعبية.

د ـ إن صراعنا مع " إسرائيل " هو صراع الشعب من أجل وطنه وقراره الحر، وتقرير مصيره، وسيادته فوق أرضه، وانتمائه الحر لثقافة وأمة وعقيدة وحضارة . وهو صراع ضد الاستعمار والتبعية بكل أشكالهما، وضد

الهيمنة والاستغلال والاستلاب بكل صورها .

فهل هذه أمور تخضع للمساومة وتنطبق عليها التسويات، ويمكن أن يسود بين المتخاصمين من أجلها وعلى أرضيتها وئام وتعاون وسلام؟!؟ أم أنها أمور لا تحلها إلا الانتصارات الحاسمة، ولا تقود إلى حل لها إلا الاستعدادات لمقاومة مستمرة إلى أن يستعاد حق ووطن، وتنتصر روح وقيم، ويسود فوق أرضه شعب، ويستقر في الأفئدة أمن من جوع وخوف !؟!

إن هذا النوع من الصراع أشبه بصراع الخير والشر أو هو جزء جوهري في تكوين الخير وركن من أركانه، لا سيما إذا عرفنا أن اليهودي، بوصفه عنصريا حسب تكوينه التلمودي وممارسته الصهيونية، هو شر متحرك وحرب دائمة على " الغوييم "، وهو شايلوك الذي يريد أن يقتطع اللحم مقابل المال من جسد " غريمه أنطونيو " ليقتله بذلك ؛ هو رابين الذي يكسر العظام بحقد أعمى، وبيغن أو شامير أو شارون لأنموذج الإرهابي الذي يمارس أبشع أنواع الإرهاب ثم يفتري متهما الآخرين بالإرهاب، وهو باروخ غولد شتاين الذي يقتل المصلين الركع السجود في الحرم الإبراهيمي المقدس وفي رحاب أمان الله وأمن العبادة .

هـ ـ إن ثقافة التطبيع سوف تعمل على نسف كل القيم الثورية والنضالية والقومية والوحدوية من نفوس الناس وتاريخهم وذاكرتهم، لأنها تريد أن تقطع الصلة مع ما كناه بوصفه جزءا من العالم الذي انتهى، والحرب الباردة التي حسمت، والمشروع الماركسي أو الشيوعي الذي انهار، والحلم القومي الذي طواه النسيان بعد أن " اتضح " أنه الوهم وليس الحلم، والاشتراكية التي هزمتها الرأسمالية ... إلى آخر ما هنالك من " مهزومات " ارتبطت بالمتغيرات الدولية أو نتجت عنها، ولحقت بالحياة العربية أو نتجت عنها أو ألحقت بها .

وسوف تكون لذلك النوع الكاسح من الغزو للذاكرة والوجدان والواقع المعيش، بمكنوناته ومكوناته، سوف تكون ترجمته أو إسقاطاته وانعكاساته في الأدب والفكر و الثقافة، وفي الحياة إجمالا .

فالتطبيع في وجه من وجوهه هو :

أدب وفن وفكر وثقافة في خدمة مشـــروع معـاد لمشـروع أمـة أو مصالحها أو أهدافها الاستراتيجية ؛ إنه في وضعنا يوضع في خدمة "الشـرق أوسطية " بصيغها : الثقافيـة ــ السياسـية ــ الجغرافيـة ــ الاقتصاديـة ــ والأمنية ؛ يوظف لتفتيت الشخصية الفردية والجماعية ولتخريب القيم والعقول والنفوس والإرادات، ولتشكيك المرء بأمته ومستقبله وثقافته وحضارته ولغته وعقيدته، ويقود إلى التردي في اليأس والإحباط والتفسخ، وإلى موت الطموح والإرادة وروح المقاومة وروح الحياة الجميل .

وهو يقدم صيغة مناقضة للهوية العربية للمنطقة وفيها، صيغـة نافيـة لها، ترمي إلى أن تكون تاريخا على حساب التاريخ، وأن تنهي تاريخا لتبـدأ تاريخا آخر، يقوم على إعادة توظيف المعلومات والوقائع والأحداث بما يخـدم ما يراد صياغته للمنطقة من تاريخ .

وهذا يستدعي ــ من وجهة نظر القائمين على التطبيع والمؤمنين بـه والعاملين من أجله ــ توظيف طاقات ثقافية وإعلامية كبيرة، وإعادة النظر في كثير من المصطلحات والقيم والثوابت المبدئية والخلقية والقومية، ليتسنى لهم تحقيق الأهداف المنشودة.

كما يتطلب شن حرب من دون هوادة، وبكل الوسائل الممكنـة، علـى المجتمع ومن خلاله، لتغيير صورته بتغيير اهتماماته وقيمه وأهدافه، ونخـر ذاكرته ووجدانه وتراثه وتاريخه، وإلحاق الانحلال بأفراده والرخاوة بعنـاصر المقاومة فيه، والفساد بأطره العامة والخاصة .

– فلسطين بنظر ثقافة التطبيع : قضية ميؤوس منها، وليس بالإمكـان أفضل مما كان، وعروبتها وهم، ولليهود الحق في البقاء على جـزء منـها ؛ وما دام الفلسطيني قد قبل بالحل المطروح فلماذا نكون ملكيين أكثر من الملـك ؟! والبعد القومي للقضية الفلسطينية ارتبط بالمد القومي أو الوهم القومـي أو الحلم القومي، وقد "سقط " كل ذلك .

– والتحرير قضية نظرية، وأحلام طوباوية أصبحت الآن غير ممكنة في

ظل المتغيرات الدولية والمعطيات العربية الحالية وسياسة الحل السلمي؛ وغير واقعية في ظل توجهات سياسة عالم ما بعد الحرب الباردة .

– والثورية ــ التقدمية ــ الاشتراكية ... الخ، كل ذلك قد سقط بسقوط الاتحاد السوفييتي وانتهاء الحرب الباردة . إذن فلا بد من تغيير التوجهات واللافتات والشعارات، ورفض الرموز، ودفن الإنتاج والذاكرة والتاريخ الماضي كله، والبحث في حضن، العالم الجديد عن ثقافة جديدة وفكر جديد » (؟؟؟) وقطع الصلة بالماضي على مستويات وصعد شتى .

وربما يصل ذلك ــ حسب هذا النوع من المنطق ــ إلى اللغة والعقيدة والهوية القومية والحضارية، فكل ما يطلبه الغرب الاستعماري المتصهين، والصهيونية العنصرية مقبول ومنطقي وواقعي وحضاري في نظر أولئك، بل هو علامة العصر وورقة المرور إليه ؛ وكل مقاومة لذلك أو اعتراض عليه تخلف وتحجر ومرض شوفيني (؟!!) وخروج على منطق العصر، كما أن كل تأخر في ولوج هذا الباب يعد ــ من وجهة نظرهم ــ إيغالا في التيه. – والتضحية والبطولة والاستشهاد من أجل القضية والوطن، وسائر الشعارات التي كانت تخفق في الساحات العربية طولا وعرضا ؛ كل ذلك ــ في ظل النظرة الاجتماعية السائدة والتوجه السائر في التسوية والمساومة ــ نوع من " الغباء الوطني " الذي يقطف ثمرته أصحاب الزعامات والكراسي والمصالح، ومن يملكون الدكاكين السياسية، والشعارات البراقة، الذين يخوضون كفاحا بخمس نجوم في الصالونات الأنيقة، ويقبضون ثمن ذلك من كل الناس، ثم يبيعون الوطن والناس للأعداء أو لأول حامل بضاعة ثورية يريد أن يدفنها بأمر الاستعمار .

ولا يرون أن البديل لذلك ــ الذي لا يخلو من حق ــ هو البحث عن الصلابة الخلقية والنضالية والقومية بوعي ومسؤولية تاريخية، بل يقولون بنبذ ذلك كله والكفر به ؛ والتوجه نحو نهج مغاير هو من وجهة نظرنا نهج التسوية والاستسلام والانهزام والدخول في " شرق أوسطية " بيريس، والسير في ركاب العصر الأمريكي _ الصهيوني وتحالفاته العربية ومقولاته الاستهلاكية _ الاستعمارية .

– وثقافة التطبيع تحفر خنادقها تحت أرجل الشباب لـــتروج لأنمــوذج حياة المجتمع الاستهلاكي وقيمه، ولأشكال الانحلال والابتذال / باسم الحريـــة الفردية ــ الشخصية / ولتزرع التعب الذي يسوغ الانغماس في لذائذ الفســـاد والانحلال والمتع الرخيصة . وتجد مسوغاتها بعد أن انكشفت رموز وسياسات وتوجهات ولم يعد هناك ما هو مقنع أو مقدس أو مبدئي .

وإذن لم لا يبحث الجيل المتعب المحبط المسدودة أمامه السبل ؛ عـــن المتعة والخلاص الفردي بأي ثمن ؟!؟ ولماذا لا يقبض على الممكن بدلا مـــن البحث عن المستحيل ؟؟ ولماذا لا يغوص في المتاح حتى "وشته" وقد أتيح لـــه ذلك "النعيم"، الذي سوف يمتد بطول خمسين كيلو مترا علـــى ضفـــة البحـــر الأحمر ليقدم أندية القمار والعري والدعارة والمخدرات والرفاه الكاذب تحـــت مسميات ولافتات براقة، وجذابة بالنسبة لمن تدنت اهتماماتهم وطموحاتهم إلى درجة السعي وراء ما يهم الجانب البهيمي في كيان الإنسان الذي كرمـــه الله سبحانه باهتمامات أعلى ؟!!

ولماذا ينتظر ليكون مجرد سلعة يتاجر بها الآخرون بعد أن أصبحـــت كل القيم النبيلة لا تساوي شيئا، وأصبحت الشطارة مقياس الرجولة والتفـــوق والأخلاق والوطنية ؟!؟.

« اكنس من طريقك كل المعوقات التي يضعونها أمامك باسم الوطنيـــة والأخلاق والأهداف الاجتماعية والقومية العليا لكي لا تقطف المتعة، فما ذلـــك إلا دريئة يختبئ وراءها أصحاب المصالح وتجار المبادئ، وليس أمـــامك إلا أن تقتحم الساحة بالسلاح ذاته، وليذهب كل شيء إلى الجحيم . »

هذا منطق يقدم لجيل يريدون أن يعدوه لنا ليكون مستقبلنا، هو جيـــل الهزيمة وثقافة التطبيع واتفاقيات الذل .

وفي ظل هذا التصوير للواقع تنجح ثقافة التطبيع في :

– أن تساوى بين النذالة والبطولة ... إذ النتيجة لاشيء .

– أن تغير قيم الناس ومعاييرهم وتطلعاتهم ووسائلهم .

– أن تفرغ الوجدان من كل معيار أو دافع أو قيمة، وتفتـــح الأبـــواب

واسعة أمام اختيارات أنانية، تحت ضغوط وقائع ورغبات واحتياجات ماديـــة، فتحول الإنسان إلى قربة تملأ وتفرغ: ماء أو لذة، ولكنها ليست مالكة لإرادتها على الإطلاق، وليست مدركة لماذا تملأ ولماذا تفرغ ؟!؟

إنها في النهاية وظيفة البهيمة وحياتها ومسرود أيامها، وشـــتان بيـــن الإنسان والبهيمة !!؟.

– أن تضع الفرد أمام حقيقة الممارسات التي تتم بحقـــه مـــن إهمـــال لحقوقه وحرياته، رافعة أمامه عالما مغايرا سوف يقدمه التطبيع (؟!؟) حيـــث كل شيء سيتغير بتغيير دفع الحياة وأهداف الناس والحكومـــات والمجتمعـــات وسيأتي الازدهار هرولة إلى المدن والمخادع ؟!!.

وفي هذا كله توجه خبيث نحو استخدام واقع حق لتكريس باطل فظيـــع، وتشويه المنطق وأدوات التقويم والمحاكمة :

فالحرية : قيمة يناضل الإنسان من أجلها وتنال بتعميق مفهوم الحريـــة والالتزام والوعي والكفاح والعدل، وبإدراك قيمتها ومدى تحققها مـــن خـــلال حرية الوطن وحرية المجتمع وحرية القرار وحرية الاقتصـــاد وحريـــة الإرادة وحيوية مناخ نموها، ونمو طاقة الروح في ظلها، ولذلك فالنضال من أجلـــها في ظل التردي والهزيمة والاحتلال وفي ظـــروف الانســـحاق تحـــت وطـــأة الطغيانية والقهر وصولا إلى مجتمع المساواة والعدالة والكفاية، هـــو بدايـــة الطريق نحو الحرية الكامنة في التحرير الشامل للأرض والإنســـان ولطـــاقتي العقل والروح .



التطبيع دعاة ورافضون :

بدأ تداول مصطلح التطبيع أو التعويد NORMALISATION في السياسة والإعلام، منذ كامب ديفد ١٩٧٩ وازداد استخدامه وانتشاره ووضوحه بعد مؤتمر " سلام مدريد " والمفاوضات التي أعقبته بين العرب والكيان الصهيوني . ويصل إلى من ذلك المصطلح معنى التعامل المتنامي، أو ذاك الذي ينبغي أن يتنامى، أفقيا وشاقوليا، في المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والأمنية ...الخ، مع قوة الاحتلال الاستيطاني الصهيوني على أرضية الاعتراف، وشرعية الوجود، وحق البقاء والأمن وإقامة "الدولة " والتواصل والتعامل العاديين، مع "الجوار"، في الأراضي التي احتلتها تلك القوة الغازية من فلسطين العربية / الجزء الجنوبي من سورية الطبيعية أو بلاد الشام / قبل الرابع من حزيران ١٩٦٧.

ويرمي الجهد المبذول لفتح مجالات التطبيع كافة وترسيخها، إلى أن يكتسب الاعتراف الرسمي، من قبل الأنظمة العربية "بدولة" الكيان الصهيوني، أبعاده الشعبية والتاريخية، حيث يتم العمل على إعادة تكوين المفاهيم والقيم والقناعات والمواقف، على الصعيدين الفردي والجمعي، لتزول حالة العداء، ويغدو الجسم الصهيوني المزروع في فلسطين على حساب اقتلاع الفلسطيني، جزءا عضويا من تكوين المنطقة ونسيجها العام، تلك التي لا بد ــ حسب وجهة النظر تلك ــ من أن يتغير فيها الكثير لتستقر على ذلك الحال المطلوب؛ ولا مناص من أن يشمل التغيير المناهج التربوية والتعليم، والتاريخ الذي للمنطقة، والتوجه الثقافي بمقوماته وقيمه وأهدافه ومعظم معطياته.

ويأخذ مصطلح " التطبيع" عند التلقين والإيحاء والتطبيق، أو في أثناء

الشرح والتسويغ والتسويق، مدلولات منها:

١ ــ التكيف بمرونة الأذكياء ولياقتهم الحضارية .

٢ ــ الترويض والتطويع والتركيع، وصولا إلى " الشفاء" من هاجس التحرير (؟؟؟) والاعتياد على ما سواه.

٣ ــ وصول الأمور إلى سياق طبيعي عادي مع العدو، سواء تم ذلك بـ " العودة " إلى سياق، أبعد من حالة الحرب، يصنع له تاريخ، أو " يحيا له تاريخ ــ حسب اجتهادات البعض ــ ". أو تم بالتركيز على إيجاد مفاهيم وصيغ جديدة من التعامل والتواصل والتفاعل؛ وعلى تغيير مكونات الذاكرة والوجدان ومكنوناتهما، لتغدو الحياة مع الكيان الصهيوني ذات "سياق طبيعي" (؟؟؟) اعتيادي مألوف ــ أو يؤلف لاحقا ــ يستقر مع مرور الزمن ويصير لها تاريخ.

كما يراد لتلك المدلولات أن تحكم بمعطيات تستمد مما يحفل به تاريخ العلاقات بين الدول والشعوب، من صراعات ونزاعات آلت في نهاية المطاف إلى نوع من التطبيع، أو عادت فيها الأمور إلى طبيعتها؛ إذ يقدم المصطلح مشفوعا بمنطق، أو تتم منطقته ليكتسب تلك الأبعاد المطلوبة، وكأن بيننا وبين الصهاينة واليهود الخزر تاريخ بعمر التاريخ لتؤول الصراعات والنزاعات الناشئة بيننا إلى الطبيعي والمعتاد (؟؟؟) والأمر الطبيعي والمعتاد حقيقة في حالتنا مع العدو الصهيوني هو ألا يكون موجودا . ويتجاوز القائلون بذلك حقيقة أن ما بيننا وبين الصهاينة هو سرقة وطن وطرد شعب وتناقض مشروعين حيويين، وصراع وجود وليس خلافا على مصالح ونزاعا على حدود.

ويتم الحرص على تقديم ذلك التوجه نحو التطبيع، بواقعية مادية باردة، ذات مخالب وأنياب لا تنظر إلى السماء، ولا تتمتع بأية أجنحة، بل لا تسمح بأن تنظر عيون إلى السماء أو تنبت لأصحابها في الأعماق آمال

وأجنحة؛ ويصور الأمر الواقع الذي يمليه الوضع الراهن في منطقتنا، تصويرا قدريا شموليا، وينزل على الناس تنزيلا، ليشيع فيهم روح استسلامي يتنامى في ظل مناخ واقعية انهزامية، تغذيها وقائع ومعطيات عربية تنمو في ظل سيطرة قوة استعمارية وتفوقها، قوة تتحكم بمقدرات البشرية وقرارها؛ ويقدم ذلك على أنه أبدي؛ وكأن هذا هو المنطق الوحيد والسليم للحياة وفيها !؟ بينما الحياة لا تعرف الجمود والركود ولا تكون من دون صراع أقطاب، وتداول دول وتغير أحوال؛ فهي الحركة بكل ما تنطوي عليه من معان وغنى واحتمالات.

يشكل تطبيع العلاقات بين العرب والكيان الصهيوني، الذي يحرص عليه العدو وحلفاؤه وأهل الواقعية الانهزامية من العرب، حاضنة للسلام الإسرائيلي ــ الأميركي، المفروض على الأنظمة العربية، المرفوض في الوجدان الفردي والشعبي للعرب؛ وحاضنة لكل اتفاقيات الإذعان التي عقدت لتؤدي إلى ذلك " السلام"؛ وتحمي تلك الحاضنة أنظمة وأشخاصا، ولا تحقق إلا "لإسرائيل " ما تريده وما تتطلع إليه؟ ومن دون هذه الحاضنة " التطبيع " سيبقى ما يسمى " السلام "، رسميا ــ فوقيا ــ مزعزعا ــ بيروقراطيا معزولا، ذا بنية عنكبوتية تطفو على بعد أشبار من سطح الأرض ؛ لا يزيد على كونه حبرا على ورق، ونوعا من الهدنة، يجري في ظلها الإعداد والاستعداد لمعارك جديدة يوقد نارها بقاء القديم في الذاكرة والوجدان على ما هو عليه، وإبقاء جذوة الصراع مغطاة بقشرة من رماد .

وقد أدى استخلاص الرأي، واستقراء التجربة الماضية ــ تجربة كامب ديفد ــ إلى اقتناع عميق عند مهندسي التصفية ومن يرعون استنبات الكيان الصهيوني في الحوض العربي؛ اقتناع بدور رئيس وفاعل للعمل الثقافي وللمثقفين في تحقيق الأهداف السياسية للعملية السلمية، وترسيخ ما يتم في المنطقة تحت اسم السلام من فعل وفكر يرميان إلى تصفية القضية الفلسطينية وتسوية الصراع العربي الصهيوني على حساب العرب، ترسيخ ذلك، في الذاكرة والوجدان، وتجسيده في قيم وسلوك وعلاقات ومصالح، على أرضية من منطق وتأثير قوة وإبداع معا؛ بتوظيف إمكانات وأشخاص ذوي

مكانة وتأثير، واستثمار خبرة سابقة، في إطار فعل سياسي – إعلامي – ثقافي، يترافق ويتفاعل مع تأثير نفسي يستمد رصيدا و قوة وعمقا مما تختزنه الذاكرة العربية من رعب المذابح، وهزائم الحروب، وتآكل الثقة، وتفتت الصف، وانعدام احترام الحقوق والحريات والمصلحة العليا للوطن والأمة والإنسان.

وتحقيقا لذلك، واقتناعا من قبل الجهات المعنية بفرض العملية السلمية وإنجاحها، تم وضع الخطط والمشاريع وبرامج العمل، ورصد الأموال وإقامة مراكز أبحاث ومعلومات، وإنشاء أجهزة إعلام أو التعاقد مع أجهزة إعلام قائمة (وكذلك مع وسائل نشر) وتشكيل مجموعات عمل، مثل : " بناؤون من أجل السلام"، للاستثمار في الضفة الغربية وغزة. – و " بذور السلام" ؛ وتم أيضا تكوين مجموعات تحريك وضغط "لوبي"، والشروع في تنفيذ البرامج الموضوعة،لا سيما على الصعيد الثقافي، بهدف تسخير الثقافة لخدمة السياسة، ولخدمة سياسة معينة، سياسة تتبنى استراتيجيات وتعتمد تحركات مرحلية "تكتيك" بغية تحقيق أهداف ثابتة على رأسها إضفاء شرعية على احتلال الصهاينة لفلسطين، والاعتراف بدولتهم وفرض هيمنتهم على المنطقة، وتعزيز قدراتهم الاقتصادية والعسكرية، لتبقى لهم السيطرة والغلبة ويستمر تفوقهم على الدول العربية مجتمعة والدول الإسلامية الموجودة فيما يسمى "الشرق الأوسط"؛ وإيصال العرب إلى مناخ إحباط وهزيمة داخلية يؤدي إلى إقناعهم بذلك المشروع أو إخضاعهم له وفرضه عليهم بكل الأساليب والوسائل الممكنة، بدءا من الإغراء والشراء والإغواء وتوزيع شهادات الحضارية "وجوائزها"، وانتهاء بالتشويه والإزراء والملاحقة والإبادة الشاملة/ روحيا وجسديا / بذرائع شتى منها إنجاح السلام ومقاومة من يقاومونه والقضاء على التطرف والإرهاب، وهما الصفتان اللتان تعطيان في هذا الزمن العربي الرديء والعالمي البائس، من يقاوم الاحتلال الصهيوني، وإملاء الغرب الاستعماري واستلابه ونهبه الدائم للمنطقة، ولمن يرفض الاعتراف بشرعية "دولة إسرائيل" العنصرية على أرض فلسطين العربية ويناهض تصفيات مهينة تتم هنا وهناك، ولمن يقول بشخصية وبهوية ثقافية عربية تنفتح على الآخر

ـ الذي لا يتقزم وينحسر ويجتزأ ليصبح الصهيوني والصهيوني أولا، بينما الآخر يمتد عبر العالم كله ثقافة وحضارة وعلما وتعاملا ـ وتتفاعل معه من موقع التمايز والثقة والاقتدار، تأخذ وتعطي من دون عقد، وتتخلص من أشكال التبعية وأحاسيس الدونية والإحباط، ومن أشكال الاستلاب والإعجاب والمرض . وقد لمسنا زجا للثقافة أو تركيزا عليها وتوجها خاصا نحوها بهدف توجيهها لتكون في خدمة مخططات التصفية مع الاحتفاظ بواجهة براقة معصرنة هي : ثقافة "سلام" بدلا من ثقافة الحرب؟!!.

في ملتقى غرناطة /٩ ـ ١٢ كانون أول ١٩٩٣/ الذي عقد في ظل اليونيسكو تحت شعار " لننتقل من ثقافة الحرب إلى ثقافة السلام "، من أجل إعطاء دفع لاتفاق "أوسلو"، وإحداث انطلاقة في تنفيذ ما يسمى "التطبيع الثقافي" ـ الذي هو في وضعنا الراهن حاضنة " سلام الاستسلام" واتفاقيات الإذعان التي تمت حتى الآن : / كامب ديفد، أوسلو القاهرة، وادي عربة / وهو بالأحرى حاضنة لكل اتفاق إذعان، والمسوغ لكل شكل من أشكال التطبيع مع العدو الصهيوني والتبعية للغرب الاستعماري والخضوع لمتطلباتهما ـ في ملتقى غرناطة ذاك تم إتباع نهج جديد لتوظيف الثقافة توظيفا سياسيا مباشرا، اقتناعا بعبر سياسة مستفادة من كامب ديفد خلاصتها:

" أن أي سلام لا تقبله الثقافة ولا تسوغه وتروج له سيبقى محنطا في المكاتب الرسمية ومهددا باستمرار " .

وذلك ما أكده شمعون بيريس، الذي افتتح هو وياسر عرفات ملتقى غرناطة، حيث قال ما نصه: " إن السلام القادم (١) أثمن من أن يترك في أيدي السياسيين، أكلمكم بصفتي سياسيا " ؛ وهو ما جلاه وحدده المدير العام لليونسكو السيد فديريكو مايور الذي قال في مؤتمر صحفي عقد في بدء الملتقى: " إن البعد (الأدبي) الثقافي والإنساني يتقدم على ما سواه، ومن دونه لا يدوم اتفاق سياسي أو اقتصادي ... وإن التربية هي الوسيلة الناجعة لبناء السلام " .

في ملتقى غرناطة ذاك وضع أمام خمسين من المثقفين العرب (٢)

واليهود والأوربيين /١٤/ أربعة عشر مشروعا ليجري بحثها ودعمها والترويج لها، في ظل اليونيسكو التي سخرت لذلك، وكانت تلك طليعة المشاريع التي يراد للمثقفين والإعلاميين أن يكونوا في خدمتها وأن يعملوا على ترسيخها وإنجاحها دعما " لعملية السلام " (٣) .

وأذكر من تلك المشاريع التي تضمنها جدول أعمال ملتقى غرناطة للمثقفين، ودعي فيه إلى أن تكون تلك المشاريع فورية :

ــ إحداث مركز علمي في مرتفعات الجولان، يعمل فيه خبراء يهود وفلسطينيون !؟ ولنا أن نسأل أو نتساءل، والجولان عربي سوري، لماذا خبراء يهود وفلسطينيون في الجولان ؟! أليس لضرب العربي بالعربي، السوري بالفلسطيني ــ وإنعاش صورة تحالف فلسطيني صهيوني ضد التآلف العربي ؟!.

ــ إعادة كتابة تاريخ المنطقة، الذي سيقوم به مؤرخون من عدة جنسيات في "الشرق الأوسط "، منهم يهود ؛ ليصبح لذلك التاريخ طعم ملوك بني إسرائيل، ولتزييف الوقائع والحقائق التاريخية بمشاركة أبناء المنطقة ومؤرخيها، ولمسح تاريخ الصراع العربي الصهيوني من الذاكرة والوجدان وإعادة تكوينهما بما يتلاءم ومصالح " إسرائيل " والغرب المتحالف معها ؟!!

ــ عقد اتفاقيات ثقافية متضمنة النشر والإعلام (إذاعة وتلفزيون) وقد وقعت بعض تلك الاتفاقيات فعلا .

ــ العمل على مشاريع تربوية تخص المناهج والمدارس (٤)، لإعادة صوغ قيم الأجيال ومفاهيمها ووجدانها ؛ والتركيز على التاريخ والجغرافيا والتربية القومية والوطنية والدينية على الخصوص (٥) ، حيث تغيب آيات من القرآن وأحاديث نبوية، وتغفل حوادث تاريخية مثل الغزوات والحروب التي جرت مع اليهود، أو تقدم تفسيرات مشوهة لها ولأهدافها ومجرياتها ؛ وكل ذلك بهدف إعادة تكوين الإنسان العربي تكوينا يتلاءم مع التوجهات المطلوبة لسيادة عصر إسرائيلي ــ أميركي، ولغسل العقل العربي والذاكرة من كل ما يتصل بحق العرب في فلسطين والإعداد والاستعداد من أجل استعادتها .

ـ تقاسم المياه.

ـ مشاريع زراعية وسياحية وتجارية واقتصادية.. الخ.

ويلاحظ من خلال تحديد موعد ملتقى غرناطة ومناسبته ونوع الرعاية له والحضور السياسي فيه : "عرفات وبيريس"، والأشخاص المشاركين، والمشاريع المطروحة، يلاحظ التوظيف الصارخ للثقافة في خدمة سياسة الاستسلام ومشاريعها، تلك التي تفرض على العرب "سلاما صهيونيا " مفروضا أميركيا، يروج له تحت مظلات ثقافية ومؤسسات دولية ؛ ويستخدم المثقفين أدوات لترويج سياسة لا تخدم العدل ولا السلام الحق، وتعبث بمصائر الشعوب وحقوقها، وتزيف تاريخها وهويتها ومفاهيمها ونضال أبنائها؛ وتسبغ على احتلال أرض الغير بالقوة، وعلى القهر والاستلاب والممارسات العنصرية، شرعية (؟؟) وأية شرعية .؟!!

ويقول مثقفون عرب، اختاروا هذا النوع من السياسات والتصفيات والتسويات ووافقوا على مساندتها وعلى أن يضعوا أنفسهم في خدمتها، يقولون : إنهم يفضلون سلاما ناقصا(٦) على تحرير تأتي به الأصولية القومية و الإسلامية "، اللتين تمثل مقاومتهما النوعية للعدو الصهيوني، الذي يحتل الأرض ويمارس أقصى أنواع الإرهاب على السكان، تمثل تلك المقاومة بنظرهم " تطرفا وإرهابا وتخريبا ... الخ".

وسوف أجتهد في عرض وجهتي نظر :

* الأولى تقول:

"هناك دعوة إلى الواقعية تأخذ بالاعتبار المتغيرات العربية والدولية لا سيما بعد انهيار حلف وارسو والاتحاد السوفييتي، وما نتج عن حرب الخليج الثانية من دمار وعلاقات جديدة وتحالفات وسياسات ووقائع مجسدة على الأرض.

وتلك الواقعية تتذرع بالآتي :

ـ لا يملك العرب صناعة أسلحة متقدمة، ولا يقوم احتمال أن يتمكنوا من امتلاك ذلك في المستقبل القريب.

ـ لا يوجد مصدر سلاح حاليا، يقدم لهم ما يحتاجون إليه، لا سيما في ظل هيمنة الولايات المتحدة الأميركية على سياسة العالم ودوله، ولا يوجد من يمكن أن يتجاوز الرغبة الأميركية ـ الأوربية ويقدم سلاحا للعرب ليحاربوا به " إسرائيل ".

ـ لم يعد في الوطن العربي تضامن ولا أرضية للثقة، ولا تعاون على أسس قومية مبدئية ثابتة وصادقة يمكن أن تعمل من أجل التحرير؛ بل السياسة المعلنة والمتبناة رسميا، منذ قمة فاس حتى الآن، هي سياسة التسوية، وخيارات السلام بدلا من خيارات الحرب.

ـ إن العرب لم يحققوا، ولا يلوح في الأفق أنهم يمكن أن يحققوا، أي شكل من أشكال التوازن الاستراتيجي مع "إسرائيل" علميا ـ معرفيا ـ اقتصاديا ـ عسكريا ـ تقنيا... الخ، وإن الزمن ليس في صالحهم لأنهم يزدادون تأخرا ـ حتى لو تقدموا ـ إذا ما قيس ذلك بما تحققه "إسرائيل" والغرب المتحالف معها، المقر بشرعية وجودها، والضامن لأمنها ولتفوقها العسكري على كل العرب والمسلمين ؛ فإذا كان العرب يتقدمون حسب متوالية عددية فإن أعداءهم يتقدمون حسب متوالية هندسية، هذا إضافة إلى ما حققه أولئك الأعداء وامتلكوه فعلا من مخزون الأسلحة النووية والتقدم التقني ونتائج الخبرة حتى الآن (٧) .

ـ العرب يملكون:

١ ـ مواد أولية لا يستخرجونها بأنفسهم ولا يسيطرون عليها ولا يتحكمون بقراراتها لا سيما البترول :(الإنتاج ـ التسويق ـ وتحديد الأسعار ـ ... الخ) وحتى الاكتشاف والتنقيب والاستثمار وتوظيف الأموال في هذا المجال .

٢ ـ إمكانات وطاقات مادية وبشرية وموارد لا يحسنون توظيفها ولا ترشيدها فضلا عن تطويرها.

٣ ـ موقعا جغرافيا متميزا لكنه يتحول، على أيدي ساستهم وفي نطاق سياساتهم، إلى نمر من ورق ؛ فتلك الجغرافيا المتميزة لا تحكمها سياسة

متقاربة أو متضامنة، و لذا فإنها تصبح متنافرة تزيد التفكك وتحيل مواطن القوة إلى مواطن ضعف ؛ والرأي ــ رأيهم ــ أن نكف عن الحديث عن مخاطر التطبيع لننصرف إلى تعاون مع الكيان الصهيوني بكل الوسائل، لأنه من دون خبراته وتفوقه وقدراته العلمية، ومن دون التعاون معه واكتساب رضاه ورضا حلفائه، لن نتجاوز ما نحن فيه من تخلف؛(٨) وإذا كان ثمن ذلك تقديم بعض فلسطين والاعتراف "بإسرائيل" دولة من دول المنطقة، فلنفعل هذا لأنه ممارسة فعلية للواقعية . وعلينا أن نسرع قبل أن يذهب ما تبقى من الأرض ونندم على فرصة نفوتها، وقبل أن تستشري مقاومة الذين يريدون تعطيل مسيرة "السلام"، وقبل أن تنمو قوة أصولية قومية أو إسلامية، (!!) تعطل مشاريع التقدم؛ قوة لا يقبلها الغرب وترفضها الصهيونية كما يرفضها الغرب ويعدانها خطرا لا يقل عن خطر الشيوعية المنهارة.(٩).

وقد ذهب هذا الفريق من المثقفين العرب إلى مباشرة تنفيذ أفكارهم تلك ووضعوا أيديهم بأيدي العدو، على مذهب عرفاتيين يقول صراحة : "ضع يدك بيد القوي ــ إسرائيل ولنسحق الضعيف " ــ يعنون العرب ــ وادعى أولئك النفر من المثقفين أنهم إنما يقيمون جسرا " لسواهم؛ ولفعوا ممارستهم السلبية تلك بالانفتاح الفكري والحضارية والحداثية والنظرة الإنسانية المتعالية حتى على المآسي والمعاناة التي تنحر شعبهم، ومضوا في ذلك على الرغم من كون أراض عربية، فلسطينية وغير فلسطينية، ما زالت تحت الاحتلال المباشر للكيان الصهيوني، وملايين الفلسطينيين خارج وطنهم ؛ وأخذ أولئك يجوبون بزوارقهم الشراعية المزركشة مساحات الماء، الذي يراد له أن يرين على الغرقى، مصعرين خدودهم للناس، منشدين الشعر، "ناثرين" الحكمة" (؟!) متناسين الغصص المتصاعدة من تحت أقدامهم المحشوة فيما يشبه الأحذية الصينية المخصصة للصغيرات من النساء .

ولم يعر أولئك أهمية حتى لحوار شكلي مع المثقفين العرب الآخرين حول تسويغ هذا الاختيار وتبريره بل وضعوا أيديهم بأيدي السياسيين والمثقفين الصهاينة ومضوا في طريق التطبيع الشامل الذي ينشده "الكيان الصهيوني" ويعمل على تحقيق خروق في كل مجالاته عربيا، في الوقت الذي

يمضي فيه قدما في الاستيطان والاحتلال والقصف والتدمير وملاحقة من يشاء في فلسطين، ويختطف من يشاء من جنوب لبنان، ويشوّه ما يشاء من حقائق ووقائع وقضايا ومعطيات، ويعزز قدراته العسكرية، النووية وغير النووية، ويوسع ميناء حيفا للأسطول الأميركي الحليف له، ويخزن الأسلحة في فلسطين المحتلة، ويقوم بالمناورات وتجارب الحروب المحتملة مع ذلك الأسطول على ساحل فلسطين وفيها استعدادا للقيام باستكمال مراحل المشروع التوسعي الاستيطاني ـ مشروع " إسرائيل الكبرى "، ثم " إسرائيل التوراتية "، واستعدادا لكل الاحتمالات التي تستدعيها حماية المصالح الأميركية، ومواجهة أية قوى عربية أو إسلامية، ترى الصهيونية والغرب الاستعماري مواجهتها والقضاء عليها.

* الثانية وتقول :

يقر الرافضون للاعتراف والتطبيع بالمتغيرات العربية والدولية التي حدثت، وبانعكاساتها السلبية على مجرى الصراع العربي الصهيوني، ويدركون معنى التغيرات التي حدثت وعمقها وانعكاساتها، ولكنهم لا يرون مسوغا لهرولة السياسيين والمثقفين العرب نحو الاعتراف والتطبيع، ولا يرون أن هزيمة نهائية قد لحقت بالأمة العربية (١٠) . كما أنهم لا يسلمون بأن هيمنة أميركا على السياسة العالمية هيمنة لن تتزعزع أبدا وأنها قدر أبيد؛ ويصعب عليهم أن يقتنعوا بتسويق الصهيوني العنصري بصفته طاقة علمية ومعرفية وخلقية لا مندوحة للعرب من الاعتماد عليها ليخرجوا من التخلف.

ويرون أن الاستفادة من ثروات الأمة العربية وطاقاتها البشرية والمادية هي إمكانية موضوعية واقعية لا ينبغي القفز فوقها، وأنه لا بد من إعادة نظر جذرية في الخطاب الثقافي العربي وفي قضايا تربوية وسياسية وثقافية وعسكرية بغية تعزيز الثقة بالنفس والحق والمستقبل؛ وأنه لامسوغ لتدمير تلك الثقة لا سيما في هذه الظروف بالذات .

ويقول الرافضون لاختيارات دعاة التطبيع وحججهم وذرائعهم أيضا:

١ ــ إن رجحان ميزان القوى لمصلحة العدو الصهيوني، بحكم انتصار حلفائه، لا يعني استقرارا لذلك الوضع على تلك الحال إلى الأبد، ولا يسوغ استسلاما له ورضى بكل ما يأتي به، كما أنه لا يشكل هزيمة شاملة ومطلقة للأمة العربية وأجيالها .

ويرون أنه " علينا أن نعمل على توضيح ذلك، وكشف الغطاء عن الجهود المكثفة والمحمومة الرامية إلى ترسيخ روح الهزيمة في نفوس العرب، وتدمير كل ثقة لهم بأنفسهم وبالمستقبل الذي ينتظرهم لكي نتمكن من إفشال هذا المخطط "فالعدو يرمي إلى ذلك بالدرجة الأولى.

٢ ــ لا تجوز مصادرة المستقبل، وليس منطقيا ولا واقعيا إغلاق كل المنافذ أمام الأجيال والإرادات العربية لإجبارها على السير في طريق وحيدة مرسومة؛ تبقى وحدها مفتوحة ومنارة ومزركشة هي طريق الاستسلام والقبول بالعدو الصهيوني شريكا ومنقذا ؟؟.

إن رؤية النصف الممتلئ من الكأس أو حتى بقايا ما في الكأس من ماء، هي من واجب العقل والوعي والموضوعية، كما أن استقراء تاريخ الأمة العربية بأمانة ووعي وحصافة؛ من خلال الانتماء والمسئولية القومية والخلقية، كل ذلك يرتب على المثقفين وأهل الرأي القيام بجهد يعزز الثقة، وينعش الأمل، ويؤكد أهمية فعل علمي وعملي لتهيئة مقومات وأسباب، مادية ومعنوية، يجسد من خلالها العمل والإيمان والوعي، قوة تحمي الإرادة والقرار وتحررهما ؛ وهي ما نحتاج إليه الآن في صراعنا مع العدو الصهيوني، وما سنحتاج إليه في كل المواجهات والتحديات المحتملة؛ فأمة بلا قوة هي كم من اللحم والدم والسلع والأرض تتناهبه الأمم.

٣ ــ إننا نتمسك بعروبة فلسطين، وبحقنا التاريخي فيها، وندرك أهمية أن نبقي ذلك حيا في الذاكرة والوجدان، وضرورة أن نقوم بكل ما ينعشه وينميه ويزيده رسوخا وفعالية وتأثيرا؛ لذلك فإننا ــ على الرغم من كل المتغيرات الدولية والتحركات السياسية والانحناءات العربية المهينة ــ نريد أن نكرس حقيقة أن صراعنا مع العدو الصهيوني العنصري،الذي يحتل

أرضنا، هو صراع وجود مع وجود وليس مجرد نزاع على حدود.

من أجل هذا واستنادا إليه، فإننا نرفض الاعتراف بالعدو الصهيوني وبأية شرعية لوجوده على أرضنا، حتى لو اعترفت الدول العربية مجتمعة به، فما يلزم السياسي لا يلزم الثقافي بالضرورة ؛ كما نرفض كل أشكال تطبيع العلاقات معه على أي مستوى وصعيد، ونتبين مخاطر الاعتراف والتطبيع على قضايانا ومصالحنا ومشاريعنا الوحدوية والنهضوية وعلى مستقبل أجيالنا.

وننظر إلى ما تم من اتفاقيات مثل (أوسلو وتوابعها ووادي عربة) على أنها لا تمثل، بأي شكل من الأشكال، مصلحة أو رغبة عربيتين؛ وأنهما تنطويان على تفريط مريع بالحقوق التاريخية للفلسطينيين خاصة والعرب عامة. وحتى لو كانت تلك الاتفاقيات اتفاقيات إذعان، بالنسبة لمن وقعها من العرب ــ ونحن ندرك أن الأمور لم تكن كذلك بالنسبة للبعض، فهاهو الملك حسين يباهي بأنه طوال سنوات الصراع العربي الصهيوني كان على اتصال سري بالعدو ــ فإن في ذلك خيانة لكل الأهداف القومية والوطنية التي استشهد من أجلها عشرات الآلاف، وقدمت على طريقها التضحيات التي لا تقدر بثمن. وأن تنازلا مجانيا عن جغرافيا الوطن وتاريخه وكرامة أبنائه، وغرسا للعدو في قلب الأمة باعتراف منها، يعطيه شرعية ويرتب لاحتضانه وحمايته وجعله شيئا عضويا في النسيج العام للمنطقة وتكوينها، هو مما لا يمكن تسويغه أو الدفاع عنه أو السكوت عليه..

الأمر الذي يستوجب منا موقفا مغايرا، ومقاومة تأخذ الممكن بالاعتبار، مقاومة تملك رؤية وأفقا واسعين، ونفسا طويلا، وتؤسس لاستعادة الثقة، والمكانة، والمبادرة، على أرضية من العلم والمنطق والقوة، انطلاقا من معطيات ملموسة تكشفها الواقعية الإيجابية التي نحتاج إليها.

٤ ــ إننا نؤمن بدور إيجابي للثقافة في حياة الأمم، وندرك ما يرتبه عليها وضع مثقل بالإحباط والوهن والأزمات والتشرذم والصراعات الداخلية والولاءات الخارجية، كالوضع العربي . وحين تتهاوى واجهات وجبهات ومقاومات سياسية وتتهافت، فمن الطبيعي أن تستنهض همم المثقفين، وأن

تستنهض الثقافة هممـا، ليكون هناك حد أدنى من التماسك ومن الثبـات علـى حق ومبدأ .

والثقافة حصن، أو هي الحصن الأهم، للدفاع عـن المبدئيـة والحـق والعدل والشخصية والهوية لأمة من الأمم أو جماعة من الجماعات وهـي ـ من خلال أهلها ـ تتحمل مسؤولية تاريخية حيال قضايا الحريـة والتحريـر، وحقوق الإنسان والتحرر والعدالة، كما أنها حامل الوعـي والمعرفـة الـذي يساهم في تكوين الإنسان تكوينا سليما، ومـن المنطقـي والطبيعـي أن يتـم استنفارها والاحتماء بها، والاعتماد عليها، لا سيما حيـن تكـون السياسـة طغيانا، وحين يلغي السياسي كل ما عداه أو يهمشه أو يجعله في حاشيته تبعا: بواقا أو طبالا أو زمارا.

٥ ـ إننا نرفض باستمرار تبعية الثقافي للسياسي، مع اقتناعنا بعـدم إمكانية الفصل بينهما وبعدم جدوى ذلك الفصل، ولكن حالة التبعيـة لا سـيما للخلافية السياسة العربية ـ خلاف الحكام والأنظمة ـ ألحقت ضررا بـالحس القومي وبالبعد القومـي لأيـة قضيـة، وضـررا بـدور الثقافـة ومكانتـها ومصداقيتها، وصار لا بد من تحرر الساحة الثقافيـة العربيـة مـن حالـة التبعية،سواء لمركزيات ثقافية أخرى أو لتلك الخلافية، لتستعيد الثقافة حضورا في ساحة القرار السياسي العربي ومصداقية في الساحة الجماهيرية وفعاليـة على الصعيد القومي ووعيا بذاتها ـ هي بأمس الحاجة إليه ـ على حد سـواء وليتاح للمثقف أن يخرج من سوق الكلام العربي المفتوح، ومن جلـد الطبـال والزمار، المداح والقداح، الذي يشوه صورة حاكم أو نظام لمصلحة حاكم آخر أو نظام ثم يعود ليعكس اللعبة في كل وقت حسب سوق العرض والطلب .

وعندما يتعلق الأمر بموقف مبدئي، وقرار مصيري، فلا مجال للتخلـي عن الخصوصية والتمايز والدور والسلاح، على أرضية المعطيات الموضوعية والمسؤوليات التاريخية والقومية والخلقية، التي لا مناص مـن أن يتحملـها المثقف وأهل الثقافة عموما بالمفهوم الشامل والواسـع للثقافـة، بشـرائحها المختلفة الممتدة من المعلم إلى العالم، ومن ذوي الثقافة الموسوعية إلى ذوي الثقافة التخصصية .

وهذا لا يعني طلاقا بائنا بين الثقافة والسياسة، أو تدابرا كثيرا ما انعكست نتائجه على مستوى الأداء القومي، كما أنه لا يعني قبول الإلحاق القائم أو صور المحو والنبذ والنفي ؛ بل هو في جوهره دعوة للتعاون على أرضية المصالح العليا للأمة والمعايير السليمة الراسخة التي تضع كل فعل وفاعل في موقعه المناسب من حيث الأداء والقيمة المتعلقين بقضية وزمن ومعطيات وتطلعات.

إننا نتفهم معنى أن تكون السياسة فن الممكن، ونتفهم معنى الممكن وحدوده بالنسبة لأمة ذات حق وتاريخ ووجود تحرص على بقائه، ونعرف المعطيات التي يبنى عليها الممكن / عربيا الآن/ في الظروف التي ترتبها المتغيرات الدولية والعربية الكبيرة، وفي ظل تحكم قطب قوة وحيد ذي مصالح وأطماع وأحقاد ومعايير مزدوجة، وحسابات يصفيها مع دول وعقائد وسياسات وثقافات وأيديولوجيات، هو القطب الغربي ـ الاستعماري المتصهين وعلى رأسه الولايات المتحدة الأميركية ؛ ونعرف كيف نفرق بين سياسة عربية وسياسة، بين موقف مبدئي وفعل مرحلي " تكتيكي " من جهة ومواقف قومية ووطنية ثابتة .

وندرك أن السياسي العربي حاصر نفسه ـ منذ لاءات الخرطوم إلى التهافت والهرولة بألف نعم على أعتاب العدو الصهيوني بعد حرب الخليج الثانية ـ حاصر نفسه بأشكال مختلفة ولأسباب مختلفة على رأسها اتساع الهوة بين الشعار والممارسة، وحوصر من أعدائنا، وحوصرنا جميعا من جراء ذلك: بالعجز والعزلة والهم والضعف والوهم، حتى لم يبق أمام السياسي العربي الآن إلا أحد خيارين مرين :

أ ـ الحرب التي لا يقدر على خوضها الآن، والتي يساق إليها أو يلوح له بها، عندما يتوقف في المنحدر الذي يدفع إليه وفيه دفعا، وراء قضمة من جزرة لن تتحقق.

ب ـ المفاوضات التي ستؤدي إلى الاعتراف بشرعية الاحتلال،

والقبول "بالسلام النووي" الذي تفرضه "إسرائيل" والولايات المتحدة الأميركية على العرب.

ولأننا :

ـ لا نقر بأن هزيمة نهائية حلت بنا، وندفع ذلك استنادا إلى معطيات وإمكانات واستنتاجات منطقية وواقعية وموضوعية.

ـ ولا ننساق، ولا نريد أن ننساق، وراء حماسة انفعالية قد تؤدي إلى حماقات مهلكة ندرك نتائجها علينا وعلى قضايانا ومستقبلنا.

فإننا:

ـ نأخذ بتصليب الموقف المبدئي الرافض لاتفاقيات الإذعان، وما يمليه القهر، والاستدراج الإغوائي باسم " الحضارة" والازدهار الكاذب، اعتمادا منا على المعطى الموضوعي والوعي المعرفي والإيمان والغنى الروحي، كل ذلك الذي تستنفره الثقافة وتغذيه، وتنميه في وجه أشكال الفساد والانحلال والانهزامية.

ـ ونتفهم معنى وندرك مغزى أن يعوم السياسي العربي نفسه وأوراقه الآن، لأنه ملزم على أجراء حسابات دقيقة من موقع المسؤولية عن شعب ووطن وقضايا في ظروف المرحلة الراهنة، وملزم أيضا بتقديم أجوبة على أسئلة لا تحتمل التأخير، ويعرف ما في يده من أوراق. وإننا في الوقت الذي نتفهم فيه ذلك نرفض هرولة السياسة العربية، وسياسيين عرب، نحو العدو الصهيوني المحتل مباشرة أو عبر بوابات غربية للفوز بمغانم شخصية وحمايات ذاتية على حساب الوطن والقضايا المركزية للأمة ؛ نستهجن ونستنكر ونرفض بشكل أشد هرولة مثقفين وارتماءهم على العتبات الصهيونية ـ العنصرية، وندين دورهم المروج للاستسلام واتفاقيات الإذعان وتطبيع العلاقات مع العدو، ووضعهم الثقافة في خدمة كذا سياسة ومشاريع تصفية مهينة، باسم الانفتاح الفكري " والحضارية و " السلام " المتعالي على الحق والحرية والوطن والإنسان والقائل بذرائع الواقعية الانهزامية.

ولأننا:

ـ ندرك جيدا أننا سنحتاج دوما إلى أن نحشد الناس، بالكلمة والرأي والفكر والموقف، للدفاع عن الوطن والشعب والحق والمصالح، وربما عن الوجود ذاته، وأنه لا بد لنا من أن نملك مصداقية ونحافظ عليها من جهة، وأن نبقي للتضحية والشهادة والبطولة تألقا وقيمة ومنزلة رفيعة في الحياة وفي نظر الناس من جهة أخرى.

ـ وساهمنا، وسوف نساهم ـ كمثقفين ـ بشكل أو بآخر، في دفع الناس للتضحية والشهادة، بالكلمة والموقف، دفاعا عن قضية العرب المركزية ـ فلسطين ـ ووصولا إلى تحرير الأرض المحتلة، وحسم الصراع العربي الصهيوني لمصلحة الأمة العربية، ودفاعا عن قضايا أخرى سواها، عادلة ونظيفة.

ـ ونستشعر مخاطر توظيف الثقافي في خدمة سياسة تتواطأ على الحق والعدل والشعب والوطن والتاريخ والشهادة وتفرط تفريطا مهينا بالثوابت والمقدسات، بالجغرافيا والتاريخ والمصالح القومية.

ـ ونلمس مخاطر جمة من توجهات واستراتيجيات إمبريالية ـ صهيونية تخدمها سياسة وثقافة عربيتان بتوجيه وتمويل من مراكز بحث وتمويل وأجهزة ومؤسسات أجنبية، ويتجلى ذلك أكثر ما يتجلى في:

ـ تطبيع العلاقات العربية ـ الإسرائيلية في مجالات:

أ ـ سياسية منها : تبادل سفارات وقناصل وزيارات ولقاءات وتنسيق مشترك... الخ. / مع الأردن : سفارة، مع تونس والمغرب : تبادل قنصلي.

ب ـ اقتصادية : رفع المقاطعة العربية غير المباشرة (١١)/دول مجلس التعاون الخليجي / ـ مشاريع استثمارية مشتركة : (الأردن ـ قطر ـ الحكم الذاتي الفلسطيني...الخ) ـ السوق الشرق أوسطية : سياحة ـ اتفاقيات طيران ـ تجارة " قال رابينوفيتش: إن لدى إسرائيل اتفاقيات اقتصادية مع اثنتين من جاراتها العربيات هما مصر والأردن، كما تجري إقامة علاقات مع تونس والمغرب" ١٩٩٥/٤/٣ ـ العمل معا لبناء مستقبل اقتصادي

ـ / واشنطن نشرة السفارة الأميركية ـ دمشق رقم ٥٢٢٠ / تقاسم مياه ـ زراعة ـ مصارف" بنك التنمية للشرق الأوسط" وهو مصرف إقليمي للتنمية والتعاون تعمل الولايات المتحدة مع مصر وإسرائيل والأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية على إنشائه، وهو مصرف يهدف إلى:

ـ تشجيع الاندماج الإقليمي.

ـ اجتذاب استثمارات القطاع الخاص.

ـ دفع الحوار الإقليمي حول السياسة والاقتصاد إلى الأمام."

[نائب الرئيس آل غورـ من خطاب في القاهرة ٢٠ / ٣ /١٩٩٥.]

[عن نشرة السفارة الأميركية بدمشق رقم ٥٢١١ تاريخ ٢٢/٣/ ١٩٩٥/] ص ١٣]

وكذلك صندوق شركاء الشرق الأوسط الذي ستضمنه أوبيك ـ هيئة الاستثمارات الخاصة لما وراء البحار التابعة للحكومة الأميركية ـ /٢٥٠ مليون دولار ورؤوس أموال خاصة / ويسعى إلى جذب ملياري دولار أميركي إلى المنطقة .

ج ـ ثقافية: تغيير مناهج تعليمية وتربوية لغرض رفع حالة العداوة (؟!؟) وإعادة كتابة تاريخ للمنطقة "الشرق الأوسط "، وتغيير قيم ومعلومات والقيام بفعاليات منها : عقد ندوات ولقاءات مشتركة ـ توظيف مثقفين للترويج لمشاريع نشر وتوزيع وكتابة تاريخ جديد للمنطقة ـ مشاريع إعلامية (تلفزيون وإذاعة ...الخ، مراكز أبحاث ... إلخ)

والهدف هو إعادة صوغ الذاكرة والوجدان والقيم والتاريخ والتوجهات التربوية والإعلامية والثقافية العامة للعرب، ليصبح الكيان الصهيوني بذلك، جزءا عضويا من النسيج الجغرافي والتاريخي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي والأمني للمنطقة العربية.

ولأننا:

ـ نرى للثقافة العربية، وللمثقف العربي، دورا مغايرا لما يراد أن

يكرس له من دور، ولما يراد أن يسود لجهوده من توظيف، في ظل اتفاقيات الإذعان ومشاريع التصفية والتسوية وسياسة التطويع والتطبيع والتركيع وفرض السلام الصهيوني الأميركي على العرب.

ـ ونربأ بالثقافة أن تتحول إلى سادن للهزيمة، وأن تكتب صكوك الاستسلام بدماء الشهداء، وأن تروج للعدو الصهيوني، وتبارك القهر والعنصرية والعدوان وسرقة الأوطان وتشريد الشعوب وتزييف العدالة.

ـ ونسترخص أن يمارس مثقفون التدجيل والتدجين وامتصاص إرادة الصمود واستلابها، فيعملون على أن يرين الماء على الغرقى، ثم يتجولون بزوارقهم الشراعية فوق الماء، ينشدون شعر "السلام" والحداثة بينما غصص أولئك الغرقى تتصاعد من تحت أقدامهم.

فإننا:

ـ نرى أن المسؤولية التاريخية تحتم على المثقف العربي، الذي يختار انتماء لأمته العربية في واقعها الراهن، ويختار أن يكون جزءا من التكوين العضوي لها، أيا كان الواقع والمصير والمحن والثمن ؛ تحتم عليه أن يقوم بدور يجعل من الثقافة حصنا منيعا للدفاع عن الثوابت المبدئية والوطنية والقومية والخلقية للإنسان العربي، وعن الحقوق التاريخية للعرب في فلسطين، وعن الكرامة والمستقبل والذاكرة وقيم الوجدان والإيمان، وأن من واجبه أن يصلب موقف المقاوم النوعي، الذي يخوض معارك يومية، ويتعرض لمسلسل ملاحقة وإبادة تتواطؤ لتنفيذه جهات عربية مع قوة الاحتلال الصهيونية وحلفائها ؛ ومن واجبه أن يستلهم تلك المقاومة ويعلي شانها ويدافع عن شرعيتها، ويرد على ما يراد إلحاقه بها من إساءات.

ـ ونرى أن عليه أن يدافع عن الشهادة وقيمها، وعن الأهداف التي استشهد من أجلها الكثيرون، وأن يبقي تلك الأهداف حية ونبيلة وتستحق أن تستمر التضحية من أجلها، وهي أهداف التحرير ؛ عليه أن يبقي الباب مفتوحا أمام الأجيال العربية القادمة لتمارس حقها واختياراتها، ولتقوم بواجبها ألا وهو متابعة الصراع حتى التحرير، من دون مصادرة من أي نوع لذلك الحق،

ومن دون إلحاق أي تشويه بذلك النضال وبتلك الحقوق؛ ومنع المشبوهين والأعداء من أن ينالوا من قيم الشهادة والتضحية والوطنية.

نرى أن على المثقف أن يقوم بفعل إيجابي منقذ ومستمر، يتنامى ويتسع ويتكامل، ليصبح مواجهة شاملة لكل أنواع الاعتراف بالعدو الصهيوني وأشكال تطبيع العلاقات معه، وأن يعمل على تأمين القوة لتحقيق نجاح في ذلك، انطلاقا من تأكيد قيمة العلم والعمل والإيمان، على أرضية من الانتماء والوعي المعرفي واحترام الحق ؛ وأن يدعو للإعداد والاستعداد البعيد الأمد من أجل إقامة توازن استراتيجي شامل/ اقتصادي ـ عسكري ـ ثقافي ـ أمني ـ حضاري... الخ/ بيننا وبين العدو الصهيوني، على أرضية امتلاك العلم والثقافة والقوة، وتوفير كل متطلبات ذلك؛ وتهيئة المناخ والصلات والعلاقات الدولية والداخلية التي تمكن من تحقيقه من دون أن يرجئ المقاومة، في حدودها الممكنة، إلى أن يتحقق ذلك التوازن ؛ فلم يشهد التاريخ إلا نادرا مقاومة للاحتلال انتظرت إلى أن يتحقق توازن قوى مع المحتل لتمارس دورها وتدافع عن نفسها .

على المثقف أن يعمل من أجل ذلك لأن القوة هي ما تحتاج إليه الأمة العربية، ولأنها الشيء الذي لا بد منه، اليوم وغدا، لتحمي الأمة وجودها وتدافع عن نفسها وعن مصالحها وحقوقها؛ ولتحقق حالة تفاعل وتواصل، فيها شيء من الندية والثقة مع الأقوام والأمم والثقافات الأخرى.

ولكي لا تبقى إرادتها أو قراراتها و مصالحها وثرواتها تحت سيطرة الغير بحكم افتقارها إلى القوة والإرادة اللتين تحرران، واستغلالها للإمكانية التي تخلق مناخ التحرير وتوفر شروطه ومقوماته ؛ لأنه لا يحمي الحق كالقوة، " وما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة " كما قال المرحوم جمال عبد الناصر.

ولأننا:

ـ نؤمن بقدرتنا على تحقيق ذلك، ونعرف إمكاناتنا وطاقاتنا، المادية والبشرية، المعطلة منها والمهدرة والمصادرة والتي قيد الاستثمار، تلك

الطاقات والإمكانات التي يمكن استثمارها وتحقيق تفوق بها وانطلاقا منها، على المدى البعيد.

ـ وندرك أن تغييرا جذريا لا بد من أن يحدث في أعماقنا ومعارفنا وعلاقاتنا وإنتاجنا وسلوكنا، وفي نظرتنا لكثير من الأمور والأعمال والمؤسسات والتوجهات، وإنه يتوقف على ذلك التغيير عمقا وشمولا، أمور جوهرية كثيرة ؛ وندرك معنى القول الكريم ومراميه وما يحدده من بدايات ونقاط انطلاق وهو :

{ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . }

ولأن لدينا اقتناعا بأنه يمكن أن نصون إرادتنا من الهزيمة، وثقتنا من التآكل وأمتنا من الانهيار ؛ فإننا نعلق أهمية على تحقق حوار إيجابي بين كل التيارات والتنظيمات الفكرية والسياسية المعنية بأمر الوطن والمستقبل والمصير والقيم، على أرضية الانتماء والوضوح والصراحة؛ حوار تحكمه قيم المنطق والمواطنة والديموقراطية ويسوده احترام لحرية التعبير ولحرية الآخر وحقه في الاختلاف، على ألا تكون مقومات الوطن والقيم الوطنية هي موضع الاختلاف، فتلك تخرج الخارج عليها من دائرة الحرص والانتماء والحق كليا، ليصبح صوت العدو أو أداته أو داعية في ركابه لمقولاته ومشاريعه واحتلاله وعنصريته واستعماره.

فلا وطنية على حساب الوطن، ولا تغدو الحرية حاملة لقيمها ومقوماتها ومشروعيتها وقداستها وتأثيرها حينما تتحول إلى دعاية لمشاريع عدو الوطن والشعب والعدل ومن يحتل الأرض ويبيد الناس ويمارس عنصرية بغيضة رفضتها الأمم وأدانتها . (١٢)

إن الانتماء الوطني والقومي والعقيدي ليس موضوع اختلاف إلا عند من يخرج على ذلك ويرفضه، وحين يفعل ذلك من يفعله يكون قد اختار /بحرية/ اختيارا مغايرا لاختيارك وانتمائك ؛ ويمكن أن تحاوره على أرضية المثاقفة أو الصداقة أو المعرفة.... ولكن ليس على أرضية الانتماء لأهداف أمة ومقومات هوية والحرص على مواطنيه وقضية ووحدة مصير !! فهو

الآخر من خارج وليس الآخر الشريك في الوطن والمصير والآلام والأماني والتطلعات والمعاناة والأحلام، أنه آخر من خارج التاريخ، وقد يكون العدو أو حليفه اللذين تقاومهما وتقاتلهما وتحاول أن تعرف الكثير، أو يجب أن تعرف الكثير، عنهما، ولكن تحت شعار وحقيقة: اعرف عدوك لتنجح في صراعك معه، لا تحت شعار اتبع عدوك لتنهي صراعك معه على حسابك أنت ؟!!

إن دعاة التطبيع اختاروا العدو ومشاريعه وسياسته وتشربوا منطقه ومقولاته وشعاراته، ويريدون خوض حربه من داخل البيت، وهم يرفعون الصوت بكلمات حق يراد بها باطل، ولذلك نريد أن ننزع كل الأقنعة وأن تسقط الازدواجية، وتتضح المعايير، فتوحد أو تتباين، ويظهر التمايز على نحو صادق صارخ من العلنية والشجاعة والمنطق والانتماء الصراح، من دون استسلام لمنطق الواقعية الانهزامية ومقولاتها، ولصيغة المغلوب يقلد الغالب، التي يمثلها ويمارسها بتعال تعالمي بائس، نفر من دعاة التطبيع ورموزه والمروجين له، باسم الانفتاح الفكري"، والحضارية" الساداتية الكئيبة، التي جرت على أمتنا العربية الويلات، وباسم الحداثية الهجينة، التي تفعل فعل نقار الخشب وحفار الساق في أشجار حديقة تنقصها السقاية والعناية والرعاية على أسس علمية سليمة.

وقد ركز رافضو الاعتراف بالكيان الصهيوني ــ حتى لو اعترفت الأنظمة العربية كلها به ــ الذين ينظرون إلى الصراع العربي الصهيوني بوصفه صراع وجود وليس نزاعا على حدود (١٣)، والداعون لرفض التطبيع بكل أشكاله ومستوياته (سياسية ــ اقتصادية ــ ثقافية....الخ)، ركزوا بعض رؤيتهم واجتهاداتهم ووجهة نظرهم في ميثاق المثقفين العرب /عمان/ ١٥/١٢/١٩٩٢ *

هذا عرض موجز ابتعدت فيه، قدر الإمكان، عن سرد وقائع وتقديم نماذج ووثائق، مما حفلت وتحفل به الحياة السياسية العربية، والاتفاقيات الموقعة بين بعض الأنظمة العربية والعدو الصهيوني/ كامب ديفيد ــ أسلو، القاهرة ــ وادي عربة... الخ/ وما هو قيد المفاوضات، وكذلك ما تضج بوجوده أجهزة الإعلام / المقروءة والمرئية والمسموعة/ مما هو معروف

بدرجة أو بأخرى من قبل المهتمين والمعنيين والمتابعين، وقد حرصت على تقديم وجهتي النظر باجتهاد مني وبيان موقعي تماما .

وأترك الموضوع ليجلوه ويعمقه ويغنيه ويصوب ما يستدعي التصويب فيه، الحوار، الذي هو الأساس والممول عليه في هذا المجال.

وأتقدم بمشروع برنامج عمل مقترح، ينضجه ويعمل عليه من يرون مقاومة الاعتراف بالعدو الصهيوني، ويرفضون تطبيع العلاقات معه، وينذرون بعض جهودهم لذلك العمل . وبين يدي هذا البرنامج أعرض الأسئلة والإشكاليات الآتية :

التطبيع بين العرب والكيان الصهيوني أخذ يتسارع، ومن لم يلتحق بركبه بعد يبحث عن وسيلة للوصول إلى تلك الغاية، والذين فتحوا بابه أول مرة تحولوا من أبالسة رجماء إلى قادة عظماء، لأنهم أدركوا قبل غيرهم متطلبات اللعب، في عصر تتغير فيه قوانين الألعاب السياسية بسرعة فائقة، ضاربة عرض الحائط بكل القوانين الخلقية والإنسانية .ومن يقف من العرب في آخر صف التسوية، أو بعيدا عنه يزاحم الآن بالمناكب ليأخذ موقعا متقدما في صف التطبيع ؛ ولنا أن نسأل :

ترى ما الذي حدث للناس .. وما الذي غير التوجهات بهذا القدر من التغيير ؟!

هل كان العرب على صلة سرية مباشرة بأعدائهم كل هذه السنوات حتى إذا ما فتح الباب إلى العدو ولجوه زرافات ووحدانا !! كأنما هم نهر ملجوم بسد، منخور الداخل مطلي الخارج، تحركت حجارته من مواقعها دفعة واحدة فتهاوى بين عشية ليلة وضحاها !؟ أم تراهم كانوا يتعلقون بالقضية الفلسطينية على حرف ، ويؤمنون بحقهم على حرف، ويتآخون على حرف، حتى إذا تبين لهم أن الوقت قد آن لإظهار ما يبطنون قلب بعضهم لبعض ظهر المجن، وقلبوه لأنفسهم أيضا، ولم يشعر أي منهم بأي حرج من أي نوع، لأن كلا منهم لبس قناعه ودفن حياءه، ولم يعد يلزمه شيء مما كان يلزم ويحرج عربيا !؟ كل ذلك جائز ولكنه كله لا يغير من النتيجة النهائية التي آلت

إليها الأمور في الوطن العربي اليوم شيئا .

العرب إذن يتسابقون على تطبيع علاقاتهم مع العدو الصهيوني، ومن له منهم حظوة أكبر لدى ذلك العدو أو لدى حليفه الأكبر : الولايات المتحدة الأميركية، يحمل من لا حظوة له . وتصل الأمور في بعض الأحوال إلى حد أن تحتج الإدارة الأميركية على "إسرائيل" وعلى عربي مقرب ذي حظوة، لأنهما يتصلان ببعض العرب، من طالبي القرب والرضا والتطبيع، من وراء ظهرها ومن دون مراعاة لمصالحها ــ كما يحدث الآن مع العراق ــ وفي مثل هذه الظروف والأوضاع والمواقف العربية . ما الذي يستطيع فعله عرب يرفضون العدو وكل أشكال تطبيع العلاقات معه، بل يرفضون الاعتراف به والاتصال والمهادنة، لا سيما إذا كان أولئك ممن لا يملكون قرار الناس ولا يملكون لهم نفعا مباشرا كذلك الذي زود به أهل التطبيع ؟! وكيف يمكن أن يقدم أولئك أنفسهم وآراءهم ومواقفهم للناس وهم لا يملكون سوى حفنة من الأقوال التي تنطوي على مبادىء خلقية وتطلعات قومية مكلفة، يقال إنه قد تجاوزها الزمن ولم يعد لها سعر في أسواق اليوم !! وهم لا يجدون طريقهم إلى الوصول إلى الرأي العام، الذي يهمهم أمر الوصول إليه، من خلال أقنية الإعلام، لأنها مملوكة من قبل الدول، ومحكومة جيدا بسياسات، وعليها أن تراعي كثيرا من الاعتبارات والمعطيات والمتغيرات وفنون الممكن ؟!!

إن هذا السؤال، على مرارته وواقعيته، لا يمكن أن يلغي مسؤوليتهم ولا أن يعطل فعاليتهم، كما أنه لا يعفيهم من المسؤولية إن هم قصروا، ولا يشكل موضوع تبرئة ذمة لهم، وهم لا يتطلعون أصلا إلى فعل يأتي تبرئة للذمة، فالقضية لدى هؤلاء ــ كما أفترض ــ ترتبط بقناعات : مبدئية، قومية، وخلقية ؛ كما ترتبط بانتماء نوعي للوطن والحق والحرية والكرامة، وعلى ذلك فإنها لا تقاس بمقياس الربح والخسارة .

ما من شك في أن على من يختارون رفض الاعتراف بالعدو الصهيوني من العرب،ويتصدون لمحاولات تطبيع العلاقات معه، ويعملون على إفساد كل ما يؤسس لكل تطبيع معه من أي نوع ؛ ما من شك في أن عليهم أن يتحملوا تبعات اختيارهم أولا، وأن يبحثوا عن وسائل وأساليب عمل وأداء تمكنهم

من تحقيق مواجهة ناجحة وفعالة في ميدان حاشد بالفعاليات المناوئة، خلال توقيت ملائم يجعل من الفعل المختار أداؤه فعلا ذا جدوى، في حدوده أولا وفي مردوده ثانيا .

لقد قلت سابقا، وفي أكثر من مناسبة وموقع، كتابة وخطابة، إن أهل الثقافة بالمفهوم الواسع والشامل للثقافة من أبناء الأمة العربية، هم المطالبون قبل سواهم والمعنيون أكثر من سواهم من أبناء الأمة، بحكم الوعي والموقع الاجتماعي والمسؤولية التاريخية والاختيار الطوعي للدور، وبحكم المنزلة الاجتماعية والمسؤولية الفردية ؛ هم المعنيون والمسؤولون عن مواقف ومبادرات في مثل هذه الظروف والمحن والتصرفات، تحمي الذاكرة والوجدان وتبقي القضية حية في العقول والضمائر، وتجعل الأجيال العربية تعيش قضاياها بعمق ووعي، وتؤسس للتحرير ولو بعد عقود من الزمن أو قرون ؛ وأن تمنع ضياع الحق العربي في فلسطين ابتداء من الجغرافيا والتاريخ وانتهاء بذاكرة الأجيال ووجدان الشعب، بإبقائها على حالة الصراع مع العدو الصهيوني على حالها في جوهرها، ورفض قبوله بأي حال وعلى وجه من الوجوه ضمن النسيج الجغرافي والاقتصادي والاجتماعي والسياسي والأمني للمنطقة بإرادة أهلها . فليبق، إذا بقي، كيانا مزروعا بقوة القهر والإذلال، وليبق على حقيقته : كيانا عنصريا دخيلا ليس له صلة بالمنطقة إلا صلة الغازي الدخيل الذي تزيله المقاومة وتفنيه .

ما لم ينسب، أهل البلاد الأصليون الذين تعود الأرض إليهم وإليهم وحدهم، بوصفهم جزءا من أمتهم العربية وليس بديلا لها يلغي حقها في الوطن ــ فلسطين ــ وفي المقدسات الإسلامية والمسيحية . وانطلاقا من ميثاق المثقفين العرب، الذي أصبح أرضية مستقرة للعمل لدى شرائح عريضة من الكتاب والأدباء العرب، لا سيما بعد اعتماده من قبل مؤتمرهم العام السابع عشر ــ عمان ١٩٩٢ ــ وانطلاقا من المسؤولية التي يرتبها عليهم الوعي والانتماء معا، وسعيا وراء فعل ناجز مفيد في هذه الظروف الصعبة بالذات، فإنني أرى التوجه نحو المواقف والأفعال والتصورات الآتية :

١ــ أن يكف القطاع الأعظم من المثقفين عن الانتظار حتى يتبين لهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود ليتخذوا، في ضوء ذلك، موقفا . ذلك لأن الأمور اتضحت تماما لمن يريد أن يتخذ موقفا في ظل الوضوح، ولأن مثل هذه القضايا وهذه المواقف لا يحتاج إلى مثل هذا الانتظار المشين ؛ فمن يقف إلى جانب التطبيع ويختار ذلك الاختيار عليه أن يسلك طريقه من دون مراوغة، ومن يرفض التطبيع مع العدو عليه أن يسلك طريقه من دون تردد، فالأحداث تتوالى والتطبيع ينتشر والمواقع تتهاوى موقعا بعد موقع، ونحن لا نملك إلا ترددا وانتظارا ؛ وهذا لا يليق بأهل قضية ومبدأ ورأي، كما أنه ليس في صالح أي قرار لمقاومة التطبيع نتخذه لاحقا . إذن فلا بد من حسم الأمر بالنسبة للقطاع الأكبر من المثقفين في هذا الموضوع الرئيس وبأسرع وقت .

٢ــ أن يتم اختيار برامج عمل، لمن يرفضون التطبيع، تأخذ بالاعتبار أن شعبنا يتعرض يوميا لضخ إعلامي هائل من مصادر عربية وأجنبية، صهيونية وغربية، وكلها تعمل لتهيئته لقبول العدو الصهيوني كحقيقة واقعة ؛ وتوحي له بأن ذلك القبول سوف يجعله يرتع في الخيرات من كل لون (؟!؟) كما تركز على مخاطبة احتياجاته متناسية واجباته وحقوقه الوطنية،أو جاعلة إياه ينسى تلك الواجبات والحقوق. وابن الشعب البسيط لدينا يهمه أن يتخلص من المعاناة ولكنه ليس على استعداد ــ فيما أقدر ــ لشراء رغيفه بكرامته، ولذلك فإن تركه يتعرض لأخطار هذا الضخ المتلاحق لإعلام التطبيع والتطميع بألوان الرفاه والسعادة، على أرضية السلام " الإسرائيلي " القادم، ليس في مصلحته الآن وليس في مصلحة من يرفضون التطبيع مستقبلا ؛ لأن ذلك سوف يجعل جموعا من البسطاء، لا يستهان بعددها، تتراخى وتستسلم للوعود الكاذبة، بينما يثبت العدو دعائم استقراره وسيطرته في المنطقة، ويتوجه نحو المراحل القادمة من مشروعه الاستيطاني، بينما شعبنا يعيش حالة الاسترخاء المديدة أو حالة الإحباط الشديدة .

ويتوجب على من يختارون رفض الاعتراف بالعدو الصهيوني ومقاومة تطبيع العلاقات معه أن يصلبوا مواقف جماهيرهم ويحموها، وأن يدعوها إلى ممارسة نضالية واضحة محددة المعالم، في إطار برنامج عمل

مدروس من شأنه أن يؤدي، عند التطبيق، إلى شل التطبيع وإلحاق الأذى ببرامجه ؛ ولا يكون ذلك بالسكوت والتمني، ولا بالاعتماد على العواطف القومية النبيلة والأصيلة للجماهير، التي نوقن بأنها سترفض التطبيع لأنها ترفض العدو ولا يمكن أن تقبله ؛صحيح أن جماهيرنا نظيفة وصبورة ومتمسكة بأرضها ولديها الاستعداد الكبير للتضحية، ولكنها لن تصمد إلى ما لا نهاية ومن دون معين، للحملات المنسقة التي تشارك فيها أجهزة الإعلام العدوة والصديقة .

٣ــ من المسلم به أن كل ساحة عربية لديها خصوصيتها النسبية في هذا النوع من المواجهات، تبعا للأنظمة والقوانين المعمول بها، ولدرجة التطبيع المقطوعة فيها، نظريا وعمليا، علنيا وسريا، إلا أن معسكر التطبيع العربي الذي يتسع، ينسق جهوده أو يفرض عليه تنسيقها، ولو في مرحلة متأخرة، لأن ذلك هو مطلب الآخر إذا لم يكن مطلب أنظمتنا !؟ وهذا يستدعي منا التفكير جديا بإيجاد نوع من التنسيق فيما بين من يرفضون الاعتراف بالكيان الصهيوني ويدعون إلى مقاومة تطبيع العلاقات معه ؛ فكيف نفعل ذلك في ظل غياب موقف قطري واضح للمثقفين الذين يقاومون التطبيع في كل قطر على حدة وفي ظل عمليات العزل التي تتم قطريا لأولئك الذين يعارضون خطوات أي نظام عربي في أي مجال من مجالات التطبيع، بل في أي مجال من مجالات الحياة ؛ بذريعة أنهم ينالون من العصمة العليا بفعلهم ذاك ما لا يناله سواهم، ولا يدركون ما يفعلون لعلة فيهم أولغياء !؟

٤ــ أن نحول ثوابتنا المبدئية والقومية، التي نص عليها الميثاق، إلى برامج عمل متفق عليها وقابلة للتنفيذ بمرونة، حسب الظروف والحالات والإمكانات والأقطار والأنظمة، وهذا يتطلب منا بذل جهد مشترك، في حدود دنيا على الأقل، ضمن صلاحيات لا نختلف عليها، ومرجعية نجمع عليها . فكيف نفعل ونحن لا نملك ذلك حتى الآن ؛ ولا نتحرك جيدا لنملكه ؟! وكيف نفعل وقد استقر رأينا على أن نحكم قرارنا ونحرره ولا نجعل لأحد سلطة عليه من أي نوع، في الوقت الذي لا نملك فيه تماما مقومات تحرير ذلك القرار ؟! تلك إشكاليات علينا أن نواجهها، ومشكلات لا بد أن نلتمس حلولا لها، وهي

مما ينبغي أن يحظى باهتمام نوعي خاص وبكثير من الجهد والاجتهاد، مما يخدم ويقدم على سواه .

إن إشكالية تحرير القرار من كل شكل من أشكال التبعية والحصار، في عصر يصعب إلغاء الحاجة فيه إلى المادة، تبدو إشكالية مستعصية على الحل ولكنها في الوقت ذاته تملك، بوصفها إشكالية، إغراءاتها المعنوية الكبيرة وموثباتها الروحية الضخمة ؛ ولا يمكن فصلها عن أرض خصبة تعيش فيها، قوامها الإيمان والحق والشعب والكلمة المستنبتة على جذوع الشهادة وفروعها ؛ كما لا يمكن فصلها عن تاريخ عريق من النضال من أجل وطن ومقدسات وقيم ورسالات .

٥- إن كل مواجهة للتطبيع في ظل الاعتراف الرسمي بالعدو الصهيوني ستؤول، في مرحلة من مراحلها، إلى نوع من المواجهة بين من يلتزمون بالتطبيع ويتعهدون بتنفيذه، ومن يقاومونه ويأخذون على أنفسهم مسؤولية إفشاله ؛ وستجر بالتالي إلى مواجهات لا يكون العدو طرفا مباشرا فيها بل المستفيد الوحيد منها . فكيف السبيل إلى عدم صرف جهد في مجال أو طريق لا يلحق الضرر بالعدو وإنما يخفف عنه الضرر ؟؟

تلك قضية قادمة إلى الساحات العربية التي ستجري فيها مقاومة جلدة للعدو، وقد سمعنا وقرأنا وربما شاهدنا نماذج لها في أقطار عربية تم فيها خوض مثل هذا النضال، ولا بد من الاستفادة التامة من الدروس التي سجلتها تلك المواجهات في ساحات عربية، كما أنه لا بد من الاستعداد التام للعديد من المفاجآت في كثير من المواجهات على هذا الصعيد .

وهذا يتطلب استعدادا نفسيا وروحيا وماديا له، كما يتطلب استخلاصا مسبقا للعبر المستقاة من ذلك ، واستعدادات مسبقة أيضا لكل الاحتمالات والنتائج .

٦- إن التطبيع الذي أخذ يعصف بساحات عربية كثيرة، وبدأ يجتاح المداخل المؤدية إلى حصن الثقافة ذاته - وهو القلعة الأخيرة للدفاع عن الحقوق والثوابت العربية - سوف يطرح فكر العدو ورأيه وثقافته، من خلال

نوافذ ورموز تطبيع عربية، وسوف يستدعي ذلك ردا، أي تفاعلا من نوع ما مع ذلك الفكر وتلك "الثقافة" ؛ فكيف سيكون رد فعلنا على ذلك، وما هو موقفنا من مروجي التطبيع الذين يدخلون مداخل المثاقفة الضرورية لنا لمعرفة الآخر وإغناء الحضارة الإنسانية، تحت شعارات مختلفة ؟! هل سنكتفي برفض ذلك وعدم التعامل معه ونتركه يكبر ويستشري، أم نرد عليه ونتعامل معه فندخل من حيث لم نرد مداخل التطبيع بالتعامل مع الآخر سلبا أو إيجابا ؟؟

من المسلم به أن معرفة العدو بهدف مقاومته شيء، والتعرف عليه بهدف مصادقته شيء آخر، مختلف تماما، ومن المسلم به أيضا أن الصراع الذي يخاض ضد العدو على أرضية الحرب شيء، والخلاف الذي يكون معه على أرضية السلم شيء مغاير تماما ؛ فكيف سنواجه قضية قادمة من هذا النوع، يحملها إلينا بعض العرب من أهل بيتنا ويستنبتونها في عقول أبنائنا وضمائرهم، وفي مناهجهم التربوية والتعليمية، وفي ثقافتهم وإعلامهم ؟! وكيف سنتصدى لاتهاماتهم ونعوتهم عندما سيلقون في وجهنا صفات : التحجر، والبعد عن العصر، والشوفينية، وهي صفات اعتدنا على سماعها ممن ألحقت بهم الصهيونية مؤخرا ضربات مدمرة جعلتهم يستيقظون ولكن ... ألف ولكن !!؟

ـ هل سيكون ردنا منطقيا هادئا أم انفعاليا متشنجا ؟ وهل سيخرجنا أولئك من دائرة الانتماء للوطن والأمة ومحبة السلام والآخر، بمساندة بعض السلطات العربية، كما فعل سواهم من قبل، أم أننا سنجد علاقة موضوعية تحمينا، وتحفظ لنا في الوقت ذاته، قدرة على العمل والمواجهة بإيجابية تليق بحقنا، ونملك أسلحة العصر ومنطقه، أيا كان حكمنا على أسلحته ومنطقه ؟!؟

إنها أسئلة من الضروري أن نطرحها على أنفسنا بكل الجدية والشجاعة لكي نواجه، حين نواجه، بقدرة وحزم واقتدار ؛ ولكي نرد، حين يستدعي الأمر الرد، بكل القوة التي تليق بأمتنا وبحقنا المغتصب، وبموقفنا الذي نريد له أن يكون نظيفا وقويا وسليما .

فهل نقبل على ذلك التحدي ونقبله قبل فوات الأوان، أم ترانا ننتظر،

كعادتنا، إلى أن يفوتنا الركب فنغرق في الحسرة على ما فاتنا؟؟

إنه سؤال من الأسئلة المطروحة علينا أيضا، وما أكثر الأسئلة التي تنتظر أجوبة على أبوابنا، في عصر لا ينتظر قطاره النائمين !!!..

مشروع برنامج عمل لمواجهة التطبيع :

١ ــ تفنيد ما يقدمه الإعلام العربي والغربي والصهيوني من حجج وتسويغات وذرائع لتهيئة العقل والوجدان العربيين لتطبيع العلاقات مع الكيان الصهيوني بكل الوسائل.

٢ ــ مقاومة الجهود التي تبذل لتغيير المناهج التربوية والتعليمية في المدارس العربية، لا سيما في الجغرافيا والتاريخ والتربية الوطنية والقومية والدينية؛ لكي تبقى المعلومات والقيم والتوجهات التي تكرس عروبة فلسطين في الأذهان والوجدان، ويبقى العدو الصهيوني في المنظور المرحلي والاستراتيجي، عدوا محتلا غريبا عن المنطقة، مغروسا فيها بقوة القهر، ويستدعي وجوده استمرار النضال المشروع بكل الوسائل الممكنة لتحرير الأرض العربية منه؛ حيث أن الصراع بين العرب والكيان الصهيوني هو صراع وجود مع وجود وليس نزاعا على مصالح أو حدود.

٣ ــ المحافظة على المصطلحات والتسميات والوقائع التي رافقت الصراع العربي الصهيوني، ونتجت عنه وتدل عليه، وتجديد ذلك في الذاكرة الشعبية والوجدان الجمعي حتى لا يضمحل أو يزول.

٤ ــ نبذ صيغة أو تسمية " الشرق الأوسط" عن المنطقة، ورفض استخدامها ومناهضة ذلك الاستخدام، والتشبث بالتسمية الأصلية والتاريخية للمنطقة: الوطن العربي الذي منه بلاد الشام أو سورية الطبيعية، حيث فلسطين، وإعادة التذكير بالأطماع والتاريخ والمخططات والمعاهدات والمؤامرات الغربية و الصهيونية وبالوجود الاستعماري الذي تحولت بسببه هذه المنطقة إلى تقسيمات سياسية اكتسبت صفة الجغرافيا السياسية ومقوماتها، وكرست دول: سورية ــ لبنان ــ فلسطين ــ الأردن ــ العراق... الخ وما تلك الدول في الواقع إلا حصيلة تطبيق معاهدات استعمارية منها :

سايكس بيكو التي فرضت على العرب في فترة ضعف، ولم يكن لهم يد فيها ولا قدرة على نقضها ورفضها.

والعمل على إبقاء ذلك كله حيا في الأذهان ومؤثرا في توجهات التفكير والتربية والعمل والتنظيم.

٥ ــ مناهضة المروجين " لإسرائيل" والمتعاملين معها والمقرين بوجودها وبتطبيع العلاقات معها، على أي مستوى وصعيد، وفضح أهدافهم وممارساتهم أمام الشعب، ومقاطعتهم، ودعوة النّاس إلى مقاطعتهم، وإبقاء الصيغ السابقة المتعلقة بالمتعاملين مع العدو الصهيوني ملصقة بهم، إلى أن يحين وقت تجريم أفعالهم ومحاسبتهم .

واستعمال شحنة عاطفية، تستمد من تاريخ النضال ومن القيم الوطنية والخلقية والدينية، في مقاومة أولئك النفر . وإشعارهم وإشعار الناس من حولهم، بأنهم إنما يضعون أيديهم بأيدي الصهيونية العنصرية، والعنصريين الذين يحتلون أرضهم ويقتلون أبناءهم وأخوتهم وآباءهم؛ وأن تلك الحقائق ينبغي ألا تغيب عن الأذهان، وسوف يحفظها تاريخ الأمة وذاكرة الشعب.

٦ ــ التعاون مع الاتحادات والنقابات المهنية على المستوى القومي، لوضع صيغ وبرامج من شأنها مقاومة كل أشكال الوجود الصهيوني في البلدان العربية ودعايته وبضائعه وأنشطته ومشاركات في العمل العربي، وحث الناس، في البلدان التي عقدت أنظمتها اتفاقيات مع الكيان الصهيوني، على مقاومة تلك الاتفاقيات وإفشال كل تعاون مع ذلك الكيان، ومقاطعة من يتعاونون معه.

والعمل على مساعدة الجهات العاملة ضد التطبيع في تلك الأقطار لتتمكن من إجراء تعديلات قانونية من شأنها أن تلغي ما أضفي من صيغ قانونية على الاتفاقيات وعلى تطبيع العلاقات مع الكيان الصهيوني.

٧ ــ التصدي للمشاريع التي يعمل الكيان الصهيوني على إقامتها في المنطقة بالاشتراك مع دول عربية ومنظمات دولية مثل اليونسكو ــ والبنك الدولي ــ وصندوق النقد الدولي، وبنك التنمية الإقليمي في الشرق الأوسط

وغير ذلك من المؤسسات الدولية والإقليمية المعنية ومن تلك المشاريع:

إعادة كتابة تاريخ المنطقة ـ إقامة دور نشر ووسائل إعلام (مقروء ومسموع ومرئي) تخدم التطبيع ـ العمل في مجالات التربية لتغيير المناهج التربوية ـ إقامة مراكز أبحاث ومعلومات علمية مشتركة ـ ومشاريع زراعية ـ تقاسم مياه ـ سياحة ـ طرق ـ منتجعات سياحية ـ تحلية مياه ـ شراء نفط ـ اتفاقيات نقل ومرور جوي واتفاقيات كهربة مختلفة ـ بنوك "بنك التنمية للشرق الأوسط ..."

٨ ـ إيجاد أقنية اتصال مع العالم الخارجي، ووسائل إعلام وتوصيل، واستغلال الأقنية القائمة، لإيصال وتوضيح وجهة نظر جبهة المواجهة الثقافية الرافضة للاعتراف بالعدو الصهيوني والمقاومة لتطبيع العلاقات معه؛ واستعمال كل وسائل الاتصال الحديثة الممكنة لتحقيق ذلك.

٩ ـ إقامة علاقات إيجابية مع مراكز الأبحاث والمعلومات العربية والصديقة لمواصلة التبادل وتكثيفه ورصد التحولات والتحركات الجارية في هذا المجال، والاستفادة منها في تقويم العمل ورسم الخطط وإعادة تقويم ذلك دوريا .

١٠ ـ العمل على إنشاء وكالة أنباء عربية قادرة على إيصال الرأي والخبر والموقف في الساحات التي يتم فيها عمل يصب في مجرى استمرار الصراع العربي الصهيوني ومقاومة التطبيع، وتوفير الإمكانات والطاقات المادية والبشرية، اللازمة لذلك.

١١ ـ إيجاد منابر، والتعاون مع منابر، ثقافية وإعلامية قائمة، جادة ملتزمة بهذا الاتجاه،وإقامة علاقات بينها وبين منابر صديقة في العالم.

١٢ ـ تكوين مجموعات متابعة وتحريك "لوبي" في كل المجالات التي يتناولها التطبيع، وتنسيق جهودها، واستثمار تلك الجهود سياسيا وإعلاميا واقتصاديا وثقافيا، وتوفير الإمكانات اللازمة لذلك.

١٣ ـ تكثيف الحوار بين التيارات السياسية والثقافة الفاعلة في الوطن العربي " التيار القومي ـ التيار الإسلامي ـ التيار اليساري ـ التيار

الليبرالي "...وصولا إلى المشترك بهدف :

أ ــ توسيع دائرة المشترك بين تلك التيارات، وتقديمه علــى كـل مـا سواه.

ب ــ تعميق التفاهم والتواصل، وإيجاد سبل التعاون ووســائله، وأداء أعمال ومهام مشتركة على أرضية الميثاق والمشترك.

١٤ ــ تنظيم الندوات واللقاءات الجماهيرية فــي المــدن والمنــاطق والأرياف حول مواضيع وقضايا من شأنها أن تعمق الوعي وتثبت المواقــف وتزيد التمسك بأهداف الصراع العربي الصهيوني، ومقاومة التطبيع ؛ وإقامــة شبكة شعبية واسعة تعمل من أجل ذلك بمبادرات ذاتية، وحسب مــا يقتضيــه الأمر في ساحات وجودها.

١٥ ــ إقامة نــدوات وحلقــات بحــث متخصصــة ومعمقــة حــول مواضوعات الصراع العربي الصهيوني والحق العربي في فلســطين والأبعــاد التاريخية والدولية والاقتصادية لذلك، وكذلك عــن موضوعــات: الحريــة ــ الديمقراطية ــ الحقوق والحريات العامة للمواطن... الخ والقضايــا الملحــة الأخرى تلك التي تطرحها التحديات ويمليها احتدام المواجهات، لا ســيما فــي المجال الثقافي؛ ونشر تلك الأبحاث والاستخلاصات والمناقشات فــي كتــب أو نشرات خاصة تكون متاحة لطالبيها، وتغطيتها في الصحافــة وفــي وســائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية.

١٦ ــ العمل على تعميق المناهج التربوية ذات التوجه العربي واحــترام قيم الدين والتركيز في التعليم على العلوم وتطبيقاتها لترسيخ امتــلاك العلــوم والثقافة والقوة القائمة على ذلك الأساس.

١٧ ــ تشجيع البحث العلمي وتطبيقاتــه بجميــع الوســائل وعلــى المستويات المختلفة لا سيما في الجامعات، والتعاون العربي والإســلامي فــي هذا المجال، وتوفير الإمكانات المالية والبشرية اللازمة للاستفادة من جــهود الباحثين في هذا لمجال.

١٨ ــ شرح وجهة النظر التي يستند إليها اختيارنا عبر وسائل الإعلام

الصديقة، وكسب أصدقاء ومتفهمين لها ومتعاطفين معها، والتأكيد في هذا المجال على:

أ ـ بقاء أكثر من نصف الشعب الفلسطيني خارج وطنه، والنصف الآخر تحت الاحتلال الصهيوني المباشر أو غير المباشر.

ب ـ امتلاك "إسرائيل" للسلاح النووي ورفضها توقيع الاتفاقيات الدولية المتعلقة بمنع انتشار الأسلحة النووية، وتطوير أسلحة الدمار الشامل، واستمرار ممارستها العنصرية، واستيطاناتها التوسعي، ومشروعها الاستعماري وتحالفها العدواني مع الولايات المتحدة الأميركية لتأمين مصالح وسيطرة ونفوذ للحليفتين على حساب الشعب العربي وثرواته وتقدمه ومشاريعه المستقبلية.

ج ـ عدوان "إسرائيل" المستمر على جنوب لبنان، واحتلالها للأرض العربية، وملاحقتها للفلسطينيين في الداخل وتنفيذ مسلسل إبادة بطيء ضدهم، وانتهاكها المستمر لحقوق الإنسان في السجون والمعتقلات التي تقيمها في فلسطين المحتلة ؛ وفضح عدوانها على الحقوق المدنية للعرب الواقعين تحت الاحتلال، وتاريخها العريق في ممارسة الإرهاب ـ إرهاب الدولة والمنظمات والأفراد ـ وقيامها بذبح الأسرى الذين سقطوا في أيدي قواتها في الحروب.

١٩ ـ دعم كل أشكال المقاومة للعدو الصهيوني، داخل فلسطين المحتلة وخارجها، ورفع أبطال العمليات الاستشهادية النوعية كنماذج تحتذى، واستلهام تلك البطولات والتضحيات بأشكال مختلفة لتكون مصدر دفع نوعي للصمود والمقاومة ومستنبتا للوطنية والبطولة والأمل. ولتشكل حالة مستمرة من إرهاق العدو واستنزافه.

٢٠ ـ مواجهة عمليات تشويه المقاومة ومسخها وتصويرها : إرهابا، ومحاولات تقديم الشهيد على أنه المخرب والمقتول بعدوانه على الآخرين؛ والتأكيد على مشروعية مقاومة المحتل وشرعية ذلك الفعل، وتقديم حقيقة ما

يقوم به الكيان الصهيوني من إرهاب وجريمة منظمة تقوم بها الدولة، ومن إبادة للجنس العربي على أسس عرقية ودينية، وكشف أهداف العدوان المنظم الهادف إلى اقتلاع الشعب الفلسطيني من أرضه وطرده خارجها بعد الاستيلاء على تلك الأرض.

٢١ ـ إيصال ما ينطوي عليه برنامج الاستيطان الصهيوني التوسعي من أهداف وأخطار على السكان العرب الأصليين في الأراضي المحتلة، وعلى الأقطار العربية المجاورة.

٢٢ ـ العمل على إبقاء المقاطعة العربية " لإسرائيل " مستمرة ونشطة، والبحث عن وسائل لمواجهة من يضعفها أويخرقها من العرب.



الهوامش :

١ ــ يعني "سلام " : " أوسلو، غزه ــ أريحا "وسلام" اتفاقية وادي عربة التي كانت معدة تنتظر التوقيع بعد دفع الفلسطينيين أولا، وتيمنا بهم والسير على خطاهم(؟)

٢ ــ حضر الملتقى من المثقفين العرب: إميل حبيبي ــ بشارة عزمي ــ المتوكل طه (فلسطين)، الطاهر بن جلون (المغرب)، علي الفرجاني (تونس)، لطفي الخولي ــ محمد سيد أحمد ــ بهجت النادي ــ عادل رفعت (مصر)، أدونيس (سورية كما ذكر) .

٣ ــ الاحتفال ببدء انسحاب القوات العسكرية الصهيونية تنفيذا لاتفاق أوسلو في ١٣/١٢/ ٩٣ وهو الأمر الذي رفض رابين تنفيذه في آخر لحظة قائلا : لا يوجد مواعيد مقدسة .

٤ ــ أقترح درس لمنهاج الصف السادس الابتدائي، في إطار التطبيع القائم بين المملكة الأردنية الهاشمية والعدو الصهيوني بعد اتفاق وادي عربة يحسن بنا أن نتوقف عنده قليلا:

[داود وعبد القادر وأحمد يملك كل منهم حقلا مجاورا لمنبع ماء فإذا قام داود بالاستيلاء على الماء فإنه يحرم أحمد وعبد القادر من ري حقليهما ولن تنبت فيهما المزروعات وإذا قام أحمد وعبد القادر أو أي منهما بالاستيلاء على منبع الماء وحرما داود منه فإن حقله لن ينبت المزروعات أيضا وسيصاب بالجوع والعطش والطريقة المثلى هي أن يتعاون كل من داود وأحمد وعبد القادر للاستفادة من الماء واستثمار حقولهم بشكل إنساني وحضاري من دون خصومات، وهكذا يقدم للطفل في المرحلة الابتدائية درس يخاطبه بإنسانية ويقدم له منطقا مقبولا لتعايش وتعاون وتنسيق واستقرار لكل من داود وأحمد وعبد القادر أي "إسرائيل " والدول العربية الأخرى المجاورة .

ويغفل هذا الدرس ببساطة كل الحقائق المتعلقة بالصراع العربي الصهيوني ليقفز فوقها متجاوزا الحقائق الآتية :

١ - أنه لم يكن لداود أي حقل أصلا في المنطقة وأنه اغتصب الحقل أي أرض

فلسطين وطرد أهلها منها .

٢ – أن أصحاب الحقل الأساسيين الذي اغتصبه داود (الفلسطينيين) ما زالوا مشردين ولا يملكون أي حقل ومن حقهم أن يعودوا إلى أرضهم .

٣ – أن داود الذي اغتصب حقلا بالقوة، ما زال يملك القوة ويهدد كلا من أحمد وعبد القادر ويضع البرامج للاستيلاء على حقليهما ويأخذ كل حاجته من الماء بصرف النظر عن ماضيهما لأنه يملك السلاح .

٤ – أن أحمد وعبد القادر لا يملكان ما يدافعان به عن نفسيهما وحقليهما وحقوقهما وملكيتهما من الأرض والماء والماشية، وكل ما لديهم رهينة عند داود .

وفي ظل وضع كهذا لا توجد معطيات إنسانية وحضارية ولا توجد عدالة ، ولا بد من التوجه بخطاب تاريخي وواقعي وعادل (يربى عليه الأطفال وهو ما تريد اتفاقيات الإذعان تجاوزه باسم السلام).

٥ – فلنتصور موقف المعلمين والمدرسين أمام خريطة للوطن العربي فيها إسرائيل مكان فلسطين ماذا سيكون موقفهم وماذا سيقولون لطلابهم وما هي العلاقة التي ستكون بين طالب وأستاذ عندما يغير الأستاذ الوقائع والحقائق والمعلومات التي كان يلقنها للطالب قبل سنوات، إن الثقة والمصداقية والهيبة كل ذلك سينهار ؛ كذلك الأمر فيما يتعلق بتدريس وقائع التاريخ الجديد الذي سيقدم على أرضية اتفاقات الإذعان .

أما في مجال التربية الدينية فسوف تغفل كل الآيات القرآنية والأحاديث التي تتصل باليهود وسيكون هناك إمكانية للتدخل من قبل " إسرائيل " في أية مناهج ودروس أو تربية وقيم ترى فيها تأسيسا لتكوين عربي يقدم قيما مستقاة من التراث والعقيدة والواقع والتاريخ بحجة أنها تمس بكلام أو تشجع على العداوة . ولا بد من الإشارة إلى أنه منذ اتفاق كامب ديفيد ومصر تغفل التركيز على مثل تلك الآيات والأحاديث وحوادث التاريخ سواء في المناهج أو في وسائل الإعلام تطبيقا لتطبيع رسمي بصرف النظر عن موقف الشعب نفسه .

٦ ـ ويقصد المثقفون بقولهم ذاك الذي يصوغه بعض الغربيين الذين استقى منهم بعض العرب ذلك النهج ، يصوغون العبارة بشكل يرفض أية أصولية قومية أو إسلامية، وهم يقصدون دون بكلامهم عن السلام : "السلام النووي" الذي تفرضه الصهيونية على العرب بضغط أميركي، وما هو إلا اتفاقيات إذعان لا

صلة لها بأي شكل من أشكال السلام، ونحن نفضل شبرا محررا على يد أي عربي أو أية أصولية قومية أو إسلامية على "سلام " منقوص يشرعن وجودا صهيونيا في أرضنا على حساب شعبنا وكرامتنا. ونذكر بأن من يقدم دمه في سبيل الأرض والحرية هو الأفضل والأوعى والأجدر بالاحترام، وهو الشهيد والمناضل الوطني والمجاهد الحق وليس من يبيع الشعارات ويبيع الوطن والناس في كل سوق ويعود ليقبض أجره منهم !؟ متناسين، وهم يفعلون ذلك، أن الذين يجودون بدمائهم لتحرير الأرض المحتلة يحيون أصولا تعترف بشرعيتها تشريعات الأمم والقانون الدولي وشرعة حقوق الإنسان، وهي مقاومة الاحتلال، ويسكتون عن الأصولية الصهيونية البغيضة التي تمارس عنصرية وتبيد الجنس البشري، وتقتل المصلين في الحرم الإبراهيمي وهم سجد لله في فجر جمعة رمضانية، وتحتفل بالقاتل العنصري بصفته قديسا وبطلا، وتعلي أنموذجه (باروخ غولدشتاين).

٧ ـ ويؤكد أفراد ذلك الفريق أن العرب لم ينتصروا على " إسرائيل " في معركة، متناسين حقيقة أنه لم تقم مواجهة فعلية شاملة في يوم من الأيام، على مستوى عسكري، بين الكيان الصهيوني والدول العربية مجتمعة، فكل الحروب التي تمت مع ذلك الكيان بقيت فيها أطراف عربية متفرجة أو شبه محايدة، ووصل الأمر ببعضها إلى حدود التواطؤ مع العدو، ولذلك من الظلم القول إن العرب دخلوا حربا بعد استعداد مع الكيان الصهيوني وانهزموا فيها . ومن جهة أخرى فإن " إسرائيل" لم تخض حربا وحدها ضد أطراف عربية بل كانت تساندها دوما قوى الغرب / الولايات المتحدة الأميركية وأوربا / وأحيانا / في عام ١٩٤٨ مثلا / قوى أوروبا الشرقية عسكريا، وكانت تلك القوى العاتية تمدها جميعا بالسلاح والمال والمهاجرين وتساندها بالتغطية الإعلامية والحملات الدبلوماسية؛ فأي حديث ملفق يتم عن مواجهة عربية شاملة "لإسرائيل" وهزيمة عربية شاملة أمام " إسرائيل" ؟!!

ويتناسى أفراد ذلك الفريق أن مبادرة العرب في حرب تشرين ـ أكتوبر كادت تودي " بإسرائيل " لولا الأسطول الجوي الأميركي الذي أقام جسرا جويا كثيفا غير مسبوق في التاريخ لنجدة " إسرائيل "، وقد دقت غولدا مائير ناقوس الخطر ببرقيتها الشهيرة للرئيس الأميركي المؤلفة من كلمتين : " إسرائيل تحترق . " وكانت بعدها النجدة الأميركية التي حولت وجه الحرب إضافة إلى توقف الرئيس

السادات عن القتال تلبية لطلب " صديقه كيسنجر ؟!؟ " .

٨ ــ تلك مقولة الملك الحسن الثاني بصيغة أخرى، فقد دعا الملك إلى تعاون العقل والمال الصهيونيين مع طاقة العمل العربية ليكون في ذلك مخرج من التخلف ؛ فأراد أن نكون نحن العرب الأفواه والسواعد والبطون والأظافر في جسد يكون الرأس والقلب والعصب فيه، وكذلك العقل والعلم والتفكير، هو اليهودي ؟! لأننا برأي الملك لا نملك أن نكون رأسا وقلبا وعصبا وربما لن نملك عقلا وعلما؟!

ويخيل إلي أن الملك يطبق علينا مقولات هتلر البائدة وعنصرية الصهيونية السائدة، إذ يضعنا في سلم اجتماعي وعقلي متخلف خلقيا ؟! وتلك مقولات باطلة علميا، مدانة أخلاقيا وإنسانيا، فضلا عن كونها تنطلق من مصادرة لطبيعة الخلق وقدرة الخالق وللمستقبل ولحق أجيالنا وقدراتها فيه ؟! ولنا في هذه الحالة والملك يطبق علينا حكمة غريبة مريبة أن نحتكم إلى الله مرددين قوله تعالى:

{ إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة . } صدق الله العظيم .

٩ ــ قال قادة " إسرائيل " ذلك مرات عديدة وبمعان مختلفة ومناسبات كثيرة، وكان آخرها قول إسحاق رابين لهلموث كول مستشار ألمانيا في ٦ / ٦ / ١٩٩٦ فقد قال له : " إن الأصولية الإسلامية تشكل خطرا على العالم الحر بأسره " ... " وأنه لا بد من أن تقوم ألمانيا بدور للقضاء على الفاشية والنازية والأصولية الإسلامية " ؟! وعلينا أن نلاحظ بيقظة الربط بين الفاشية والنازية من جهة والأصولية الإسلامية من جهة أخرى، ومرامي ذلك ومعانيه ومدلولاته في الغرب !!.

١٠ ــ أنظر الحاشية السابقة رقم ٧

١١ ــ توصلت الولايات المتحدة الأميركية من خلال استخدام نفوذها وضغوطها على الدول العربية إلى:

١ ــ إنهاء المقاطعة العربية " لإسرائيل " من الدرجتين الثانية والثالثة من خلال إعلان دول مجلس التعاون الخليجي عام ١٩٩٤.

٢ ــ إلغاء الأردن للمقاطعة بشكل شامل مع " إسرائيل " تنفيذا لاتفاقية وادي عربة : "معاهدة السلام"

٣ ــ تأييد الحكم الذاتي الفلسطيني لإنهاء المقاطعة / إعلان طابا ــ شباط ١٩٩٥ /

١٢ ـ أدينت الصهيونية بالقرار /٣٣٧٩/ الصادر عن الأمم المتحدة الذي اعتبر الصيهونية شكلا من أشكال العنصرية والتمييز العنصري، ذاك الذي ما زال ماثلا في التكوين والممارسة الصهيونية اللذين تؤكدهما التربية التلمودية لليهودي والتوجه الاستعماري لكيانه المحتل، على الرغم من إلغاء الولايات المتحدة لذلك القرار بالترغيب والترهيب قبل سنوات قليلة بذريعة أنها تريد أن تزيل كل ما يعكر المزاج "الإسرائيلي."

١٣ ـ وعلى عكس ما ذهب إليه الملك حسين عند تسلمه "جائزة السلام" من متحف سايمون فيزنتال في لوس أنجلوس آذار ١٩٩٥ حيث قال: إنه يتطلع إلى مستقبل لا تجسد فيه كلمة عربي ـ إسرائيلي صور الصراع والاقتتال ؛ على عكس ذلك نريد أن تبقى تلك الصور حية لتحفزنا على التمسك بالحق وبخيارات التحرير، ولكي نحقق ما تتطلبه تلك الخيارات من إعداد واستعداد وصولا إلى إنجاز ذلك .

- أنظر ميثاق المثقفين العرب .



من أجل جبهة موحدة للمثقفين العرب

شلال الشكوى الذي يتدفق ليل نهار في أنسجة النفوس والبنى الاجتماعية،وتفجره المعاناة وتمده بينابيع لا تنفذ، ويستمر في حركة اجترار دائرية سقيمة؛ ذلك الشلال ينخر العزم والقيم والإرادة ويدخل المرء والمجتمع في دوامة كئيبة ومقيتة، لن تسفر إلا عن مزيد من الأسى والبؤس والتآكل، ولن ينجح هذا الوضع المستفحل واقعيا وعمليا إلا في امتصاص طاقة الاعتراض على كل ما هو مرضي وفاسد وظالم وهدام، وامتصاص الرفض الإيجابي له، وتحويل تلك الطاقة إلى مجرد رغوة ورغاء يصم الفضاء ويضاعف الخواء بدلا من تكثيف ذلك الغضب الإنساني الساطع النبيل في فعل تغييري بناء يَطهر النفس والمناخ وينير بالبصيرة طرقا ويشق بالإرادة الواعية تلك الطرق، وصولا إلى تحقيق الأهداف القومية والاجتماعية والإنسانية بوسائل نظيفة.

ولأننا في اللحظة الحرجة من صراعنا في الوجود من أجل أن نكون ويكون لنا حضور فاعل ومحترم وقادر في كل مجال من مجالات العمل والحياة والصراع التي نخوضها؛ ولأننا نواجه في هذا الزمن العربي الصعب الرديء تحديات تصل إلى حد إجراء تصفية مذلة لحقوقنا وقضايانا وتشكل تهديدا لهويتنا الثقافية وعقيدتنا وحضورنا الحيوي كله؛ فلا بد من أن نواجه ما يرتبه ذلك كله علينا أو أن نركن ببساطة ووضوح للتبعية والإمحاء، ونستسلم لمن يريد أن يفرض ذلك علينا، ونستمر في حالة القطعانية التي نعيشها محرومين من حقوق كثيرة، ومن مميزات تجعل الإنسان مكرما في الحياة ومتمايزا من دابة الأرض والسائمة المنتشرة فيها .

ولأن المثقفين يتحملون مسؤولية حيال الواقع الاجتماعي وحيال ما يهدد الثقافة والشخصية والهوية وما يقيم المثاقفة على قدم وساق، ويجعل للأمة حضورا إيجابيا كريما على كل مستوى وصعيد، ابتداء من مجالات العلم والثقافة وانتهاء بالسلوك الحضاري واستشعار السعادة الإنسانية وكل ما يوافرها للأفراد والأمم، في ظل أوطان سيدة مستقلة حرة متقدمة.

ولأنهم مؤهلون بحكم الواقع والاختيار ودرجة الوعي، وبحكم الزعم والادعاء (بالمفهوم الإيجابي لهما) أنهم الطليعة والرائد والمنقذ الذي يؤسس لبناء متين على أرضية سليمة بمسؤولية وشرف.

ولأنهم في كثير من الحالات أساس الاختلاف والاتفاق، ومن ينمي الاختلاف أو الوفاق ضمن شرائح المجتمع وفي تيارات السياسة داخل أقطار الوطن أو فيه كله. ولأنهم، بشكل أو بأخر، هم الآخر جنة كان الآخر أم جحيما ولا حياة نوعيا إلا معهم وبهم.

لهذا أجدني منشدا إلى رؤية تعظم أهمية دورهم في الخلاص مما نحن فيه، وفي التوجه نحو البناء ننشده، وإقامة الأرض المشتركة التي ينمو فيها الممكن بقوة؛ إذا ما اجتمعت كلمتهم على أرضية ذلك المشترك في إطار من الثقة والاحترام وعلى أساس من الوعي بأن المشكلات تكبر وسوف تطحن الجميع وأنه لا يوجد خلاص حتى لذلك الذي يتفرج من بعيد على من تطحنهم رحى الأحداث الآن. ولهذا أجدني مسوقا لإطلاق دعوة للسير في طريق إقامة جبهة موحدة للمثقفين العرب تفرض استقلاليتها عن كل تبعية للخلافية السياسية العربية المريضة والقطرية الضيقة والطائفية – المذهبية المقيتة، وتفرض احترامها وهيبتها ومصداقيتها في ساحة القرار السياسي العربي وفي الساحة الجماهيرية، وتضغط باتجاه فرض ما تقتضيه المصلحة القومية العليا ومتطلبات مواجهة تحديات العصر والقوى الفاعلة فيه والمهيمنة عليه، وتستشرف المستقبل وتخلص في العمل من أجل حضور مشرف للأمة فيه، وتجلو صورته وتعد العدة وتستعد للدخول المقتدر في مجالاته كلها. ذلك لأنني لاحظت وألاحظ بأسى وأسف شديدين، أن كثيرا من جهود المثقفين العرب كانت تتصادم وتتعادم ويفني بعضها بعضا بكراهية، وتتحول إلى كرة سلبية

سوداء تكبر وتنشر السواد في الفضاء والغصة في الحلق، وتضاعف من كآبة المشهد الاجتماعي والسياسي والثقافي والنضالي، وتشوه كل رؤية للخلاص باعتمادها مبدأ تشويه الآخر والتشكيك برؤيته وقدرته وسلامة توجهه، وتسفه رأيه وتنتقص من قيمته، لأنه الآخر الذي يخالف الأنا وينتصب وجودا متماسكا حيالها؛وتعمل على تخريب مشروع الآخر بدلا من إغنائه، لأنه ببساطة ليس مشروعها، لا لعدم صلاحه أو لنقص فيه بمقياس المنطق والمصلحة.

ولأن تلك الجهود في أغلب الأحيان كانت أسيرة تخطيط وتدبير انتقاميين كيديين، ينطلقان من الشك بالآخر والحكم السلبي المسبق عليه، وتجاهل حقيقة أنه الشريك في تلك المؤسسة الاجتماعية الكبرى التي تجمع الطرفين تحت سقف الوطن والمصلحة الواحدة والمصير المشترك!! فقد كانت تلك الجهود تضمحل وتتلاشى عند عتبة كل إرادة سياسية في كل قطر، وتوظف أحيانا لتشويه مشروع سياسي أو قومي أو حضاري، وتستخدم لتشويه صورة سياسة أو سياسي أو لتجميل ذلك المشروع أو تلك الصورة لاعتبارات مصلحية ونفعية وتنظيمية وكيدية، أو نزولا عند متطلبات المناخ الثقافي الذي فرضته السياسة العربية واستسلاما لذلك المناخ، الذي فتح فيه سوق الكلام وسوق المواقف. هذا فضلا عما فرضته الأيديولوجيا الضيقة الأفق، ذات الحكم المسبق على الأشخاص والاتجاهات الفكرية وعلى الآخرين الذين لا يدينون بها أو لها؛ فضلا عما فرضته من مواقف ومناخ وأسلوب تفاعل وتعامل وسلوك يطغى عليه التشنج والاتهام والشك، الأمر الذي أخل كثيرا بمناخ المثاقفة داخليا وأثر سلبيا على جدوى الحوار ومردوده، وجعل الأطراف المختلفة تتمترس في مواقعها وتتراشق الكلام دونما توقف عند مصلحة أو منطق أو قيمة أو اعتبار أو معيار.

وقد خلق كل ذلك فسادا في صورة الشخص عن الآخر وفي حكمه عليه، كما خلق فوضى وفسادا أيضا في التراتبية الثقافية والفكرية والإبداعية والأدبية جراء ما حققته "الميليشيات " الثقافية من " إنجازات " خاصة، كانت بمجملها عبئا على الأدب والإبداع والثقافة والسياسة والأيديولوجيا، وعبئا على المجتمع العربي ككل؛ لأنها كبلت الجميع بتراتبيات ومفاهيم واعتبارت

مريضة ومشكوك بسلامتها لا سيما بالنسبة للأشخاص والنصوص والمواقف والتيارات والاعتقادات.

وإذا كان لا بد من جهد نقدي – تقويمي كبير يقوم على أسس معرفية وخلقية وفنية وموضوعية، وعلى انتماء متين وواضح إلى الحقيقة في جلالها وجمالها وإلى الثقافة في سيرورتها وصيرورتها؛ من خلال حملها لهويتها باعتزاز والمساهمة في تعزيز مكانتها بفاعلية واقتدار؛كما يقوم ذلك الجهد على ثوابت الانتماء الصريح للوطن في واقعه وللأمة العربية عبر تاريخها، فإن ذلك يحتاج إلى مراجعة للذات وإرساء لقيم وثوابت ومعايير تقويم وتقدير موضوعية مشتركة، ينضجها الحوار وتنميها الثقة وتختبرها الممارسة؛كما يحتاج إلى جهد واجتهاد وزمن، وإلى تغيير جذري في مقومات العمل والتعامل والحكم والاحتكام يبدأ من نظرة الإنسان لذاته وينتهي بنظرته للآخر، على امتداد الدوائر واتساعها وصولا إلى الإنساني المطلق والكوني الشامل.

ولكي يتم ذلك لا بد من تعزيز مناخ ثقافي خصب معافى، سليم القيم والمقومات والمعايير والمستويات، يكون عامرا بالأمن من جوع وخوف وقادر على إخصاب طاقة العطاء والإبداع. ولن يكون ذلك إلا بالسير ثقافيا وسياسيا على طريق أحدد معالم مسارها بالقول :

" إنها مسيرة المثقفين العرب من الشك إلى الثقة " وهي هنا مسيرة داخل البيت العربي ثقافيا أولا وسياسيا واجتماعيا ثانيا، وخطواتها الأولى كما مرحلتها الأولى تبدأ ثقافيا وتنطلق بجهد كل معني قادر ومهتم ذي تأثير كما أرى.

أجدني مسوقا من أجل هذه المسيرة وتحقيقا لأهدافها وسلامة انطلاقتها – أجدني مسوقا بحماسة قد لا أندم عليها إلى دعوة المثقفين العرب إلى تجسيد الأرض المشتركة التي تجمعهم " أرض الثقافة العربية – الإسلامية واللغة العربية، والقيم..إلخ " في ميثاق شرف، يحكم أداءه الشرف والاختيار الحر الصادق؛ ميثاق يوحدهم ويجمع طاقتهم حول ثوابت مبدئية وخلقية

وقومية نضالية يعززونها جميعا، بصرف النظر عن اختلافاتهم وخلافاتهم واهتماماتهم ورؤاهم وانتماءاتهم القطرية، ويوحدون دون كلمتهم ومواقفهم ليفرضوا، انطلاقا من ذلك، احترام الثقافة وهيبتها ودورها ومصداقيتها وحضورها على صعد العمل والأمل بالنسبة للأمة وفي جميع المجالات، لا سيما في مجال صنع القرار السياسي العربي، وليحموا وجودهم الفردي وحريتهم وحقوقهم ومناخ عملهم، وليقيموا أسس البناء الذي ينشدون إقامته بسلامة ومتانة. واتفاقهم هذا حول تلك الثوابت لا يلغي التعددية المطلوبة بل يحميها ويستفيد من غناها، ولا يلغي الاختلافات النوعية في ما بينهم بل يقوم على التمسك بضرورة وجودها، لأنها تعزز التمايز وتخصب الثقافة وتقيم الحوار وتؤدي إلى الغنى، ولا يلغي ذلك الاتفاق اجتهادهم واختلاف رؤية كل منهم للأمور بل إنه يخلق البيئة السليمة التي ينمو فيها الاجتهاد وتتضح فيها الرؤية وتسمو، خارج حدود القمع والقلق والخوف وبعيدا عن المعوقات والرقابات التي تنشأ في أعماق الذات.

ويكون ذلك بتوافر مقومات الحرية والأمان والاطمئنان، ومجال المشاركة المجدية الملموسة المردود والتأثير في كل مجال. على أن يحمي كل مثقف ظهر الآخر في نضاله من أجل تلك القيم والمقومات والأهداف ولا يسلمه ولا يظلمه أو يخلي ظهره في مواجهة من مواجهات تلك الجبهة، مهما كان الخلاف بين المثقفين، لتقوم في تلك الجبهة قدوة وتستعيد الأنموذج، ولتقوم لها هيبة وسلطة أدبية، وليتوافر مناخ الحوار والحرية والممارسة الديمقراطية والاحترام، ذلك المناخ المنخور عربيا والذي من دون توافره لا يتحقق بناء سليم.

والمقومات الرئيسة أو النقاط المهمة التي تشكل أرضية الموقف المشترك هي ما يشكل ميثاق شرف للمثقفين العرب، نثبت فيما يلي نصه:

<u>ميثاق للمثقفين العرب :</u>

[[نحن المثقفين العرب، الموقعين على هذا الميثاق، استشعارا منا للمسؤولية التاريخية حيال الأمة العربية وقضاياها وأجيالها، وللدور الذي

ينبغي أن نقوم به، عربيا، وعالميا، بمواجهة التحديات التي يفرضها علينا العصر، والاستقطاب الدولي الوحيد الطرف، والتقدم العلمي والتقني، والإستراتيجية الصهيونية ــ الإمبريالية القائمة على القوة والقهر ومحو الآخر أو فرض التبعية عليه، نعلن وقوفنا بقوة وحزم، موحدين متماسكين، حول الثوابت المبدئية والتوجهات النضالية التالية:

١ ــ الصراع العربي الصهيوني، صراع وجود مع وجود، ولم يكن يوما ولن يكون أبدا نزاعا على حدود، بين العرب والكيان الصهيوني الدخيل المفروض عليهم؛ ويتحدد موقف المثقفين من السياسات والتيارات الفكرية والثقافية والاجتماعية في ضوء موقفها من ذلك الصراع ونظرتها إليه، وينسحب هذا الرأي والموقف على كل أشكال التطبيع مع العدو الصهيوني وكيانه في فلسطين المحتلة، وعلى دعاة التطبيع ورموزه وممارسيه والمروجين له.

٢ ــ الحرية والمساواة واحترام الحقوق والحريات العامة للمواطنين، تلك التي لا تنفصل عنها حرية التعبير ولا تقوم إلا باحترامها، وكذلك الممارسة الديمقراطية السليمة في حدود وعي نوعي بخصوصية الواقع والبيئة والمجتمع والمرحلة التاريخية والاجتماعية للأمة العربية، كلها قضايا رئيسة نجمع على التمسك بها والدفاع عنها، والتعامل بمسؤولية وإدراك شديدين معها، ونعلن احترامنا للتعدد في إطار الوحدة الثقافية القومية للأمة، واحترامنا لحق الاختلاف كحق طبيعي لجميع المواطنين على أرضية احترام الأنا من دون تضخيم، واحترام الآخر من دون تقزيم، والاعتراف المتبادل بينهما، على أرضية الشراكة التامة الأصلية في الهوية والانتماء والمواطنة والمسؤولية وصنع القرار وصوغ صورة المستقبل والتماسه؛ وتقرير المصير المشترك للوطن والأمة والدفاع عنهما.

٣ ــ الثقافة العربية ــ الإسلامية، بكل قيمها ومقوماتها وتاريخها وتراثها وموروثها، وكذلك ما في اللغة العربية من حمل معرفي وقيم متنوعة عبر التاريخ، وما لها من فرادة وأصالة وتميز وما فيها من أصول، وما تعنيه وتستثيره في النفوس من قيم ومشاعر، هي بمجملها حدود وطننا الذي

نتجذر في أرضه، ونحافظ فيه على هويتنا، وننمي فيه، بوعي معرفي عصري، خصوصيتنا، ونمارس انطلاقا من ذلك مثاقفة مع الآخر باعتزاز وثقة وانفتاح، رافضين كل قطرية وإقليمية وطائفية تقزمنا أو تقسمنا أو تشوه نظرتنا ومواقفنا؛ وكل قوقعة وفهم مشوهين أو محكومين بموقف مسبق من تراثنا وانطلاقتنا الحضارية، ولا نضع في هذا المجال العروبة في مقابل الإسلام أو الإسلام مقابل العروبة، فهما يتكاملان ولا ينفصلان، وننظر إلى كل تنازع في هذا الاتجاه على أنه تنازع ضار ومفتعل ومدمر ويخدم مخططات تعادي أمتنا وثقافتنا، ويرمي إلى فرض التبعية والضعف علينا.

ولا يعني التركيز على الثقافة العربية ـ الإسلامية، عدم الاعتراف بقيمة الجذر الثقافي العربي قبل الإسلام وأهمية ذلك الجذر، الذي يمتد عميقا ويؤسس للمعرفة البشرية، ولا التغاضي عن إمكانية حضوره والتواصل معه على نحو ما، كما لا يعني التقليل من أهمية الإضافات التي قدمها ويقدمها العرب من معتنقي الرسالات السماوية الأخرى، فكل ذلك إرث ثقافي عربي نعتز به ونتواصل معه وننميه، ونستشعر حضوره عندما نذكر الثقافة العربية الإسلامية.

٤ ـ نحن مع المثاقفة التي تقوم على أساس من الثقة والاقتدار، بأوسع صيغها وأعمق تلك الصيغ وأشملها، ولا نرى في القوقعة أي خير كما لا نرى خيرا في تبعية من أي نوع، لا سيما التبعية الثقافية، ولذا فإننا نرفض سياسات الانغلاق كما نرفض أشكال الإلحاق والغزو والمحو الثقافي، ونتصدى لها، وندعو إلى وضع الخطط والإمكانات اللازمة لذلك، بدءا من تحصين الوعي المعرفي الذاتي وتعزيز الأمن الثقافي القومي على جميع المستويات.

كما نرفض / عربيا / تبعية الثقافة للسياسة، وكل صيغ الإلحاق وصوره في هذا المجال، ونعترف في الوقت ذاته بأهمية تواصل الثقافة والسياسة وبضرورة ذلك التفاعل والتواصل، وبمسؤولية كل من الثقافة والسياسة عن الوعي والمصير الفردي والجمعي، الوطني والقومي، وبمسؤوليتهما أيضا عن مستوى الحضور الحيوي للأمة وتقدمها الحضاري، ومقدار استشعار أفرادها للسعادة والكرامة.

ونؤكد أهمية احترام العلاقة السليمة بين السياسي والثقافي، ومدى تحول الثقافي ــ لا سيما عربيا والآن ــ إلى تابع للخلافية السياسية العربية القطرية، حيث تتفاقم مخاطر الصيغة التجزيئية التعويقية الراهنة عربيا على الحاضر والمستقبل والمصير العربي كله، جراء ظهور القطرية وحضورها كصيغة اعتراضية على القومية، معوقة لها بل نافية لتاثيرها ولضرورتها.

٥ ــ نؤمن بأن الخلاص، ثقافيا وسياسيا واقتصاديا واجتماعيا، يكون قوميا أو لا يكون. وأن جهودنا سوف تنصب على إعلاء شأن أي فعل أو قرار عربي يأخذ ذلك بعين الاعتبار ويعمل من أجله. وأن حكمنا على أي توجه في هذا المجال يتم على ضوء انسجام ذلك التوجه مع المصلحة العربية العليا، التي تعلو، معياريا وعمليا وخلقيا، على المصلحة القطرية الضيقة، من دون أن تنفيها كليا.

٦ ــ نؤمن بأن تقدم المجتمع العربي منوط بتقدم البنى الفردية والاجتماعية والمدنية فيه، تربويا وتعليميا وعلميا، وأن بناء الفرد والمؤسسات بناء سليما ــ علميا ــ متوازنا، يتيح فرصا أكثر للخروج من حالة الإحباط والضياع، وانتهاك الحقوق والحريات، وضمور القيمة الخلقية والشعور بالمسؤولية وعدم احترام الفرد والقانون والمصلحة العامة والآخر الشريك، التي نعاني منها.

ولذلك فإننا نرى في الطغيانية ــ "الدكتاتورية" ــ حالة سياسية متخلفة لا تتلاءم مع القيم العربية والتعاليم الإسلامية، ولا تتفق مع روح العصر وتطلعات العرب للمستقبل، وتشكل أهم معوق من معوقات التقدم الاجتماعي والعلمي والروحي والاقتصادي في الوطن العربي. ولذا فإننا نعلن وقوفنا ضد "الديكتاتورية" وأشكال الحكم الاستبدادي أينما وجدت، وندعو إلى العمل من أجل الوصول إلى صيغ سياسية عربية تقوم على المساواة والعدالة وتكرسهما، وتستند إلى أوسع مشاركة جماهيرية في صنع القرار السياسي واتخاذه، والإشراف على تنفيذه والمحاسبة على ذلك التنفيذ، وعلى أساس مساهمة الأفراد بموضوعية وحرية وفعالية: روحية وقومية واجتماعية في ممارسة حقوقهم المدنية وأداء واجباتهم كمواطنين متساوين تماما، بما لا

يعطل الشرائع والتشريعات، وبما يحقق سيادة القانون، وسلامة الوطن، وإيجابية المواطن، وصحة مناخ العيش والإنتاج والإبداع، وبما يحد من انهيار القيم وانتشار الفساد في العلاقات الاجتماعية والأوضاع العامة، متحاشين العنف ما أمكن ذلك.

إن المثقفين العرب إذ يتمسكون بهذه الثوابت التي تشكل المشترك العتيد الأولى بالرعاية والاعتبار فيما بينهم، يؤكدون عزمهم على تعزيز مكانة الثقافة ودورها، وتحرير ساحتها وتحصين استقلالها ورؤيتها وإرادتها، خدمة للأمة وخدمة للثقافة، وحرصا على مناخ ثقافي قومي واجتماعي سليم، تنمو فيه القيمة في ظل الفعل المنقذ، وينمو فيه الشعور بالمسؤولية على أرضية الانتماء القومي والإنساني وفي ظلال الحرية والتكافؤ، كما يؤكدون عزمهم على وضع نقاط الاتفاق تلك فوق كل خلاف فيما بينهم والنظر إليها كثوابت مبدئية ــ قيمية ــ قومية ــ نضالية، وجعلها أساسا لمعيار يحكم مواقفهم وتعاملهم، ويحتكم إليه في تقويم الأفعال والسياسات والمواقف والتوجهات والأشخاص.]]

* * *

لقد قدمت نص هذا الميثاق إلى المؤتمر العام الثامن عشر للأدباء والكتاب العرب الذي عقد في عمان ١٢ ــ ١٩ /كانون الثاني ــ ديسمبر / ١٩٩٢ وأقره المؤتمر بجلسته الثالثة، في الساعة السابعة عشرة وخمس وأربعين دقيقة من يوم / ١٥ / ١٢ / ١٩٩٢ من دون تغيير كلمة واحدة فيه بإجماع الأصوات، وأصبح معتمدا منذ ذلك التاريخ؛ وتضمنته كلمتي إلى المؤتمر العام التي اعتمدت بوصفها وثيقة من وثائق المؤتمر المذكور؛ وأثبت هنا نصها في الحاشية الآتية التي قد تبدو طويلة نسبيا.*

(*) ينعقد مؤتمرنا هذا ونحن على أبواب العام السادس من عمر انتفاضة أهلنا المباركة في فلسطين المحتلة. ويأتيه الهواء مضمخا بدمائهم مشبعا بمعاناتهم؛ ولا تكاد الأمة ونحن من شرائحها، أن تفعل شيئا لهم اللهم سوى نبرة الاحتجاج والصراخ التي أخذت تتخافت مع مرور الزمن ومع زحف الذل والمتربة والاحتلال الغربي، ذاك الذي أخذ البعض منا يرحب به ويسوغه ويسوقه،

وأخذ البعض، الآخر يرفضه ويستغرب افتراسه لساحة عربية بعد أخرى، في ظل صمت عربي أو تواطؤ أو تخاذل، أو عجز حتى عن إنقاذ أخ لنا في العروبة والإسلام من الجوع والخوف والموت، الذي يأتيه حتى من أخيه ومن جاره وذويه.

وإذا أضفنا إلى الفتن والمآسي وأشكال الحصار والاستلاب المفروضة على بعض أقطارنا وعلى شرائح من شعبنا، لا سيما شعبنا في العراق وفي الجماهيرية، والممارسات التي يتعرض لها المواطن العربي داخل وطنه من أنظمته، تلك التي تتنامى وتزداد سوءا في ظل فقدان الثقة والحد الأدنى من التضامن العربي، أقول إذا أضفنا إلى ذلك ما تعيشه من تخلف وفساد، وما يتعرض له إخوة لنا في العقيدة والإنسانية في البوسنة والهرسك وفي الهند وفي مناطق العالم المختلفة من ظلم وقتل وبؤس، وتلمسنا ردا عربيا نافعا وشافيا على ذلك الظلم والقهر والفاقة والقتل، لما وجدنا ما يشفي أو ما يشرف.

إن ساحتنا الثقافية، التي هي في النهاية معتصمنا ومنطلقنا للعمل البناء المنقذ، ساحة مخترقة بدعاة التطبيع مع العدو الصهيوني، ومخترقة بمن اعتادوا على أن يستفيدوا من الخلافية السياسية العربية ويروجوا لها ويصنعوا بطولات وهمية على أرضيتها وفي ظلالها، ومخترقة بالذين يعيشون حالة مستعصية من تبعية الثقافة للسياسة ومن الارتماء في أحضان الخلافية السياسية القطرية، سواء تلك التي تنمو بين الأنظمة أو بين الحكام، ومخترقة ساحتنا الثقافية أيضا بمن أدمنوا العيش.....في حالة ازدواجية الوجه والقناع، ممن يصنعون الطغيانية وينمون حالات الاستبداد ويزينون وجها أو سياسة، حسب الهوى والمصلحة والانتماء الضيق، بأشكال مختلفة، ويعارضون استبدادا و طغيانية بأشكال أخرى منها، ويفتحون سوق الكلام العربي على مصراعيه ويباركون من يفتحه لهم، ويقبلون عليه.

وقد انعكس كل ذلك سلبيا على مصداقية الكلمة ودورها، وأزرى بها وبمكانتها وبأهلها، كما انعكس سلبيا على فعالية الثقافة وهيبتها في المجتمع، وعلى منزلتها وحضورها في ساحة صنع القرار السياسي العربي بقوة ونزاهة واحترام وخلوص متسام ومترفع للقضايا القيمية والقومية والمصيرية.

إن حالات التمزق والشرذمة والتبعية للخلافية السياسية العربية من قبل شرائح عديدة من المثقفين، في المستويين الفردي والتنظيمي، سرقت من تحت أرجلنا جميعا الأرض المشتركة التي يستقر عليها الإبداع ويتفتح فيها، الأرض التي ينغرس فيها المثقفون ويناضلون ويبدعون ويصنعون التاريخ الثقافي والمعيار الأخلاقي لأمتهم فوقها، وهي التي تكون الركن الأقوى من أركان وحدة الأمة، كما سرقت من تحت أرجلنا الأمان والاطمئنان والأمن من جوع وخوف، فغدا مناخ الإبداع مهددا ومناخ الحرية مهددا ومناخ العمل العربي المشترك، لا سيما في المجال الثقافي، مهددا هو الآخر.

وبعد أن كنا نؤمن بأن أرضنا المشتركة هي الثقافة العربية، وبأن حدود وطننا الذي نعترف به وننتمي إليه هي حدود انتشار اللغة العربية وليست على الإطلاق حدود السياسيين العرب الجغرافية المصطنعة، التي ورثوها عن الاستعمار وأصبحوا حماة لها وسدنة، يدافعون عنها باستماتة، ويذهبون في ذلك إلى حدود إعادة الاستعمار إلى أوطانهم، وإلحاقهم وأمتهم تبعا وأذنابا للقوة الغاشمة المتغطرسة التي تستغلهم وتسحقهم وتستعبدهم؛ أقول بعد أن كان تطلعنا للوطن وللوحدة هو ذاك أصبحنا نعمل في ظل قطرية ضيقة سقيمة تشكل المعنى الكلي للوطنية، وتقوم، بقوة

وشدة، حالة اعتراضية على القومية والعمل العربي المشترك، وعلى كل أشكال التضامن والتعاون، وضد الأحلام والتطلعات القومية الوحدوية المشروعة ذاتها، حتى أدخلتها في دائرة المستحيلات لتغدو المستحيلات أربعة: الغول والعنقاء والخل الوفي والوحدة العربية؛ وهو الإنجاز.. الفتح لعرب هذا العصر، يدخلهم في تاريخ أمتهم من باب عريض للخذلان، وتحت لافتة عريضة مزدهية بذلك الفعل، وياله من فعل وياله من ازدهاء؟!

إننا بحاجة إلى تأمل عميق في أوضاعنا، وتفحص دقيق لأوجاعنا، وتلمس حريص لدوائنا من أدوائنا، إننا بحاجة لمراجعة للذات، انطلاقا من مسؤوليتنا التاريخية حيال أمتنا وقضاياها، وحيال ثقافتنا العربية ومشكلاتها ودورها القومي والحضاري والإنساني، وتأثيرها في أجيالنا، وقدراتها على المثاقفة بثقة واقتدار، وفعاليتها في وقف الانهيارات الاجتماعية والخلقية التي يسببها الفساد والتآكل والتواكل في مجتمعنا، والحرب المفتوحة عليه في هذه الجبهة.

ونحن بحاجة إلى أن نلتمس الحد الأدنى المشترك من الثوابت المبدئية والخلقية فيما بيننا ونتلمسه ونقبض عليه بقوة، بعد أن لاحت فرصة ملائمة لإعادة ترتيب البيت الثقافي العربي، ليتمكن أهله من إدراك عمق المأساة، والوعي بكيفية الخروج منها والتصدي لعواملها؛ لا سيما بعد أن أصبحنا على أبواب اعتراف بالعدو الصهيوني الذي يسرق أرضنا ويقتل شعبنا ويغتصب حقوقنا ويزري بنا بين الأمم والدول، ويريد أن يكون سيد منطقتنا وموجه إرادتنا والقيم على أمتنا، ونحن نغوص في أوحال ومستنقعات، ونخوض معه الجولة الثامنة من جولات مؤتمر السلام أو الاستسلام الذي بدأ في مدريد.

إننا نرفض باسم الثقافة العربية والمثقفين العرب المؤتمنين على تاريخ أمتهم وحق أجيالهم في البقاء بكرامة، وباسم حق الأمة العربية في أن يبقى الباب مفتوحا أمامها لاستعادة أرضها وحقوقها، إننا نرفض أي شكل من أشكال الاعتراف "بإسرائيل".

ونرفض أن يصادر حق أجيالنا في العمل من أجل الحرية والتحرير، وأن توصد عليها أبواب الذل.

إن الأمم لا تكتب وثائق استسلامها بدماء شهدائها، ونحن أمة حية ترفض أن تكتب وثائق اعتراف بحق عدوها في سحقها واغتصاب حقوقها، وحقه في أن يوجد بقوة القهر على أرضها؛ ونحن أمة ترفض أن تكتب وثائق استسلامها بدم شهدائها، كما ترفض أي شكل من أشكال التطبيع مع العدو. وهذه ثقافتنا، قلعتنا الأخيرة للدفاع عن الأمة ومعتصمنا الأقوى، ترفض التطبيع وستقاومه.

إن السياسة فن الممكن.. نعم.. وإذا كان الساسة العرب قد وصلوا بنا وأوصلونا إلى هذا "الممكن" غير المشرف في هذا الظرف الدولي القاسي، فلهم أن يسلكوا طريقهم ولكن عليهم أن يتركونا نسلك طريقنا التي تتجه إلى المستقبل بأمل وإلى الآتين من أصلاب الآباء وبطولات الأمهات بكرامة، أولئك الذين من حقهم أن يرفضوا الذل وأن يتحرروا من كل القيود والوثائق المذلة، وأن يكون لديهم من الوعي والمعرفة ما يمكنهم من الإجابة الملائمة على أسئلة عصرهم.

إن هناك إمكانية ملموسة الآن لمراجعة الذات لدى التيارات الفكرية والسياسية والتنظيمية الموجودة في الوطن العربي، فلنستفد من هذه الإمكانية ولنغتنم هذه الفرصة التي أراها سانحة.

وسواء تم ذلك اقتناعا من كل منها، أم قسرا تحت وطأة الظروف، أو استسلاما لما فرضته

المتغيرات العربية والدولية، ونشوء دولة القطب الوحيد الطرف ـ المتعجرف المتسلط النهم لسدم الآخرين وأموالهم ـ وانتهاء الحرب الباردة لصالحه، وتغير أسلحة المواجهة ونوع المواجهات وأساليبها وأدواتها وسبلها في القرن القادم؛ حيث يتصدر الاقتصاد وتتصدر الثقافة المدعمان بقوة عسكرية لا تملكها ساحات المواجهة المحتملة، فإن ما ألمسه هو وجود استعداد لمراجعة الذات لدى تيارات رئيسة في الساحة العربية مثل: التيار القومي ـ والتيار الماركسي ـ والتيار الإسلامي ـ والتيار الليبرالي. وهذا يدفعني، في ظل التهديد المعلن لثقافتنا العربية ـ الإسلامية بالذات الذي لمح إليه سياسيون غربيون ومثقفون يمينيون متصهينون ومتطرفون في الغرب الاستعماري، ومتعصبون لثقافة تحت غطاء الدين، أو لديانة تحت غطاء الثقافة، حين أعلنوا بأشكال مختلفة، لا سيما بعد أن أشار الرئيس الأميركي جورج بوش في خطابه أمام مجلسي الكونغرس الأميركي بعد نهاية حرب الخليج الثانية، إلى أن القرن القادم سوف يشهد انتشار الأنموذج الثقافي الأميركي في العالم وسيكون الجهد فيه منصبا على تعميم أنموذج السلوك الأميركي والقيم الأميركية ـ وفي هذا ما فيه من إعلان للغزو الثقافي أو لمحو الثقافات الأخرى وفرض التبعية عليها ـ وتابع آخرون شرح ذلك وتفسيره وإظهار بواطنه وتأكيد توجهاته، فجاءت المحصلة واضحة تماما، إذ قيل بجلاء وعلانية : إنه كما شهد القرن الحالي سقوط الشيوعية وانهيار الماركسية سوف يشهد القرن القادم سقوط الإسلام والعروبة وانهيارهما.

وقد صرح ساسة غربيون ومسؤولون أميركيون بأنه لم يعد من الواقعي الحديث عن أمة عربية واحدة أو عن وطن عربي واحد وأحلام وحدوية عربية، فكل ما هنالك الآن دول عربية يخشى بعضها بعضا، وتبحث عن مصالحها الخاصة، ولديها الاستعداد لأن تحتمي في ظلال أية قوة لحماية نفسها ونظامها وحدوذها ووجودها ومصالحها!؟!

وإذا كان ذلك كذلك، وإذا كان الوضع العربي قد أوصلنا فيه الساسة إلى ما لا يحمد ولا يشكر ولا تبشر نتائجه بأي خير من أي نوع، فهو الاستسلام والضعف والتآكل والتدابر والتخلف ومغادرة ساحة العمل القومي إلى الانهزام في ظل التقوقع القطري. وإذا كان العرب الآن يعملون بأقصى ما يستطيعون من جهد للاعتراف "بإسرائيل" دولة ذات سيادة في المنطقة، على أرضية السلام المتبادل والحصول على الأرض المحتلة بعد عام ١٩٦٧ أو بعضها، وعلى .

بعض الحقوق أيضا؛ متنازلين عن فلسطين التي كانت ومازالت جوهر المشكلة وأساس القضية ؟!

وإذا كان التوجه في هذا المنحى عاما أو شبه عام على الصعد الرسمية على الأقل، فإنه ينبغي أن تقوم في إطار الثقافة العربية جبهة مواجهة تعمل على إبقاء هذا الحق من حقوق أمتنا وأجيالها القادمة حيا في الأذهان، وتنمي الوعي به، وتدعو إلى إعادة النظر بالتربية والتعليم والتثقيف، وإلى حشد الإمكانات وتوظيفها في مسار بناء الإنسان ومؤسساته وإقامة مناخ عربي يمكن من ولادة الأمل، على أرضية الجدية والعمل، باستعادة العافية والسلامة القومية والاجتماعية والفكرية والروحية، والتوجه نحو التحرير والدخول في العصر بأدوات وإمكانيات وعقول وعلاقات قادرة على فهمه ومواكبته والحضور فيه وكسب رهانه أو بعض ذلك الرهان.

ومن أجل ذلك فإنني أدعو إلى إعادة ترتيب البيت الثقافي العربي، وإعادة التماسك والقوة والمهابة له، وإلى إقامة جبهة مواجهة ثقافية عربية بالاتفاق على الحد الأدنى المشترك الذي يقيم قوام

تلك الجبهة بالتمسك بثوابت مبدئية قومية أخلاقية ونضالية، تناضل من أجلها، وتحتكم إليها، وتنميها، وتصبح أهم معيار للتعامل والعمل فيما بين أطرافها؛ من دون أن يلغي ذلك الاختلاف الحيوي والتعدد والاجتهاد والغنى في مجال الإبداع والفكر والنضال.

ومن أجل ذلك وعلى طريقه أطرح ما يمكنني أن أدعوه ميثاقا للمثقفين العرب، آمل أن يلقى ترحيبا به واتفاقا عليه، وهو التالي: (*)

[نحن المثقفين العرب، الموقعين على هذا الميثاق، استشعارا منا للمسؤولية التاريخية حيال الأمة العربية وقضاياها وأجيالها، وللدور الذي ينبغي أن نقوم به : عربيا وعالميا، بمواجهة التحديات التي يفرضها علينا العصر، والاستقطاب الدولي الوحيد الطرف، والتقدم العلمي والتقني، والإستراتيجية الصهيونية ــ الإمبريالية القائمة على القوة والقهر ومحو الآخر أو فرض التبعية عليه؛ نعلن وقوفنا بقوة وحزم، موحدين متماسكين، حول الثوابت المبدئية والتوجهات النضالية التالية:

١ ــ الصراع العربي الصهيوني،، صراع وجود مع وجود، ولم يكن يوما ولن يكون أبدا نزاعا على حدود، بين العرب والكيان الصهيوني الدخيل المفروض عليهم؛ ويتحدد موقف المثقفين من السياسات والتيارات الفكرية والثقافية والاجتماعية في ضوء موقفها من ذلك الصراع ونظرتها إليه. وينسحب هذا الرأي والموقف على كل أشكال التطبيع مع العدو الصهيوني وكيانه في فلسطين المحتلة، وعلى دعاة التطبيع ورموزه وممارسيه والمروجين له.

٢ ــ ا لحرية والمساواة واحترام الحقوق والحريات العامة للمواطنين، تلك التي لا تنفصل عنها حرية التعبير ولا تقوم إلا باحترامها، وكذلك الممارسة الديمقراطية السليمة في حدود وعي نوعي بخصوصية الواقع والبيئة والمجتمع والمرحلة التاريخية والاجتماعية للأمة العربية، كلها قضايا رئيسة نجمع على التمسك بها والدفاع عنها، والتعامل معها بمسؤولية وإدراك شديدين، ونعلن احترامنا للتعدد في إطار الوحدة الثقافية القومية للأمة، واحترامنا لحق الاختلاف، كحق طبيعي لجميع المواطنين على أرضية احترام الأنا من دون تضخيم، واحترام الآخر من دون تقزيم، والاعتراف المتبادل بينهما، على أرضية الشراكة التامة الأصلية في الهوية والانتماء والمواطنة والمسؤولية وصنع القرار وصوغ صورة المستقبل والتماسه، وتقرير المصير المشترك للوطن والأمة والدفاع عنهما.

٣ ــ الثقافة العربية ــ الإسلامية، بكل قيمها ومقوماتها وتاريخها وتراثها وموروثها، وكذلك ما في اللغة العربية من حمل معرفي وقيم متنوعة عبر التاريخ، وما لها من فرادة وأصالة وتميز، وما فيها من أصول، وما تعنيه وتستثيره في النفوس من قيم ومشاعر، هي بمجملها حدود وطننا الذي نتجذر في أرضه، ونحافظ فيه على هويتنا، وننمي فيه، بوعي معرفي عصري، خصوصيتنا، ونمارس انطلاقا من ذلك مثاقفة مع الآخر، باعتزاز وثقة وانفتاح، رافضين كل قطرية وإقليمية وطائفية تقزمنا أو تقسمنا أو تشوه نظرتنا ومواقفنا، وكل قوقعة وفهم مشوهين أو محكومين بموقف مسبق من تراثنا وانطلاقتنا الحضارية. ولا نضع في هذا المجال العروبة

(*) نورد هنا نص مشروع الميثاق الذي أصبح ميثاقا من باب التوثيق، على الرغم من أنه ورد نص الميثاق سابقا.

في مقابل الإسلام أو الإسلام مقابل العروبة، فهما يتكاملان حتى ليتماهيا؛ وننظـــر إلى كل تنازع في هذا الاتجاه على أنه تنازع ضار ومفتعل ومدمر ويخدم مخططات تعادي أمتنـا وثقافتنا، ويرمي إلى فرض التبعية والضعف علينا.

ولا يعني التركيز على الثقافة العربية ــ الإسلامية، عدم الاعتراف بقيمة الجذر الثقـافي العربي قبل الإسلام وبأهمية ذلك الجذر، الذي يمتد عميقا ويؤسس للمعرفة البشـرية، ولا التغاضي عن إمكانية حضور ه والتواصل معه على نحو ما، كما لا يعني التقليل من أهميـة الإضافات التي قدمها ويقدمها العرب من معتنقي الرسالات السماوية الأخرى؛ فكـل ذلك إرث ثقافي عربي نعتز به ونتواصل معه وننميه، ونستشعر حضوره عندمـا نذكـر الثقافة العربية الإسلامية.

٤ ــ نحن مع المثاقفة، التي تقوم على أساس من الثقة والاقتدار، بأوسع صيغها وأعمق تلك الصيغ وأشملها، ولا نرى في القوقعة أي خير، كما لا نرى خيرا في تبعية من أي نوع، لا سـيما التبعية الثقافية؛ ولذا فإننا نرفض سياسات الانغلاق كما نرفض أشكال الإلحاق والغـزو والمحو الثقافي، ونتصدى لها، وندعو إلى وضع الخطط والإمكانات اللازمة لذلك، بدءا من تحصين الوعي المعرفي الذاتي وتعزيز الأمن الثقافي القومي على جميع المستويات.

كما نرفض / عربيا / تبعية الثقافة للسياسة، وكل صيغ الإلحاق وصوره في هـذا المجـال، ونعترف في الوقت ذاته بأهمية تواصل الثقافة والسياسـة وبضـرورة ذلـك التفـاعل والتواصل، وبمسؤولية كل من الثقافة والسياسة عن الوعي والمصير الفردي والجمعـي، الوطني والقومي،، وبمسؤوليتهما أيضا عن مستوى الحضور الحيـوي للأمـة وتقدمـها الحضاري، ومقدار استشعار أفرادها للسعادة والكرامة. ونؤكد أهمية احـترام العلاقـة السليمة بين السياسي والثقافي، ومضار تحول الثقافي ــ لا سيما عربيا والآن ــ إلى تـابع للخلافية السياسية العربية القطرية، حيث تتفاقم مخاطر الصيغة التجزيئية التعويقية الراهنة عربيا على الحاضر والمستقبل والمصير العربي كله، جراء ظهور القطرية وحضورها كصيغة اعتراضية على القومية، معوقة لها بل نافية لتأثيرها ولضرورتها.

٥ ــ نؤمن بأن الخلاص، ثقافيا وسياسيا واقتصاديا واجتماعيا، يكون قوميـا أو لا يكـون، وأن جهودنا سوف تنصب على إعلاء شأن أي فعل أو قرار عربي يأخذ ذلك بعين الاعتبـار ويعمل من أجله؛ وأن حكمنا على أي توجه في هذا المجال يتم في ضوء انسـجام ذلـك التوجه مع المصلحة العربية العليا، التي تعلو، معياريا وعمليا وأخلاقيا، علـى المصلحـة القطرية الضيقة، من دون أن تنفيها كليا.

٦ ــ نؤمن بأن تقدم المجتمع العربي منوط بتقدم البنى الفردية والاجتماعية والمدنية فيه، تربويـا وتعليميا وعلميا، وأن بناء الفرد والمؤسسات بناء سليما ــ علميا متوازنا يتيح فرصـا أكثر للخروج من حالة الإحباط والضياع، وانتهاك الحقوق والحريات، وضمور القيمـة الخلقية والشعور بالمسؤولية وعدم احترام الفرد والقانون والمصلحـة العامـة والآخـر الشريك.

ولذلك فإننا نرى في الطغيانية " الديكتاتورية " حالة سياسية متخلفة لا تتلاءم مـع القيـم العربية والتعاليم الإسلامية؛ ولا تتفق مع روح العصر وتطلعات العرب للمستقبل، وتشـكل أهـم

معوق من معوقات التقدم الاجتماعي والعلمي والروحي والاقتصادي في الوطن العربي، ولـــذا فإننـــا نعلن وقوفنا ضد " الديكتاتورية " وأشكال الحكم الاستبدادي أينما وجدت، وندعو إلى العمل مـن أجل الوصول إلى صيغ سياسية عربية تقوم على المساواة والعدالة وتكرسهما، وتســتند إلى أوسـع مشاركة جماهيرية في صنع القرار السياسي واتخاذه، والإشراف على تنفيذه والمحاسـبة علـى ذلـك التنفيذ، وعلى أساس مساهمة الأفراد بموضوعية وحرية وفعالية، روحية وقوميـــة واجتماعيـــة، في ممارسة حقوقهم المدنية وأداء واجباتهم كمواطنين متساوين تماما، بما لا يعطل الشرائع والتشـــريعات، وبما يحقق سيادة القانون، وسلامة الوطن، وإيجابية المواطن، وصحة مناخ العيش والإنتاج والإبـــداع، وبما يحد من انهيار القيم وانتشار الفساد في العلاقات الاجتماعية والأوضاع العامة، متحاشين العنف ما أمكن ذلك.

إن المثقفين العرب، إذ يتمسكون بهذه الثوابت التي تشكل المشترك العتيد الأولى بالرعايـــة والاعتبار فيما بينهم؛ يؤكدون عزمهم على تعزيز مكانة الثقافة ودورها، وتحرير ساحتها وتحصـــين استقلالها ورؤيتها وإرادتها، خدمة للأمة وخدمة للثقافة، وحرصا على مناخ ثقافي وقومي واجتمـــاعي سليم، تنمو فيه القيمة في ظل الفعل المنقذ، وينمو فيه الشعور بالمسؤولية على أرضية الانتماء القومي والإنساني وفي ظلال الحرية والتكافؤ؛ كما يؤكدون عزمهم على وضع نقاط الاتفاق تلك فوق كـل خلاف فيما بينهم والنظر إليها بوصفها ثوابت مبدئية ـ قيمية ـ قومية ـ نضالية، وجعلها أساســا لمعيار يحكم مواقفهم وتعاملهم، ويحتكم إليه في تقويم الأفعال والسياسات والمواقـــف والتوجـهات والأشخاص.]

لقد أخلينا ساحتنا الثقافية طويلا، وتركنا لرياح الخلف والتخلف أن تعبث بها فعبثت بنا وبهـا وبأمتنا ومصيرنا كله، وأسلم بعضنا بعضا للظلم والطغيان والقهر الذي يمارس علينا وعلى جماهـــير شعبنا، وأضعفنا حضورنا، وارتمينا في تبعية مقيتة وضارة بنا وبأمتنا وثقافتنا وحتى بأنظمتنـــا، لأننـــا لم نشهر لها عيوبها، ولم نردع غيا لبث في ممارساتها، وجعلناها تسير في ظلم وظلام وفســـاد، حصدنـــا زؤانه جميعا، وغرس فينا ما يشبه اليأس من إمكانية صلاح الأمور والأحوال.

وحرمنا الثقافة من شمعة تضيء للناس وموقف منقذ، ودور مشرف مطلوب، فلنشعل شموعا في إبداعنا وثقافتنا وكلماتنا، لنا ولشعبنا ولأبنائنا القادمين في أصلابنا، ولنواجه ليل المحنـــة بضـــوء البصر والبصيرة وبعزيمة المؤمنين بأمتهم وبدورهم، ولنوقد مصابيحنا حتى ولو احترقت بعض أصابعنـــا أو بعض أجسادنا، وليحم كل منا ظهر الآخر؛ لكي نقيم ساحة نحتمي فيها ونحتمي في ظلالها المتســـعة أمتنا، وينمو فيها بأمان وأمل أهلنا ومستقبلنا وتزدهر أحلامنا. وإن لعلينا نحن أن نشرع بالتضحيـــة وأن ندفع مهر اختيارنا للحرية، تلك التي تؤخذ ولا تعطى، وتتجدد ويتسع أفقها بـــالوعي المعـــرفي المتنامي، وبإدراك حق الذات وحق الآخر في أن يحيا بسعادة وامتلاء وكرامة.

إن حريتنا بوصفنا مثقفين هي حرية للكلمة ولمتلقيها في آن معا، فعلى الكلمة أن تحرر الإرادة وتنمي الوعي بالحرية، ذلك الوعي الذي ينمي أفقها ويوسعه في الوقت ذاته، ويصبح سلاحا يحمـــي وحقلا تزدهر فيه عطاءات الإنسان للحياة والإنسان.

إننا لم ولن نفقد الأمل أبدا بمثقفينا ومبدعينا ومناضلينا، ولا بأمتنا التي تجاوزت الكثير مـــن المحن وصمدت لها.



عناق الدم والكلمة في زمن الانهزام



ـ إذا كان من الواجب ـ حسب اعتقادي واقتناعي ـ تحية حماس والشهيد صالح عبد الرحيم الصوي بطل عملية "تل أبيب" الذي كتب بدمه الطاهر إعلان استمرار الصراع العربي ـ الصهيوني إلى مداه، على الرغم من الاتفاقيات والمعاهدات والمفاوضات واللقاءات والتوقيع "الملكي السلمي"، فإن الواجب يقضي أيضا بإظهار الاستهجان والازدراء لكل تلك التصريحات والاتصالات والتصرفات العربية التي أدانت العملية، ونظرت إلى المحتلين الصهاينة العنصريين، الذين يلغون يوميا بدمنا، على أنهم ضحايا بريئة، متناسية أعداد الشهداء والمعتقلين والمضطهدين والمحاصرين الذين يتجرعون يوميا الموت وألوان الحقد الأسود على أيدي النازيين الجدد و الإرهابيين المحترفين، مزيفي التاريخ والوقائع وصورة الحياة في فلسطين المحتلة وجنوب لبنان.

ويستحق إعلان عرفات، للمرة الثانية بعد "بير نبالة" وضع نفسه في خدمة "الشين بيت" لتقديم معلومات وللمساعدة على معرفة الفاعل وملاحقته، وذلك قبل أن يعلن عنه؛ يستحق ذلك استهجانا وازدراء مضاعفين، لا سيما وأن التصرف أو الإعلان الأول تسبب في استشهاد ثلاثة من مقاتلي كتائب عز الدين القسام.

لقد تلقت "إسرائيل"، وتلقى المتحالفون معها والمستقوون بها، من العرب، إشعارا بليغا، لا يعبر عن تصميم حماس فقط على متابعة الكفاح حتى التحرير، وإنما يعبر عن روح الشعب العربي المقموع أو المغيب أو المغلوب على أمره أو المغرى والمضلل بألف لون ولون من التضليل. وهو

إشعار جلجل في فضاء الأرض المحتلة، وفي فضاء القصور العربية العامرة الآمرة، وفي فضاء الإعلام ليقول بوضوح:

"إن المعاهدات والتسويات المشوهة، وكل الإغراءات بمستقبل سلام الاستسلام التي تقدم للناس، لن تلغي حقيقة رفضنا، بوصفنا أمة عربية ما زالت موجودة وستبقى، رفضنا لاستمرار الاحتلال الصهيوني، واقتناعنا الراسخ بأن "إسرائيل" العنصرية التي تحتاج للاعتراف بها والتعامل معها، ليست جزءا من النسيج الجغرافي والتاريخي والاجتماعي والثقافي والاقتصادي والسياسي والأمني للبلاد العربية التي تشوهون صورتها وتغيرون اسمها ليسهل إدخال "إسرائيل" في تكوينها. ولن تفرض على العرب بقوة القهر من دون مقاومة لتلك القوة ومواجهة لذلك القهر.

وإن التعبير الصريح والصحيح عن وجدان أمتنا ليس ما يلغو به إعلام الملوك، وإنما هو. النضال الذي يخوضه الفقراء المؤمنون بمعنى الحق والحرية والتحرير، الذين يرفضون أن تمتلئ كروشهم في جنة "أوسطية بيريس" ويخسرون كرامتهم وتاريخهم ومعنى الانتماء الأصيل للعروبة والإسلام."

ما من شك أن عملية "تل أبيب" خلقت وستخلق ردة فعل عالمية وعربية ضد الذين يرفضون السلام على الطريقة " الإسرائيلية "؛ وستضاعف من تشويه صورة التيارات الإسلامية والقومية التي تريد أن تبقى شعلة الصراع من أجل فلسطين متقدة ومرفوعة.ولكن الحقيقة الناصعة التي استخلصت عبر كل السنين الماضية، تشير إلى أن التشويه والملاحقة والفتك وربما الموت، سيكون من نصيب من لا ترضى عنهم الصهيونية والولايات المتحدة الأميركية بشكل خاص، والغرب الاستعماري والعنصريون بوجه عام؛ وبناء على ذلك فإن المرء لا يخسر ما هو خاسره أصلا.

ولكن العملية التي أزيح من طريقنا فيها أكثر من عشرين من الصهاينة المحتلين لأرضنا، سوف تتسبب في مضاعفة التعاون والتنسيق بين جهات دولية، غربية وعربية، لملاحقة حماس ومن يناصرها ومن ينتهج نهجا

رافضا "لإسرائيل" ولما يجري في المنطقة العربية اليوم. وسوف يـؤدي ذلـك التعاون إلى ملاحقة شرسة واسعة النطاق، وإلى عمليات قتل واضطهاد وطرد وفتك كبير بكل الذين يريد الصهاينة ألا يروا أيديولوجيتهم وحضورهم في الساحة "الشرق أوسطية" ليتم التغيير المنشود،الذي تقف في وجهه ذاكرة شعبية، وروح قومية، وعقيدة إسلامية تقيم النفوس وقوام الكرامة والأصالة والقيم.

سوف تسيل دماء، ويتضرر أبرياء، ويضيق في العيش على أسر، ويحاصر مرضى ومحتاجون، وتمنع موارد شحيحة كانت تدفع الفاقة وتسبل سترا على بعض الناس، وسيسجن كثيرون، في وقت ومناخ لايساعدان على رفع الصوت وتخفيف المعاناة؛ إذ تهيأ الظروف والنفوس والسياسات وحملات الإعلام منذ زمن، ليكون هناك فتك ذريع وصمم شنيع: فتك بمن يقاوم مشاريع التصفية والمصالح والأطماع الـ"إسرائيلو ـ أميركية " والسياسات التي تخدم ذلك أو تحققه، وصمم عمن يرفع صوت المعاناة البشرية، ويعلن عن حق للناس في هذه المنطقة وعن ظلم وقع عليهم، ومخطط إبادة ينتظرهم، وينفذ مرحليا ضدهم.

ويبدو أن الأجواء المطلوبة لذلك أصبحت ملائمة والبرامج جاهزة للتنفيذ، والنفوس مثقلة بكسف من الحقد لمظلم الذي يتكاثف ويتقاطر تعذيبا وترويعا وموتا.

ليس هناك قوة في مستوى قوة الملاحقة والقمع والاضطهاد العنصري تستطيع الآن أن تسحقها أو ترفع أذاها، ولكن ليس لدى تلك القوة إيمان بقوة ما لدى الملاحقين والمضطهدين من إيمان.

وإذا كنا سنراهن على هذا الجوهر النادر العريق، فإننا لن نعدم حظا من التوفيق والنجاح، وسوف نكسب التصميم الذي تبعثه الثقة لنتابع المسيرة النضالية؛ ولكننا لن نتمكن من إيقاف المعاناة أو تحقيق نصر قريب.

وإذن.. هل هي طوباوية من نوع متخلف، فريد في تخلفه، نواجه بها العلم والحداثة والتقانة والقوى القاهرة في عالم اليوم؛ وقمعا وإرهابا دوليين

منظمين فائقين في شراستهما، تقودهما القوة الأعظم؟!

إن السؤال لا يقبل على هذه الصيغة أو على هذه الشاكلة من صيغ الأسئلة، أو إن الجواب على مثل هذا النوع من الأسئلة ينبغي ألا يكون مقيدا بحدود منطق متعارف عليه وعلى حدوده وقيوده. من المسلم بـه أن معظم الأنظمة العربية تتهافت اليوم على كسب ود "إسرائيل" ورضاها، وتعرف أن النافذة الأميركية هي متنفس البيت الصهيوني ومدخله، والعكس أيضا يصح في حالات؛ ومن المسلم به أن حالة التمزق، والبحث عن الخلاص القطري والمصلحة القطرية الضيقة جدا، وغياب كل مظاهر الالتزام القومي، بأي موقف وأية قضية على أي مستوى، جعل كل قطر وكل نظام يعمل ما يشاء، غير آبه بالآخر ومصلحته، وغير هياب من الانفراد والانعزال والاعتماد على الغير في الحماية والرعاية، ولامكترث بما يسببه فعله ذاك، للآخر القريب الشريك في الوجود والمصير، من مشكلات وأزمات وما ينعكس جراءه من مخاطر على المصير المشترك؛ وهذا كله جعل الموقف العام والتوجه القومي غائبين، أو بالأحرى غير مطلوبين من أكثر الأنظمة العربية، وجعل كل نظام عربي يتملص من القضية المركزية للنضال العربي ومن تبعاتها، ويرتمي في حمأة الحلول "متطهرا" من ذنوبه بماء الفاجر الأول الذي حلل المحرم، وأباح ما كان كفرا، فتبعه الذين كانوا يخفون وينافقون، تبعه أولئك زرافات ووحدانا. وأصبحت ترى في بضع شهور فقط إقبالا على "إسرائيل" من أنظمة عربية ما لم تره في عدة عقود من إقبال تلك الأنظمة بعضها على بعض، على الرغم من المصائب والمصالح وأشكال العدوان المرتكب ضدها.

وهذا المناخ بالذات، الذي يعج بهذه المسلمات والتوجهات والتنازلات، وهذا الظرف بالذات الذي تتضخم فيه المأساة، يستدعيان وقفة تؤسس ولو بعد عقود، لعودة الوعي واستعادة الموقف الرافض كليا، بشمول وأصالة وصلابة، لوجود "إسرائيل" ولكل شكل من أشكال الاعتراف بها وتطبيع العلاقات معها.

إن هذا كلام وتفكير وتوجه مغاير للسائد ولما تفرضه رياح العصر التي

تهب من السياسات وأجهزة الإعلام والثقافة المصنعة حسب الطلب، ومغاير لم هو مطلوب حتى في سياسات قطرية عربية متشددة، ويتنافى مع النظر بعقلانية صرفة إلى المعطيات المادية التي تبنى على أساسها توازنات القوى وأسس المواجهات، ويبدو ضعيفا حيالها وغريبا عن المحيط، وقديما متخلفا يمت إلى الحرب الباردة بصلة وإلى منطق الخمسينيات والستينيات بصلات.

ولكنه ينتسب إلى التاريخ القومي العربي بأصالة، ويستمد من استقراءاته وقراءاته المختلفة، تلك التي سجلت أن تمسك الأمة بحقها ودفاعها "السلبي والإيجابي" عن ذلك الحق، وثباتها حتى في المحن على ثوابتها، جعلها تتجاوز الإحباط والهزائم، وتستعيد حضورها وما اغتصب من حقوقها وتجدد ذاتها.

كما ينتسب إلى حقائق التاريخ الإنساني، تاريخ الشعوب الحية الذي يسجل قدرة الأمم على تحقيق النصر إذا لم تنهزم من الداخل في فترات الانكسار العسكرية وخسارة المعارك وضمور القدرات مرحليا.

وهو أولا وآخرا ينتسب إلى حقائق الإيمان بأبعادها جميعا، بدءا من الإيمان بالله وانتهاء بالإيمان بالذات والوطن والشعب والحق.

وإذا لم نؤسس لذلك النوع من صلابة الموقف في فترات الضعف، وعند هبوب الأعاصير، فلن نبقى ولن يبقى لنا موقف على الإطلاق، وحين يتآخى ويتساوق ويتناغم الدم الطهور مع الكلمة الشريفة، فلا بد أن تنبت في ذلك الحقل القومي ــ الإنساني الإبداعي العام، أجيال تقيم الحق والعدل والسلام والحرية على أسس متينة ونظيفة، وتستعيد للشعب العربي كرامة وحضورا وازدهارا، يبني في ظله ويسود.

فلنعمل من أجل عناق الدم والكلمة في زمن الانهزام العربي المريع هذا. والله من وراء القصد.



سقوط المنظومة الاشتراكية وأثره إسلاميا وعربيا ودوليا

العالم يتغير، والعالم دائما في تغير، ولا يمكن أن يكون إلا كذلك، لأنه محكوم بقانون الحركة الذي هو قانون الحياة ذاتها، فالحياة حركة على نحو ما، وحتى حين تكون حركة هدم فهي تؤسس لحركة بناء، وتثبت قانون التحول أو التغير أو إعادة البناء وإعادة التكوين، أو تجديد ذلك التكوين ذاته بحثا عن "الأفضل ". ليس بالضرورة أن يبقى ذلك محصورا في تغيير الشكل، بتغيرات المحتوى العام : الروحي والفكري والوجداني، تغير الرؤية والنظرية والقيمة والسلوك والفهم والنظرة إلى الحياة وما يحكمها من قوانين، وإلى الآخر والعلاقة معه فيها، وإلى العلاقة بين الأشياء والأحياء في أنظمة الحياة والكون، كل ذلك يعطي للتغير معنى، ويثبت حضوره واستمراره ويشجع عليه.

الحياة حركة.. وهذا تعبير يصدق على معظم ظواهرها وجواهرها، فالحرارة حركة، والسكون ــ في نظر العلم ــ نوع من الحركة، وكل شيء فينا ومن حولنا محكوم بهذا القانون إلى حد كبير. ومن يدعي ثباتا مطلقا وعصمة ونوعا من التعالي على قوانين الحياة، ينكسر أو يتكسر فيه شيء من الصعب أن يجبر.

لقد قدمت الماركسية " نظام معتقدات يدعي التفسير الصحيح الوحيد للماضي، والممر الصحيح الوحيد أيضا إلى المستقبل، ومن ثم فإن أي نظام معتقدات آخر هو غير صحيح وخطر، ويجب ألا يؤخذ بعين الاعتبار "(١). ،وقال أهلها بالحتمية والعصموية لهم ولنظريتهم ومنظريهم وحتى للممارسات

التي مارسوها. وهكذا عملوا، وكان احتكار العلمية والحرية والديمقراطية الحقة والمعاني الإنسانية في الحياة، ظاهرا ومطلقا، في الشعار السياسي، وفي التنظير الأيديولوجي وفي التطبيق المتعالي على الناس وشبه الآلي أيضا عندهم، فمن الفضائل المعدودة في ذلك النظام " أن الشباب الشيوعي المثالي لا يفتش عن الدليل بل يشعر أنه إذا أقر الحزب أمرا ما، فهو أي هذا الأمر ضروري، وإذا كان ضروريا، فهو صحيح، وبما أنه صحيح فيجب أن يكون حقيقيا ولا يتطرق إليه الشك"(٢).

وهكذا تكونت آلية عصموية مطلقة جعلت للفرد اهتمامات محددة وفرغته من الرغبة في المشاركة بأي شيء، وألغته أو كادت، وجعلت الحزب بديلا للشعب، والقيادة السياسية بديلا للحزب، والقائد ـ في بعض الحالات ـ بديلا للقيادة، وهكذا يصبح قائد فرد بديلا لشعب.

وبعد سنوات وسنوات من الممارسة نخرت البيروقراطية والفساد بنى اجتماعية ونفسية، وتراجع الإنتاج في ظل تنافس عسكري وتقني ـ علمي حاد مع الغرب في الحرب الباردة، ولم تعد الأرضية الاقتصادية قادرة على تحمل أعباء التنافس الشديد على إحراز قصب السبق في التقدم العلمي والتقني، وامتلاك النفوذ والسيطرة في الأرض والفضاء، وعلى دول ومناطق ومحاور سياسية، في عالم تملكته ثورة المعلومات والتسلح النووي وغزو الفضاء وثورات التحرير، وأخذ يبحث عن كل ما يحقق تفوقا، وبدت الطاقة الإبداعية الفردية والجمعية فيه، وما تحتاج إليه من مناخ ملائم اجتماعيا وإنسانيا واقتصاديا لتتفتح وتنتج، من أهم العوامل الحاسمة في تحقيق تفوق حاسم في صراعاته المستمرة.

لقد أراد غورباتشوف أن يعيد الحياة والحيوية للنظرية والإنسان والاقتصاد في المنظومة الاشتراكية كلها دفعة واحدة، ولكنه جاء متأخرا جدا، أو استيقظ متأخرا، فلم يستطع أن يفعل ذلك ـ على الرغم من البيروسترويكا أو بسببها ـ لأن النظام كان قد نخر تماما وكذلك الإنسان، والبيروقراطية قد استشرت، والإمكانيات المالية والعلاقات الدولية لاتساعد على ذلك، والصراع على التفوق في الفضاء وفي الأسلحة الإستراتيجية بعد حرب النجوم قد دخل

مرحلة حاسمة. وحين أراد أن يدفع الغطاء عن القدر الذي يغلي انفجر في وجهه كم البخار الهائل المحصور فبدد كل شيء.؛ وسواء فشل في ضبط حركة إعادة البناء، أو اتخذها مدخلا لتحطيم العملاق السوفييتي حسب خطة مدروسة مع الغرب بما يشير إلى تواطؤ وارتباطات مريبة ـ كما يقول بعض الشيوعيين في أماكن عدة من العالم ـ فإن المجموعة الدولية التي كانت تشكل القطب المضاد لحلف الأطلسي، وهي منظومة حلف وارسو ـ أي منظومة الدول الاشتراكية ـ قد أصبحت على يديه، وابتداء منه، فاقدة للقوة والحضور والمبادرة، ثم تغيرت إلى النقيض مما كانت عليه في أيديولوجيتها وأهدافها السياسية وأنظمتها وتحالفاتها، ومساراتها الاقتصادية والثقافية بعد انهيارها.

وبذلك تهاوى نظام سيطر على العالم سبعين سنة تقريبا، وكان يستخدم القوة تحت ستار الأيديولوجية ليحقق المصالح، ويأخذ بشعارات خلقية ليخوض في ظلها حروبا من أجل النفوذ والتوسع والسيطرة واستغلال الآخرين، ونهب ثرواتهم، وكان دائما يترجح بين قوة السلاح وقوة الشعار ليكسب أكثر، وينتشر أكثر، ويفتك بالآخرين أشد. وكان الطرف الآخر ـ المنافس ـ أكثر ادعاء سوء وغطرسة وقوة، وأقدر على اللعب.

وتهافت صراع أو قل انتهى ـ بين أيديولوجيتين : رأسمالية واشتراكية، شغلتا العالم بحرب باردة باهظة التكاليف. وإذا كانت الحرب العالمية الثانية قد جعلت الشيوعية والإمبريالية : (البرجوازية ـ الرجعية ـ الاستعمارية ـ المستغلة ـ السوداء ـ الشريرة... الـخ ـ) تتحالفان ضد النازية والفاشية (٣) فإنها لم تستطع أن تجعلهما بمنجى من التنازع والتصارع والاقتتال، وإن كان أكثر اقتتالهما يتم بالوكالة وعلى حساب الآخرين، كما أنها لم تجعل أي طرف من الأطراف المنتصرة المتحالفة، يقصر عن رؤية مصالحة، أو عن السعي لامتلاك القوة، كل أشكال القوة : النووية، وغير النووية للدفاع عن نفسه وعن مصالحه في وجه حلفاء الأمس قبل أعدائه، وضد الشعوب والحكومات المستضعفة وكل أولئك الذين سحقوا بأشكال مختلفة وقاموا من رمادهم بأشكال مختلفة أيضا.

لقد حسم الأطلسيون آخر صراعاتهم مع أطراف حلف وارسو أو قل

حسم الإمبرياليون حربهم مع الشيوعيين، في معركة، تشكل نهاية حرب بين حلفاء، كما كانت الحرب العالمية الثانية حرب الحلفاء مع النازية وبداية حرب الحلفاء فيما بينهم، وكانت تلك معركة المصالح والشعارات والعقائد التي جرت آخر فصولها على أرض العرب، ودفع العرب ثمنها، وأتت على كثير من مقومات القوة والحيوية والوجود لدى العرب، وأعني بها حرب الخليج الثانية التي أعقبت احتلال العراق للكويت وأخرجت العراق مدمرا بعد خروجه من الكويت. فما هي آثار ذلك وانعكاساته في الدوائر الثلاث : العالمية والإسلامية والعربية؟! وما هي الانعكاسات والتأثيرات المباشرة في المنظومة ذاتها التي كانت اشتراكية أولا ؟!.

تلخص " ساجي أومالاتوفا " عضو المؤتمر السادس لنواب الشعب السوفييتي الأمر بعاطفية بقولها : " إن ما حدث خلال عام واحد في بلادنا لم يعرف التاريخ له مثيلا، لقد ذهب أدراج الرياح عمل ودماء الأجداد الذين ناضلوا قرونا عديدة من أجل وحدة الأرض والشعوب"(٤)، وقد جاء في بيان ذلك المؤتمر " أن أفظع جريمة ارتكبت ــ وهم هنا يحملون المسؤولية لغورباتشوف ــ هي أن الشعب السوفييتي فقد وحدته، ونشبت الحروب القومية بين الجمهوريات المتآخية. " (٥)

ولم يقف الأمر عند تلك الحدود، فقد اشتدت المعاناة الشعبية العامة، كما اشتدت معاناة الشيوعيين السابقين الذين كانوا أمراء البلاد، وأصحاب الكلمة النافذة في أوساط عديدة خارجها، وتهاوى تأثير النظرية، وانكشفت عيوبها، وقاد ذلك البعض إلى نوع من الوعي والبحث على أرضية الصدمة الشديدة.

لقد ضعف التأثير الماركسي كثيرا في مجموعة البلدان التي كانت اشتراكية، وحدثت ردة فعل مباشر على الماركسيين والشيوعيين أنفسهم في تلك البلدان؛ وإضافة إلى منع الأحزاب الشيوعية في مواطن نشوئها واعتبارها محرمة في كثير منها، وتغيير بعضها لأسمائها وأهدافها وبرامجها، فإن الثقافة الماركسية، التي من المفترض أن تبقى ولو في متاحف التاريخ، تعرضت هي الأخرى لنوع من الإبادة بأيدي الشعب، الذي كان يزعم الماركسيون والشيوعيون أنه الحامي الأكبر لها والمدافع الأقوى عنها (ففي

ألمانيا الشرقية) سابقا أتلفت جميع الكتب الماركسية التي كانت في المكتبات العامة، فقد قام الشعب هناك، بعد أن حصل على إذن من الحكومة، بوأد وإتلاف ٣٠,٠٠٠ ثلاثين ألف كتاب.

ويمنع الأساتذة الماركسيون الآن هناك، من التدريس حتى لو درسوا اللاهوت، ولم يعارض ذلك أحد، أو يحتج عليه أحد.

وتصاعد المد القومي هناك، بل قل ظهر التعصب القومي في جميع الدول التي كان يضمها ذلك المعسكر، ولم يكن ذلك نبتا شيطانيا تشمرخ فجأة، بل كان موجودا تحت ضغط شديد جدا، استشعرته بعض القوميات بقولها : إنها كانت تحت استعمار روسي، أو استعمار سوفييتي. ويكفينا أن نتفحص ما يجري من أحداث فيما كان (المنظومة الاشتراكية) لنجد أن الدول التي كانت تحتوي على أكثر من قومية، قد تفككت أو هي في طريقها إلى التفكك، وأن القوميات الموزعة على دول، تخوض نضالا إما من أجل الاستقلال عن القوميات الحاكمة المتحكمة، أو من أجل الوحدة مع دولها القومية التي كانت قد فصلت عنها بالقوة. وأمثلة ذلك كثيرة نذكر منها في تلك المنظومة :

ـ انفصال تشكوسلوفاكيا إلى دولتين (التشيك والسلوفاك)

ـ تفكك الاتحاد السوفييتي إلى أكثر من خمس عشرة دولة منها :

روسيا ـ أوكرانيا ـ جورجيا ـ استونيا ـ ليتوانيا ـ لاتفيا ـ روسيا البيضاء ـ كازاخستان ـ أوزبكستان ـ أذربيجان ـ قرغيستان ـ تركمانستان ـ طاجيكستان ـ أرمينيا ـ أبخازيا.. والحبل على الجرار.

ـ وحدة الألمانتين على أساس قومي، بعد هدم سور برلين الذي شكل، منذ إقامته عام ١٩٦١، " نقطة ضعف لحلف وارسو أمام حلف الأطلسي " حسب قول ايريش هونيكر رئيس ألمانيا الشرقية سابقا، الذي يرى في ذلك كله تأثيرا إيجابيا لجدار برلين على الصعيد القومي الألماني حيث يقول : ((وبرأيي لولا الجدار لما كانت هناك لا معاهدة

مع ألمانيا الغربية ولا اتفاقية هلسنكي ولا وحدة ألمانيا.)) [٦]

ـ كما أثر ذلك على الدول والقوميات الأخرى التي كانت تدور في فلك الاتحاد السوفييتي، أو تلك المتأثرة بالموجة الدعائية السائدة آنذاك والتي كانت تعلن (موت القوميات أو تتهم ما بقي ناشطا منها بالشوفينية) أو تقول إنها ـ كمشكلة في الاتحاد السوفييتي على الأقل، وفيه أكثر من ثمانين قومية ذات لغة خاصة ـ قد حلت نهائيا من منطلق علمي وعلى أسس الماركسية اللينينية.

لقد تبين تماما أن ذلك لم يكن أكثر من لغو وخداع للنفس. فها هو الصراع على أرضية قومية في صعود، ونرى صوره المدمرة في أكثر من مكان، في المنظومة الاشتراكية سابقا، وفيما عداها من البلدان، بل إن التعصب القومي على أساس شوفيني ـ نازي ـ عنصري قد أخذ يظهر هنا وهناك بدرجات مؤذية للحس الإنساني، لا سيما في أوربا (النازية في ألمانيا ـ الصرب في يوغسلافيا السابقة ـ الروس في موسكو...الخ).

وعاد الصراع على أساس ديني ـ مذهبي ليأخذ مكانه في تلك البلدان، بعد سبعين سنة من محاربة الأديان والإيمان، والدعاية المضادة لها، بل عاد التعصب والتطرف الدينيان. مما يعني أن الشيوعية ـ والماركسية كانتا تمارسان ضغطا وقمعا وإرهابا في كثير من الحالات والبلدان، ولم تقنعا أحدا بأن الدين أفيون الشعوب وأن القوميات يمكن إلغاؤها، وأن الإنسان يمكن أن يعاد تكوينه على أساس الفكر الماركسي أو يفقس حسب مواصفات كما في المداجن.

كما عادت نزعات الملكية بصور أقوى، مما يعني أن كل ما كان يقال عن إنجازات على صعيد التكوين الفردي ـ النفسي والاجتماعي، لم يكن لا صحيحا ولا قابلا للتطبيق.

وإن الانحلال الخلقي العام يشير إلى كارثة حقيقية لحقت بالنظرية،

سواء من جراء التطبيق أو من انكشاف عوراتها وعيوبها عند التطبيق، وعلى الصعد الاقتصادية والمادية والروحية والفكرية. وهو أمر لم يكن بلا نتائج مدمرة ليس على الاتحاد السوفييتي والمنظومة الاشتراكية فقط، بل على كثير من المجتمعات والشرائح الاجتماعية والبلدان والأحزاب التي ارتبطت به وبها.

إن الخواء الروحي العام أدى إلى سقوط المنظومة الرئيسة الثانية في العالم بين يدي خصمها، أيا كانت الوسائل، من دون أن يكون لكل ترسانة القوة التي تملكها والأسلحة النووية والتقليدية، وتقنيات غزو الفضاء، والنظرية الماركسية ـ اللينينية التي تحتكر العلم والعصموية التامة، من دون أن يكون لكل ذلك أي تأثير في المعركة أو في رد الفعل العام عليها.

لقد كان الفتك معنويا ونفسيا وروحيا طوال سنوات، وجاء الامتحان ليظهر أن كل شيء قد انتهى لصالح الأعداء، وأن الفساد والبيروقراطية وخواء العقيدة قد أتى على كل شيء. الأمر الذي يدعونا إلى التفكير جديا بمقومات بناء الأخلاق والإرادة والكيان العام للفرد والمجتمع على أرضية الإيمان بعقيدة أعطت توازنا وضمانا، في المنحيين الروحي والمادي للإنسان، ليعيش وينتج، ويعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا ولآخرته كأنه يموت غدا.

بانهيار المنظومة الاشتراكية انتهت الحرب الباردة بين الشرق والغرب، وانتصرت قوة وحيدة أصبحت هي القوة المسيطرة على كل العالم لامتلاكها الأسلحة الإستراتيجية القادرة على أن تشكل قوة ردع حقيقية لكل من يتعوض لها أو لمصالحها؛ وأصبحت الولايات المتحدة الأمريكية زعيمة حلف الأطلسي المنتصر، هي حكومة كل العالم، إن صح التعبير، من خلال تدخلها المباشر في شؤون الآخرين، وسيطرتها على مجلس الأمن، وتبعية الأقوياء الآخرين لها تنفيذا لتحالفات ومصالح؛ وتحولت المنظومة الاشتراكية السابقة وعلى رأسها روسيا إلى تابع للغرب يطلب المساعدة والنصح.

ويحدد ديك تشيني وزير الدفاع الأمريكي السابق الوضع بعد انهيار الاتحاد السوفييتي بقوله :

" إن حل الاتحاد السوفييتي بوصفه دولة، وموت الأيديولوجية

الشيوعية، أديا إلى انتهاء خط الهجوم العسكري التقليـــدي الواســع النطـــاق والمباشر على أوربا. والذي كان الهاجس الرئيسي لسياستنا الأمنية خلال مـــا يزيد على ٤٠ سنة. ولم نعد مشغولين في المواجهة الأيديولوجية العالمية ضد دولة عدوانية توسعية تأخذ بسياسات معادية لقيمنا الأساسية. وفـــي الوقـــت الراهن يتطلع القادة الجدد للجمهوريات السوفييتية السابقة إلى الغرب من أجل المساعدة والنصح.".

وقد قال عن ذلك وزير الخارجية الروســية كوزيريــف مؤخــرا: " إن الدول المتقدمة في الغرب هي من الحلفاء الطبيعيين لروسيا. وقد حان الوقــت للقول إننا لسنا أعداء.".

وقال تشيني أيضا : " ليس محتملا أن يظهر مرة أخرى تحد تقليـــدي عالمي للأمن الأمريكي والغربي من قلب أوراسيا "أوربا وآسيا " في الســنوات القادمة، فالأحداث تمارس تأثيرا كاســحا ودراماتيكيــا فـــي قـــدرات القـــوات العسكرية السوفييتية السابقة. فالجاهزية ومستويات القوة تنحدر إلى حد كبير، ويتم تجاهل التجنيد على نطاق واسع، كما تسحب الوحدات من ألمانيا الشرقية وأوربا الشرقية، وكذلك فإن نسبة كبيرة من الإنفاق العسكري يحول من مجـال العمليات وحيازة الأسلحة إلى الإنفاق على الأفراد بغية منع الانهيار الشـــامل للمستويات المعيشية للقطاعات وأسر العسكريين؛ وعموما، فإن ولاءات هـــذه القطاعات أصبحت مشتتة وغامضة. إن تنفيذ اتفاقيات السيطرة على الأســلحة سوف يساهم في خفض أي قدرات عسكرية مهددة، وكذلك، فإن هـــذا التنفيــذ سوف يساعد في النقل المتوقع لموارد هامة من الأغـــراض العســكرية إلـــى الأغراض المدنية." (٧)

وقد تفرغت الولايات المتحدة الأمريكية الآن، وعلى ضـــوء ذلـــك إلـــى إعادة بناء قواتها، وهو أمر له مدلوله الكبير ومعناه وتأثيره، في ظل الأوضاع الدولية الحالية. كما تفرغت لتنفيذ سياساتها الرامية إلـــى تـــأمين مصالحـــها وتحقيق أهدافها وهيمنتها، وأخذت تمارس، من خلال مجلس الأمن، بوقاحة لا مثيل لها، سياسة ازدواجية المكاييل ضد الدول والشعوب، بما يؤكـــد توجـــها عدوانيا مريضا ضد الآخرين الذيـــن لا يتفقـــون مـــع تكويـــن الأمريكـــي ـــ

الصهيوني أو الصهيوني الأمريكي. وهو الأنموذج السياسي السائد في الإدارات الأمريكية الحاكمة.

من زاوية ثانية..

احتل الأقوياء المنتصرون في الحرب العالمية الثانية /أي الحلفاء/ بعد أن سووا خلافاتهم وانتهوا من صراعاتهم /احتلوا مجلس الأمن بقيادة موحدة أجبروا على الانصياع لها أو اختاروا الرضا بها وأصبح لزاما عليهم أن يأتمروا بأوامرها تحت تأثير القوى الآتية والمعطيات والمؤشرات الآتية :

ـ قوة السلاح النووي والتقليدي معا بعد انهيار قوة الاتحاد السوفييتي أو إبطال مفعولها المناوئ للقوة الأمريكية، واطمئنان أميركا إلى :

١- قوة الاقتصاد الأمريكي وارتباطاته المؤثرة وسيطرته على النفط لا سيما في الخليج العربي كله بعد إخراج العراق من السوق.

٢- قوة الإعلام الأمريكي المؤثر بوسائل تقنية متقدمة، وانتشاره وسيطرته، مع أخذ القوى الغربية الموالية تقليديا لأمريكا ـ لا سيما بريطانيا ـ بعين الاعتبار.

٣- قوة تأثير الجاسوسية الأمريكية الـ C. I. A. على مواقع قرار متعددة سياسيا في العالم.

٤- سيطرة أمريكا على سوق السلاح العالمي بالدرجة الأولى حيث أصبح مكانها هو المكان الأول بعد أن تراجعت مبيعات الدول المنافسة لاسيما الاتحاد السوفييتي، وبعد فتح أسواق مبيعات جديدة سيطر عليها كليا من قبل أميركا وهي أسواق: الخليج العربي ـ السعودية ـ الكويت ـ الإمارات العربية المتحدة ـ قطر ـ عمان ـ البحرين....الخ..... وتبين الأرقام الآتية ارتفاع المبيعات الأمريكية في السنوات الأخيرة مقارنة مع مبيعات سواها (٨):

ومن المعروف جيدا أن الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وبريطانيا تحديدا قد زادت مبيعات كل منها في عامي ١٩٩١ و ١٩٩٢ عن الدول التي كانت تزاحمها، ولا سيما في أسواق الخليج العربي، بعد أن توقفت مبيعات الاتحاد السوفييتي تقريبا إلى أهم المستوردين لأسباب معروفة. وقد بلغت

مبيعات الولايات المتحدة الأمريكية من السلاح لدولة خليجية واحدة (٢٠) عشرين مليار دولار في سنة.

وبسبب من هذا كله أصبح القرار السياسي الأمريكي هو قرار عالمي ملزم (طوعا أو كرها) للآخرين، ويأتى ممهورا ببصمات ممثلي الدول الأخرى المقهورة أو المشتراة أو المبهورة بالسيد الأمريكي في حلته الجديدة.

لقد انكشفت كل الدول والتنظيمات والحركات السياسية والاجتماعية التي كانت ترتبط بالمنظومة الاشتراكية وتعتمد على دعمها المادي والمعنوي، وتتحالف معها أو تتعامل معها. وأصبحت جميعا في حالة ضعف وبعضها في حالة ملاحقة. وأثر ذلك على قضايا وأهداف في أماكن مختلفة من العالم تأثيرا سلبيا. وتوقفت في بلدان ومناطق حركات كانت تقوم بحروب بالوكالة وتدفع الشعوب والبلدان ثمن صراعات لاتعود عليها بالنفع.

وقد أثر ذلك أيضا على نوع العلاقات الدولية، وعلى منظومات دولية مثل منظومة دول عدم الانحياز ــ وعلى منظمات دولية كان الصراع في داخلها يلعب لعبته. وانكشفت المجموعة العربية التي كانت تتحالف مع الاتحاد السوفييتي ودول المنظومة الاشتراكية، وتحاول أن تخلق توازنا في إطار صراعها مع العدو الإسرائيلي، ولو في مجالات معينة مثل شراء السلاح، مما أدى إلى السير في طريق التسوية وانعقاد مؤتمر مدريد. وهو ما قد نفصل فيه قليلا عند الحديث عن التأثير في الدائرة العربية.

ومن الطبيعي أن يكون هناك تأثير على كل الأحزاب الشيوعية في العالم وهو تأثير ذو شقين :

ــ إذ فقدت كل تلك الأحزاب تقريبا دعما وتمويلا، وقوة كانت تمنحها لها المنظومة الاشتراكية. كما فقدت مصداقية كبيرة بين الأوساط السياسية، وتراجع حضورها في الساحتين الفكرية والجماهيرية، وفقدت البرامج والتوجيه والدور والقائد الموجه حتى إنها دخلت فيما يشبه الضياع، وبعضها غير اسمه وبعض أهدافه، وقامت كلها تقريبا بمراجعة للذات وللمسيرة.

ـ تخلصت من تبعية مطلقة وعاد لها قرارها الوطني وانتماؤها، وأخذت تكتشف كم كانت ملحقة ومهمشة وبعيدة عن دائرة القرار الوطني، وعن الممارسة الديمقراطية، وكم كانت حجوم الأوهام التي تعيشها، والأخطاء التي مارستها وتمارسها كبيرة. الأمر الذي جعلها تبحث عن مصالحة مع النفس ومع الغير ومع غيرها، وتعيد اكتشاف العالم من حولها.

وقد وقفت الأحزاب الشيوعية، ولا سيما الأحزاب العربية منها، على مدى النفوذ الصهيوني الذي كان على الحركة الشيوعية عموما وفي منظومة الدول الاشتراكية والاتحاد السوفييتي على رأسها. وأخذت ترى ما كان ماثلا أمامها ولا تراه، وبدأت تعلن ما كان يعرفه ويعلنه البعض وتنكره عليهم. وبدأت تقرأ قراءة جديدة ـ وطنية وقومية وموضوعية نسبيا، تحت تأثير اكتشافها لدور الصهاينة في تدمير الاتحاد السوفييتي ـ معنى الأرقام والقرارات والتوجهات والأسماء الآتية ودلالاتها مثل :

ـ وجود نسبة ٨٣% من اليهود في قيادات الأحزاب الشيوعية العالمية والدولة السوفييتية الأولى عام ١٩١٨ وسيطرة أولئك على كل شيء.

ـ وجود نسبة ٨٣,٥% من اليهود في قيادات الأحزاب الشيوعية العالمية بما في ذلك الاتحاد السوفييتي قبل الحرب العالمية الثانية مباشرة ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩ م.

ـ معنى أن يقوم يهود صهاينة، بتأسيس الأحزاب الشيوعية أو المشاركة في قيادتها والسيطرة عليها في الوطن العربي على الخصوص مثل:

١- أرتين مادويان (أرمني صهيوني) (الحزب الشيوعي السوري واللبناني).

٢- يوسف برغر (الحزب الشيوعي الفلسطيني).

٣- هنري كورييل وآخرون (الحزب الشيوعي المصري).

وقس على ذلك في الأحزاب الشيوعية العربية الأخرى. وأخذت تدرك معنى حرص اليهود الصهاينة على السيطرة على تلك الأحزاب وتوجيههم لقراراتها وتحركاتها مركزيا من موسكو.

ومدلول قرارات ومواقف سوفييتية أخرى تتعلق بتقسيم فلسطين، وإقامة "إسرائيل" والمبادرة إلى الاعتراف بها، والموقف من مشاريع الوحدة العربية...الخ ومن ذلك كله، نقف على بعض ما نتج عن ذلك الحدث الكبير.

وقبل أن ننتقل من هذه الدائرة نستنتج أن الحروب القادمة سوف تكون حروبا اقتصادية بالدرجة الأولى، ثقافية ـ إعلامية بالدرجة الثانية، وتقوم قوة الردع في تلك الحروب على الأسلحة الإستراتيجية (نووية وغير نووية) بالدرجة الثانية، وعلى الأسلحة التقليدية وذات القوة التدميرية العالية بالدرجة الأولى؛ ولكنها لن تستخدم إلا عند الضرورة.

ولإبعاد شبح الحرب بين الأقوياء بدأ تصنيع أعداء جدد، ورسم أهداف إستراتيجية جديدة، وخطط ذات بعد زمني جديد، ليتسنى للأقوياء الاستمرار في نهب الضعفاء أولا، والتقليل من فرص الاحتكاك المميت فيما بينهم ثانيا، وإعادة ترتيب الأولويات في ضوء التعايش الفعال فيما بينهم، والاستمرار في خلق بؤر توتر " وشياطين جدد "، وأعداء مشتركين، تاريخيين أو غير تاريخيين، لتبقى هناك مسوغات لترويج السلع السود، ولخلق مناخ تزدهر فيه تجارة الدم والموت والسلاح، والأسواق السود المرتفعة التكاليف من أي نوع ومن كل نوع. وليستمر استنزاف طاقة العرب والمسلمين وإبقائهم في المصيدة. وهذا يقودنا للانتقال إلى دائرة ثانية هي دائرة التأثير إسلاميا.

على صعيد آخر أثرت واقعة سقوط المنظومة الاشتراكية إسلاميا في عدة مناح أذكر منها :

١- توقف حالة الاضطهاد والقمع المباشر للمسلمين في الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى، وانتعاش الإسلام من جديد بين أوساط المسلمين، وإعادة ربط الصلة علنا بالعقيدة، وممارسة الواجبات الدينية، والتواصل مع

الثقافة الإسلامية في حدود دنيا، وقيام صلة مباشرة بين مسلمي " الاتحاد السوفييتي السابق " وبقية المسلمين، يمكن أن تقوى وتتوسع وتؤثر إيجابيا على حضور المسلمين في هذا العصر.

٢- تفرغ الغرب (الولايات المتحدة الأميركية وأوربا) لموضوع قديم جديد متجدد يحمل عداء للمسلمين، يتخفى بأشكال مختلفة ويبحث عن صور للظهور. فبعد حرب الخليج الثانية، وانتهاء الحرب الباردة صرح الرئيس الأمريكي بوش في خطابه الشهير بعد نهاية الحرب: ((بأن القرن القادم سيكون القرن الأمريكي وسوف يشهد تعميم القيم الثقافية الأمريكية والسلوك الأمريكي في كل أنحاء العالم.)) وعلى الرغم من مما في هذا من عنجهية وادعاء ومظاهر غزو مكشوفة للآخرين وثقافاتهم، إلا أن المتضرر الرئيسي منه ليس الغرب بمقدار ما هم العرب والمسلمون.

وقد وضح ذلك وفسره آخرون يعملون في أطر السياسة والثقافة الغربيتين، وترجموا ذلك إلى حقيقته لاحقا في تصريحات وكتابات وممارسات، لم تنحصر في أمريكا وأميركيين، وإنما تفاعلت وظهرت أعلامها في أوربا أيضا، في أمثال : هنري لوبين الفرنسي ــ وممارسات تاتشر وأمثالهما. حيث أخذ الموقف العام توجيها للحقد والقوة الغربيين لإنهاء الصراع "الصليبي" أو الغزو الصليبي ضد المسلمين الذي مازال تحت الرماد.

فقد قال بعض سياسي الولايات المتحدة الأميركية ومنظري الغرب وإعلامييه، صراحة : ((إنه كما شهد القرن الحالي سقوط الماركسية والشيوعية سوف يشهد القرن القادم سقوط الإسلام والعروبة.))

وأخذ العداء يتضخم ويخطط له ليأخذ طريقه للتنفيذ بأيدي مختلفة وبوسائل مختلفة. بدأت حملة الكراهية والحقد تتدحرج، وفي ١٩٩٢/٦/٤ م حمل غلاف مجلة الإ يكونوميست قولا لمساعد وزير الخارجية الأمريكية دجيريجيان على شكل إعلان مثير "(الإسلام هو الأيديولوجيا المعادية للغرب).

وصرح حاييم هرتزوغ رئيس الكيان العنصري الصهيوني من أسبانيا، موجها كلامه لأمريكا قائلا :(إن الأصولية الإسلامية أخطر من الشيوعية،

وإن جيش "إسرائيل" أقل تكلفة لتحقيق حسم من نقل جيوش إلى المنطقة كما حدث في عاصفة الصحراء.). وأخذ التركيز صهيونيا وغربيا على بث موجة العداء ووضع خطط لجعل المسلم الأصولي "إرهابيا وبشعا وخطرا على الآخرين." وكل ذلك أصلا كان لمواجهة الإسلام الذي يتقدم بأشكال مختلفة، ويستيقظ بأشكال مختلفة.

ومن دون أن ندخل في تفاصيل ذلك، نشير إلى خلاصة : أن الغرب تفرغ لتصفية حسابات قديمة مع المسلمين ولمواجهة الإسلام ونواته الصلبة : العرب؛ من أجل تحقيق ذلك أخذ بسياسة تؤدي إلى :

- ضرب مسلمين بمسلمين.
- ضرب عرب بمسلمين.
- ضرب عرب بعرب على تلك الأرضية أو سواها.
- منع المساعدات وعدم بيع الأسلحة والحيلولة دون تمكين العرب والمسلمين من امتلاك التقانة حتى لا يتمكنوا من اكتساب المقدرة على امتلاك سلاح (نووي أو غير نووي) وامتلاك قوة يدافعون بها عن أنفسهم.
- إحياء صراعات بين السنة والشيعة وتهيئة أحلاف لذلك بغية منع إيران من العمل للإسلام ولمصلحة قضية فلسطين؛ وخلق بؤر توتر دائمة في الخليج تسمح للغرب بالبقاء والسيطرة وتصدير السلاح وتسويق الهيمنة والتحكم بالطاقة وبالقرارات السياسية والإرادة.
- حصار المسلمين وإبادتهم في مناطق مختلفة، وشن حروب عليهم. في ظل منع السلاح وحتى الغذاء عنهم؛ مثال : البوسنة والهرسك والعرب بمواجهة "إسرائيل".
- الاستيلاء على بلدانهم مباشرة إذا ما فكروا باكتشاف الثوابت التي تجمعهم، ومواجهة العداء الذي يواجهون به.

ـ تشجيع "إسرائيل" على ممارسة العدوان ضد عرب مسلمين، والفتك بالروح المعنوية هنا وهناك. من البوسنة والهرسك إلى جنوب لبنان وجنوب السودان، ومن إلى الصومال إلى آسيا الوسطى.

وتوظف الولايات المتحدة الأميركية قوى وطاقات وتخلق أوضاعا لتسيير عجلة الموت والعنف والتدمير، إسلاميا وعربيا، لتتفرغ هي لقطف الثمار. وقد التفت بعض الروس إلى سياسة الإدارة الأميركية التي تريد أن تضعهم في خدمتها. وعبرت عن ذلك جريدة النهار الروسية حيث قالت :

" يفترض كلنتون إمكانية استخدام روسيا من أجل فرض الهيمنة العالمية تجاه الجنوب الإسلامي، ومن أجل ذلك يصبح غير مفيد تهديم قدرات روسيا بشكل نهائي. وانطلاقا من هذه الرؤية يرى إستراتيجيو الحمائم العالميون أن الموقف من روسيا يجب أن يتغير من :" عدو تم الانتصار عليه " إلى " أداة لا حول لها بين أيدينا ". وبهذا الشكل يمكن استخدام روسيا للوقوف بوجه أوربا وخاصة ألمانيا، التي تتطور بشكل عاصف. ومن جهة أخرى يمكن جر الشمال الروسي وإقحامه في صدام مخطط له مسبقا مع الجنوب الإسلامي في آسيا الوسطى، وستجتذب إلى هذا الصراع عاجلا أم آجلا إيران والعراق؛ وعندما يبدأ الروس والمسلمون بإراقة دمائهم يتحطم الأعداء الأساسيون للحكومة العالمية بعضهم بأيدي بعض تحت الأنظار. وتتم الفرحة لإسرائيل والغرب المتحضر الذين يصرخون كل يوم حول حقوق الإنسان متهمين الروس والمسلمين بالبربرية"(٩)

والولايات المتحدة الأميركية لا تخفي قلقها من تحرك المسلمين في آسيا الوسطى بعد استقلالهم، كما أنها تضع استراتيجيتها المستقبلية، وفي تصورها وقوع تحرك إسلامي،وكيفية مواجهته أو السيطرة عليه أو توظيفه ليخدم استراتيجيتها العامة ومصالحها الكبرى. وهذا بعض ما أشار إليه مارتن أنديك مدير شؤون الشرق الأدنى وجنوب أسيا في مجلس الأمن القومي الأميركي في بيان يوضح سياسة إدارة كلنتون في المنطقة حيث قال : " مع انتهاء الحرب الباردة أصبحت هناك حاجة إلى إعادة تحديد المنطقة بوضوح،

وعلى الرغم من وقوع الدول الإسلامية التي استقلت مؤخرا في أسيا الوسطى على حدود منطقة الشرق الأوسط، فإنه يتعين إدماجها في استراتيجيتنا للمنطقة. وإذا فعلنا ذلك، ندرك الأهمية المتزايدة لدور تركيا في حساباتنا الإقليمية. فخلال الحرب الباردة كانت تركيا تعامل بدرجة كبيرة، على أنها دولة أوربية، وشريكة في جهود منظمة حلف شمال الأطلسي الرامية إلى احتواء الاتحاد السوفييتي. والآن يأتي دور تركيا لتلعب دورا هاما ليس في أسيا الوسطى فحسب، ولكن في الشرق الأوسط أيضا. والآن أصبحت تركيا التي لها حدود مشتركة مع إيران والعراق وسورية، مهمة للجهود التي نبذلها لاحتواء نظام صدام حسين، والإبقاء على ترتيبات عملية توفر الراحة لسكان العراق. وباختصار فإن تركيا هي دولة علمانية وديمقراطية وإسلامية، وهي تحتل موقعا عسكريا استراتيجيا، وهي قوة اقتصادية، وحليفة قديمة للولايات المتحدة. إن أحد التحديات التي نواجهها هي أن نستخدم هذه العوامل أفضل استخدام في سعينا لتحقيق أهدافنا في الشرق الأوسط ".(١٠)

وأضاف البيان في مكان آخر "مادمنا نستطيع الاعتماد على حلفائنا في المنطقة : مصر وإسرائيل والعربية السعودية ودول مجلس التعاون الخليجي وتركيا، للمحافظة على توازن القوى في صالحنا في منطقة الشرق الأوسط الأوسع نطاقا، ستتوفر لدينا السبل للتصدي للنظامين العراقي والإيراني. ولن نحتاج لأن نعتمد على واحد منهما لمواجهة الآخر"(١١)

وهذا يوضح بجلاء أن الغرب، بعد انهيار المنظومة الاشتراكية، سوف يوجه اهتمامه لخلق جبهات متعادية /عربية ــ عربية /وعربية ــ إسلامية/ وإسلامية ــ إسلامية لتخوض صراعا مستمرا يؤدي إلى استنزافها وإفناء قواها وجعلها غير قادرة على حماية نفسها ومصالحها وعقيدتها وثقافتها وأراضيها، وغير قادرة أيضا على الالتفات للتنمية والتقدم العلمي والتقني، ولا على امتلاك الوسائل التي تحقق بواسطتها مواجهة ناجحة وحفاظا على حضورها الحيوي في مجالات التفاعل الثقافي والاجتماعي والعقيدي على الخصوص، وهذا بالذات يهم الغرب خصوصا، لا سيما وأنه يحاول أن يخلق ظروفا وأسبابا ومناخا يساعده على أن يجعل عجلة الفتنة تدور على مستويات

مختلفة وبأشكال مختلفة.

وليس مصادفة أن يتصاعد دخان الحرائق في أماكن عديدة من حدود العالم الإسلامي مع البلدان الأخرى، حيث تفتح جبهات ساخنة، ويستمر الضغط لإيقاف التقدم واليقظة من جهة ولإحداث الإحباط والتفتيت والضعف المؤدي إلى الخواء واليأس من جهة أخرى، ولتزداد الفرقة الداخلية والتبعية للغرب فيحكم سيطرته أكثر ويتحكم بالأمور أشد.

لقد عجز مؤتمر القمة الإسلامي مثلا عن وقف المذبحة في البوسنة والهرسك، وعجز عن فك الحصار، وعن إرسال قوى له ضمن قوات الأمم المتحدة، وعن تحريك مجلس الأمن لحماية المناطق الآمنة التي فرضها أو للدفاع عن قوى الأمم المتحدة هناك. بينما يتم فتك كبير في الصومال بالمدنيين لأسباب أوهى بكثير جدا مما يجري في البوسنة والهرسك. وهذا لا يشير إلى ازدواجية ىمكاييل فحسب وإنما إلى تعامل على أساس عنصري واستراتيجي من قبل الغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمركية المتصهينة، موجه ضد العرب والمسلمين أينما كانوا.

وينسحب كل ما تم على الصعيد الإسلامي من تأثيرات لانهيار المنظومة الاشتراكية، ينسحب على الصعيد العربي، ولذلك سوف أوجز بعض النقاط الظاهرة والمؤثرة في آن معا التي قد يكون لها بعض الخصوصية.

١- لم يعد هناك حضور لمحاور أو جبهات، سواء تأسست من دول أو من أحزاب وتنظيمات، رافضة أو معارضة أو حاكمة؛تعتمد على المنظومة الاشتراكية أو تتغذى منها، أو تضع استراتيجية بالاعتماد عليها؛ محاور تشكل مصادر لشراء السلاح، أو للحصول على دعم معنوي وإعلامي من أي نوع.

٢- لم تعد الأحزاب الشيوعية العربية تستمد خططها وتمويلها ومعاركها وبرامجها من مركزية خارجية. وأدى هذا إلى ضعف وتمزق في حالات، وإلى ضياع عند شرائح كثيرة منها في حالات أخرى؛ وإلى مراجعة للذات إيجابية المنحى عند بعض الأحزاب وجعلها تفكر بخيارات وطنية وقومية ونضالية أكثر ارتباطا بالواقع العربي وقضايا الأمة، وتخفف من الاهتمام

بالقضايا والمعارك الأممية العالمية، وتلتفت إلى الصراع العربي الصهيوني كصراع رئيس، وتركز على ما قامت به الصهيونية تاريخيا من دور في الحزب الشيوعي السوفييتي منذ التأسيس حتى الإلغاء الرسمي، ذلك الإلغاء الذي كان للصهيونية دور مؤثر فيه؛ كما مكنها من تفسير التوجهات والممارسات الفعلية لقيادات شيوعية كانت فوق مستوى الشبهات بنظرها. ولا يتوقف الأمر عند غورباتشوف (١٢) بل يتعداه إلى آخرين، وفي كل مجال وفي كل بلد.

٣- افتقر العرب إلى حليف، ومصدر تسليح، وسند في المحافل الدولية. وقد أدى ذلك إلى تراجع الطرح الراديكالي إلى حد كبير في كثير من القضايا والطموحات والتطلعات، وألحق ضعفا أو قل انهيارا فيما يتعلق بالموقف العربي من القضية الفلسطينية على بعض الجبهات، وجعل الخيارات تتجه نحو الحل السلمي بشكل نهائي، وسرع موضوع انعقاد مؤتمر مدريد.

وجعل ذلك رعاية الروس للمؤتمر ومشاركتهم في التأثير على أطرافه شكلية وذيلية إلى أبعد الحدود، وفتح المجال أمام دول عربية للإعلان عن مواقف من الصراع العربي الصهيوني ومن " إسرائيل" كانت تخفيها وتبحث عن فرص ملائمة للإعلان عنها. وأدى هذا إلى الإسراع في (تعريب كامب ديفيد) وتسريب روحه العام إلى دول وشرائح اجتماعية، كما أدى ببعض الدول إلى أن تعيد حساباتها وترتب علاقاتها بعيدا عن الالتزام القومي بالقضية الفلسطينية، وعمن ينادون بالتمسك بالعمل القومي، وبالقضايا المصيرية، وبحلها حلا مشرفا على أساس عربي عام.

٤- انتعش الفكر الإسلامي، وتيار الإسلام السياسي بمواجهة الفكر الماركسي والشيوعية، حيث تراجع الأخيران نظريا وعمليا، في ساحات ومواقع كثيرة، وكذلك بالنسبة للفكر القومي الذي تراجع بدرجة أقل من جراء المتغيرات التي نتجت دوليا، وما رافق حرب الخليج الثانية من تأثيرات ومضاعفات عربية.

وواكب ذلك أو نتج عنه تأثير ثنائي مؤكد على الفكر القومي:

ـ فمن جهة خفف الضغط على الفكر القومي من قبل التيار الماركسي الذي كان يتهمه بالشوفينية، ويخوض نضالا، معلنا وسريا، ضده، ولا يرى في الطرح القومي حلولا مرضية. والتاريخ يكشف المواقف المتضادة للتيارين، ولا سيما من موضوعات مثل :

الوحدة العربية بأشكالها، الصراع العربي الصهيوني، قضايا التحرر العربي، والتعريب في المغرب العربي...الخ وقد أصبح كثير من الشيوعيين الآن يحرصون على تصحيح موقفهم من القومية العربية والقوميين العرب، وحتى من الإسلام ـ لدى قلة منهم ـ أو يعيدون تفسير مواقفهم وتوضيحها منهم ومنه، ومن الأمة العربية التي كانت بنظرهم مشروع أمة لأنها لا تتفق ـ من وجهة نظرهم ـ مع تعريف ستالين للأمة الذي تبناه شيوعيون كثيرون، واختلفوا حول تفسيره بحرفيته أحيانا. وسوف أتوقف قليلا عند هذا الموضوع، على الرغم من أن ذلك قد يشكل استطرادا أو خروجا نسبيا عن السياق العام لهذه الفقرة.

يقول خالد بكداش الأمين العام للحزب الشيوعي السوري، مقدما تعريف ستالين للأمة العربية وموضحا بعض الالتباس في الموقف : " الأمة جماعة ثابتة من الناس لها أرض مشتركة، ولغة مشتركة، واقتصاد مشترك، وتكوين نفسي مشترك ينعكس في الثقافة " هذه هي مقومات الأمة الماركسية اللينينية، إذا فقد أحدها يكون مفهوم الأمة غير صحيح(...) إن مقومات الأمة موجودة فيما يتعلق بالعرب، والمهم استكمالها، يقولون : هناك أرض مشتركة، فإذا سارت المساعي فيما يتعلق بتكوين اقتصادي مشترك، تكون الأمة قد استوفت جميع مقوماتها." ويتابع بكداش " يكمن الخلاف بين الماركسيين العرب حول مسألة القومية في مسألة حرفية تعريف ستالين. ولقد دارت نقاشات طويلة حول هذا التعريف، وقيل إنه خاطئ ودعوا إلى عدم الأخذ به (...) الآن يتداول تعبير الأمة العربية.(١٣)

وقد كان الشيوعيون العرب دائما مع الأقليات القومية، ضد القومية العربية ـ ويظهر ذلك حتى في البنية التنظيمية لكثير من الأحزاب الشيوعية،

حيث يقل العرب فيها ويكثر سواهم ـ وهم لا يعتبرون العرب أمة، على الرغم من المقومات التامة للأمة العربية؛ في حين يأخذون بحق مجموعات بشرية لا يتجاوز تعداد سكانها العشرة ملايين نسمة ولا يتعدى عمر ثقافتها وحضورها الزمني قرونا ثلاثة، وليس لها المقومات الكاملة التي للأمة العربية وليس لها عراقتها ولا تأثيرها الحضاري عبر التاريخ، إذ يمتد عند العرب آلاف السنين؛ يأخذون بحقها في أن تكون أمما ويتعاملون معها على ذلك الأساس ولا يرون للعرب مثل هذا الحق.

أما كيف كان يستقيم ذلك، فالأمر يعود عندي إلى أحادية النظرة، وإلى الالتزام المطلق بالإملاء الأيديولوجي والسياسي الآتيين من الخارج، والمحكومين برؤية وتأثير وتخطيط صهيوني قائم في المركز، يهدف إلى تفتيت قوام الثقة والأمة والوحدة والقوة عربيا، وإلى إبادة ذلك ما أمكن. وينصب على الأحزاب الشيوعية العربية من القيادة في موسكو، حيث توضع التعليمات وتحدد الأهداف والبرامج والسياسات (١٤) إنه ذلك الجهد الصهيوني، والصهيوني الغربي ـ وينبغي أن نأخذ بالاعتبار ثقل الصهاينة مضافا إليه ثقل المسيحية الصهيونية، والماسونية والمؤسسات والمنظمات العاملة معها، عند تقدير جهد هؤلاء ـ الذي كان ومازال يرمي إلى تشويه نظرة العالم إلى الأمتين العربية والإسلامية، وإلى غرس الدونية في نفوس أبنائهما؛ وإلى تعميق ذلك الشعور؛ بالإضافة إلى استنبات الشقاق والصراع المعطل للقوى، بالتعاون مع الاستعمار الغربي قديما، ومع الغرب المتصهين المتسلط المتغطرس في هذا العصر.

ومن جهة أخرى تصاعدت مطلبية التيار الإسلامي المتنامي بإلغاء المقولات القومية وتذويبها في الإسلام بشكل مطلق، لكل الأمم والشعوب. ولما كان التياران القومي والإسلامي قد دخلا منذ بداية هذا القرن ـ من نافذة الفكر قبل تشكيل الأحزاب والتنظيمات ـ في جدل وصراع وحتى في اقتتال حول هذا الأمر، فإن تلك المطلبية تفتح بابا تأتي منه رياح خطرة لا بد من التصدي لضررها قبل أن يستفحل أمرها من جديد، لأننا نحتاج اليوم إلى

الحوار على أرضية من الثقة والاحترام والاعتراف بحق الآخر في الاختلاف، لنصل إلى جبهة قوية تتمسك بالثوابت المبدئية، وبالمشترك العتيد؛ لنتمكن من التصدى لأخطار أشد، تقتحم علينا أوطاننا وبيوتنا وعقولنا.

في الزمن السابق لانهيار المنظومة الاشتراكية وأيديولوجيتها كان الشيوعيون يدخلون من باب القومية إلى ساحة التيار الإسلامي بقصد التضييق عليه وإحراجه لإخراجه، ومن باب العلمانية ـ مع أنهم ملحدون والعلمانية لا تجافي الإيمان والإلحاد يجافيه ـ ومن باب الاشتراكية العلمية والصراع الطبقي.. إلى آخر ما هو مفهوم ومعلوم. لأنهم لم يكونوا قادرين على المجاهرة بالإلحاد في أوساط الجماهير قبل أن تكون السلطة معهم.

وفضلا عن ذلك فقد كانوا يهيئون المناخ لوصول قوتهم التي ستنتصر في العالم، فتنصبهم قادة وسادة، إذا فلا ضرورة للمغامرات الكبيرة (محليا) في خضم جماهيري قومي وإسلامي، لأن الحلول ستأتي مع الانتصار الحتمي للمركز، وما عليهم إلا أن يكونوا موجودين ليشهدوا تسليم السلطة، وذاك هو دورهم وانتصارهم. أما الآن، وبعد انهيار المركز، فقد أصبح التيار الماركسي ـ وضمنيا أومن باب أولى ـ الشيوعي، على استعداد لمراجعة الذات حول مقولة الإلحاد ذاتها، وحول مقولة ماركس :" الدين أفيون الشعوب ". ومن الطبيعي أن يكون هناك استعداد لمراجعة الذات أيضا حول الموقف من القومية العربية، والأمة العربية، والقضايا المركزية مثل الوحدة وقضية فلسطين، أعني الموقف من "إسرائيل" والصهيونية بما في ذلك الموقف من اليسار "الإسرائيلي".

ويبدو لي أيضا أن التيار القومي أخذ يراجع رأيه ومواقفه من الدين ـ وضمنا من الإسلاميين ـ بعد أن خف التأثير السلبي للتيار الماركسي والشيوعي عليه، وبعد عدائية الغرب و "الشرق " المكشوفتين له، وبعد غياب مركز يدعم المواقف الحادة في أطراف عدة، وانكشاف غمامات واتضاح حقائق، وتسجيل مواقف، في ساحة المواجهة الساخنة مع العدو الصهيوني.

وأجد أيضا أن التيار الإسلامي لديه استعداد لمراجعة الذات والكف عن

إطلاق الاتهامات ومنها التكفير، وإعادة النظر بالموقف من القومية على أرضية الإسلام والإيمان. وألمس استعدادا لمراجعة الذات والمواقف عند التيار الليبرالي بعد اكتشاف العداء والنزوع الاستعماري الجديد للغرب.

وعندما تكون لدى هذه التيارات الرئيسة في الوطن العربي مثل هذه الاستعدادات للنقد الذاتي والحوار ولإقامة جبهة عريضة تتمسك بالثوابت المبدئية وتواجه عدوا مشتركا، فإن أشرعة الأمل لابد أن تنفتح في القلوب وفي آفاق النفوس. ما من شك في أنه ستكون هناك مكابرات تعوق المسارات، ولكن متطلبات المستقبل، وأسلوب كل الأطراف الذي نأمل ألا يكون استفزازيا ولا يرمي إلى إعادة فتح الجراح والغرق في صور الخلاف وأشكاله، كل ذلك كفيل بأن يجعلنا نشهد تحولات إيجابية نحو التقارب والتفاهم والتماسك. ومن يدري....قد يغدو الماركسيون والشيوعيون قوميين، والقوميون إسلاميين، والإسلاميون قوميين..

ولكن ماذا عن الإسلاميين المتشددين أو المتطرفين أو المتعصبين؟! هل ستستمر عملية التكفير والعنف ونبذ القومية، لا سيما القومية العربية التي تقدم حلولا في الوضع العربي على أرضية الإسلام ولها وضع خاص في الإسلام، أم ماذا ؟!

إن هذا الموضوع الحيوي والهام موضوع جدير بالتأمل والتدبر، وجدير بأن تتداوله التيارات فيما بينها تحت ضغط الحقيقة التي تقول: " إننا جميعا في سلة واحدة ولن يوفر الخطر الغربي الصهيوني أحدا منا ". وآمل أن تعقد ندوات وتدار حوارات حول هذا الأمر لتحقيق أهداف إيجابية على مساره.

لقد سمح انهيار الأيدلوجيات الماركسية اللينينية ــ في المجال التطبيقي وفي مركزية الحلف الداعم لها على الأقل، حتى لا نعمم على مجالات التنظير والتفكير ــ لقد سمح ذلك بانحسار المد الغوغائي، والإعلام الظالم الذي كان يكتسح ساحة الحوار ومناخه، وكذلك انحسر حضور المشهد الثقافي عربيا على الخصوص وربما عالميا، الذي كان يتم ويشكل تراتيبته تحت تأثير قوى

الأيديولوجية المتعصبة، المدججة بالمواقف والأحكـام المسـبقة، وبمقـولات جاهزة، تلك التي كانت تنتقل من ساحة إلى ساحة بأبواقها وعصيها الغليظـة واتهاماتها وتشنجاتها وعصمويتها وحتمياتها التي لم تصمد للامتحان.

وإن انتعاش الفكر الإسلامي، أو الإسلام السياسي، بفصائله، يجعله يفكر بأن يقدم نفسه بديلا للتجربة (غير الناجحة) للآخرين فـي بعـض الأقطـار العربية والبلدان الإسلامية؛ سواء تلك التي أخـذت بالنظريـة الماركسـية ـ اللينينية، أو تلك التي قامت على الأسس القومية ـ الاشتراكية، أو تلك التـي مزجت بين توجه قومي وآخر اشتراكي وكانت مدخولة بماركسية وشـيوعية تبحثان عن واجهات تتخفيان خلفها في أثناء الحكم والتعـامل مـع جمـاهير عربية متدينة، نسبة المسلمين فيها أكثر من ٨٥% وهـي ليسـت مسـتعدة للتنازل عن عقيدتها لتحل محلها عقيدة أخرى لقاء أي ثمن. وحيال هذا التطلع المشروع في إطار الانتعاش من جهة والإحباط والمتغيرات العربية والدوليـة من جهة أخرى، علينا أن ندقق في الأمور قبل أن تأخذنا الحماسة ونغرق فـي المشكلات، ونسير في الطرق التي تقود إلى أوضاع ونتـائج لا نرضـى بـها جميعا؛ وعلينا أن نطرح السؤال الآتي هنا للمستقبل ولمن يهمهم المسـتقبل : هل انتعاش الإسلام السياسي سيكون علـى حسـاب المـد القومـي العربـي وبمواجهته، أم أنهما سيتفاهمان ويتعاونان ويسودان الساحة أخـذا بحقـائق التاريخ :

ـ إنما عز العرب بالإسلام

ـ الإسلام نبت غذاه العرب بالدم حتى نما وانتشر وساد ؟!

وهل ننجح إذا ما وضعنا العروبة في مقابل الإسلام، أو القوميـة فـي مقابل الدين ؟! وهل نكون على الخصوص، وفي هذه الساحة بـالذات، عربـا مسلمين، أم مسلمين بشكل مطلق؛ وقد أقر الإسلام بتمايز الناس فـي أقـوام وشعوب وجعل التمييز بينهم بالإيمان والعمل: { وجعلنـاكم شـعوبا وقبـائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم }.

إن العرب بيضة الإسلام، ونواة الثمرة التي يتكور اللحم حولها، وقـد

كرمهم الله بأن أنزل القرآن بلغتهم، وجعل الرسول الكريم منهم، وجعل لغة أهل الجنة هي العربية لغتهم. ووسع نبي الله محمد ابن عبد الله مفهوم العروبة لينأى به بعيدا عن نقاء الدم والعرق وتمييز الجنس على أساس عنصري، فجعل ذلك المفهوم ثقافيا حضاريا إنسانيا معرفيا عاما ومتسامحا في إطار الإسلام الذي يمثل روح التسامح، فقد جاء في الحديث الشريف :

« أيها الناس : إن الرب واحد والأب واحد، ليست العربية من أحدكم بأب ولا أم، العربية لسان فمن تكلم العربية فهو عربي ».

ومن من المسلمين، أصحاء العقيدة والتوجه والرؤية، لا يتوق إلى قراءة القرآن بلغته ليفهم الدين وأحكامه ؟!! ومن يقرأ القرآن يفهم العربية ويتكلمها، ويدخل البيت الكبير، بيت الثقافة العربية الإسلامية الرحب من أوسع أبوابه، ويكون من العرب الذين أعزهم الله بالإسلام ولم يكن أمرهم في الناس قبله مشهورا ؟! يكون منهم بحكم اللغة التي جمعت العرب والمسلمين في رباط لا يفنى : هو القرآن الكريم، بلسان عربي مبين، ذاك الذي تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظه : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ».

٥- أدى انهيار المنظومة الاشتراكية، وزوال مفعول مقولات الفكر الماركسي ــ اللينيني، أديا إلى توقف التصعيد في المواجهات الاجتماعية، بفعل تراجع تطبيق النظرية والتوجه نحو تفكيك ما بني من مؤسسات وسياسات اقتصادية وبنى اجتماعية على أساسها؛ وكذلك جراء توقف تصعيد الصراع الطبقي. وأمر الصراع الطبقي أو موضوعه ونتائج ممارسته عندنا ــ لا سيما ونحن نواجه احتلالا واستيطانا وعدوا عنصريا يهدد وجودنا ذاته ويستهدفنا جميعا، يحتاج إلى تدقيق وتفحص وبحث خاص ليس هنا مجاله ــ إذ أن الصراع الطبقي طالما عوق صراعنا مع العدو الرئيسي وصرفه إلى صراعات ثنائية وثانوية، قطرية وقومية، وأدى إلى حالات من التشرذم والتمزق والضعف من دون أن يجلب عدالة أو تقدما أو ازدهارا أو سعادة أو تحريرا.

كما أدى انهيار المنظومة الاشتراكية إلى تغيير بعض المفاهيم لدى

الشيوعيين وشيئا من نظرتهم إلى الناس والمفاهيم، ونظرة الناس إليهم وإلى المفاهيم التي قدموها لهم عن النظرية وتطبيقاتها وتطلعاتها، وعن الدولة السوفييتية والمنظومة والاشتراكية وواقع الحياة فيهما.

انكشف موضوع " الديمقراطية " مثلا عن دكتاتورية وفساد كبيرين. ومفهوم " الوطنية " عن تبعية لمركزية تسيطر عليها صهيونية، ولا تنبع من قرار وطني تام ينبع من الأرض والشعب والقضايا المصيرية والانتماء لأمة في تاريخها وحضارة في بيئتها. ذلك لأن مفهوم الوطنية ذاك يرى أن الوطنية الحقة هي الإخلاص للمركز ـــ موسكو ـــ وتأييده والالتزام بتعليماته ليتحقق النصر الذي سيكون للشيوعية، أي للجميع !

٦ ـــ سمح ذلك الانهيار ـــ عربيا ـــ بإعادة النظر بمقولات وتطبيقات تتصل بالاشتراكية والاقتصاد المعتمد وبقوانين وبالاعتماد المطلق على القطاع العام، وما تبع ذلك أو نشأ عنه من بنى وممارسات في الدول والمجتمعات؛ وذاك كله قيد دراسة أو تصفية ونظر في بلدان أخرى.

وأخيرا، وفي منحى عام، أدى انهيار المنظومة الاشتراكية إلى تسهيل عملية الفتك بأنظمة عربية كانت متحالفة معها، وإلى جعل ذاك العربي مستند الظهر إلى الحائط أمام الأعداء القدامى والحلفاء القدامى الذين انضموا علنا إلى معسكر الأعداء، جراء منع السلاح عنه، وعدم امتلاكه له.

ولكن يبدو لي السؤال هنا أو التساؤل وجيها وهو ينحصر في الآتي:

ألم نكن ندفع، نحن العرب، في الحرب الباردة ثمنا باهظا لنخوض حروبا بالوكالة ونشغل معامل السلاح ونشتري سلاحا من القطبين المتناحرين، من دون أن نحسم به القضية الرئيسة التي نشتري من أجلها السلاح ؟!

هل ترى كنا في قفصين وانتقلنا الآن إلى قفص واحد ؟! أم ترانا كنا نعيش الوهم وما زلنا نعيشه ونتقوت به ؟! إنه سؤال يحتاج إلى تدقيق وتمحيص ودراسة معمقة بعد انكشاف وثائق ومعطيات كثيرة ما زالت الآن دفينة المخابئ والأدراج، وبعد تجليات حقائق تتفاعل داخل الضمائر والعقول.

ـــ لقد أثر انهيار المنظومة الاشتراكية على تسارع الهجرة اليهودية إلى

فلسطين، وهي قضية مهمة جدا، وحساسة بالنسبة لقضيتنا ونضالنا ومركز العداوة بالنسبة لنا، ولم تكن الهجرة سابقا متوقفة إنما كانت مستمرة بحدود مراعاة لوضع عربي، وأوضاع الحرب الباردة المستمرة، والمصالح والمنافع المتبادلة بين قطبيها. كان اليهود يتلقون دعما من كل الأطراف التي كانت تشكل عالم ما قبل انهيار المنظومة الاشتراكية، فالبشر يأتون من تلك المنظومة والسلاح والمال يأتي من الغرب، والسياسة في كل من المعسكرين متفقة على أن "إسرائيل" وجدت لتبقى. ومنذ تأسيس فكرة الوطن القومي اليهودي في فلسطين تعاونت أوربا (الشرق والغرب) لتحقيق ذلك، وحرب ١٩٤٨ خاضها اليهود ضدنا بالسلاح القادم من المنظومة الاشتراكية. وكانت "إسرائيل" بالنسبة للمنظومة الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفييتي : قلعة المعسكر الاشتراكي في بلاد العرب التي ستنشر الفكر الماركسي اللينيني والاشتراكية العالمية. وقد تسابق الشرق والغرب للاعتراف بإسرائيل كما هو معروف، وعلى طلب ودها لاعتمادها كوكيل له في المنطقة.

في عام ١٩٥٣ انتزع الغرب هذا الحصان من يد السياسة السوفيتية ومن حلف وارسو، ولكن الغريب أن الدعم لم يتأثر كثيرا. هل ضحك اليهود على كل الأطراف أم أنها كانت سياسة، تخدم مصلحة كل الأطراف، تتركز في إضعاف العرب وتمزيقهم وتشتيت ولاءاتهم وتوزيعها على المعسكرين، وإضعاف القومية والإسلام معا وإبقاء هذه الأمة مجرد مساحات تعج بأفواه وسواعد تبقى في خدمة الغير، تزحف على رموش العيون لتحقق أهدافا غالية وسامية ولكنها تبقى تزحف وتقتات التراب وتفنيها العداوات والسياسات المسيطر عليها من قبل الأعداء بأشكال مختلفة ؟! أظن أن في الأمرين صحة ولكل منهما حضورا.

لقد توجهت القوة الوحيدة التأثير، أو الساحقة التأثير الآن لتفرض على العرب والمسلمين عداء مكشوفا وتحديا ثقافيا وسياسيا وعلميا صريحا، وعقائديا مخفيا أو شبه معلن، واستفاد العرب واستفاد المسلمون من كل الضحايا والدروس : انكشاف الغطاء أو نأمل بأن يستفيدوا من ذلك في هذه الحدود على الأقل، وفي هذا الخير؛ فعندما ندرك جيدا، وتحترق أصابعنا بالنار نعي الدرس ونكتسب الخبرة ونندفع للعمل على نهج ورؤية. وأرجو أن يكون في ذلك خير للأمة وللعقيدة السامية التي تحملها.

بقي أن أطرح هنا وبعد هذا الاستعراض، الذي لا يخلو من ثغرات، لتأثير المنظومة الاشتراكية دوليا وإسلاميا وعربيا، أن أطرح بعض الأسئلة بصوت عال لنفكر في استخلاصات وفي منهج يمكننا من الخروج من مآزقنا ومآسينا، ولعله ينير أمامنا في هذه الأمة وهذه العقيدة السمحة، الأمل الذي ما فقدته ولن تفقده في يوم من الأيام إن شاء الله، الأمل بحتمية اليقظة والنهضة والتقدم في معارج النصر والحضارة؛ لأخلص من ذلك إلى التأكيد على ميثاق المثقفين العرب، والأسئلة هي الآتية :

- هل الوضع الدولي، والعربي ضمنا، سوف يستقر على هذا الحال الذي يمثل الراهن الآن ومعطياته الظاهرة ؟! أقول بكل بساطة : لا، لأن ذلك لا يتفق ومنطق الحياة والتاريخ، منطق الحركة والتحول وتداول الدول.
- هل سيادة القطب الدولي الوحيد الطرف هي قدر؟! وهل تراها تدوم إلى الأبد ؟! أقول أيضا : لا والنذر تتوالى على شكل دلالات ومؤشرات، وتصادم مصالح. والحياة دائما في تواصل قطبي صراع على الأقل، ويلزم لاستمرارها مثل هذين القطبين.
- هل سيبقى الغرب كتلة واحدة من دون تناقض على الرغم من عامل المصلحة المختلفة بين دوله ؟! أعتقد جازما بأن الأمر لن يستقر على ذلك الحال. فهناك صراعات على التجارة، وعلى الدعم المعطى

للمحاصيل الزراعية التي ينتجها المزارعون الأوروبيون... الخ. وإذا كان الانفجار يؤجل أو يسكن فإن هذا لا يعني أنه لن يحدث، وأن مسبباته قد زالت من الوجود.

ـ وهل عمالقة الشرق ونموره سوف يبقون في حالة كساح دائم؟! إن من المشكوك به أن يبقوا هكذا، وهم يكتشفون يوما بعد يوم عوامل قوتهم، ويستذكرون يوما بعد يوم أيضا دروس التاريخ الذي يخصهم.

ـ وهل الأمة العربية ستبقى سؤالا معلقا في الفراغ إلى ما لا نهاية ؟! إن إلماحات الواقع، واستقراءات التاريخ، والتحولات العميقة التي تظهر بعض تجلياتها هنا وهناك، كل ذلك يشير إلى أن الأمر لن يستقر على هذا.

ـ وهل الإمكانات التي تملكها شعوب فقيرة متعبة ومستلبة على نحو ما، ستبقى هي الأخرى، وإلى الأبد، موضع نهب العالم الصناعي (المتقدم) والدول القوية ؟! إن ذلك موضوع يستحق التأمل عبر سيرورة التاريخ وصيرورة الواقع.

ـ ألا يمكن أن يكون هناك دور مؤثر للوعي والفكر، وحتى للفقر والجوع والقهر، في تغيير المعطيات الحالية، وتقديم صورة أخرى، مغايرة، لعالم أو لنظام عالمي مغاير لذلك الذي ينميه الطموح الغربي الاستعماري السائد والصهيوني والاستيطاني المتحالف معه ؟! ألن يكون للثقافة دور في إنقاذ شعوب العالم الفقيرة المقهورة مما هي فيه، وفي رفع نير المعاناة عن تلك الشعوب، وتخفيف كدماته عن رقابها على الأقل ؟!

ـ والشعب العربي الذي نحر من التسلط والنهب والتبعية، هل ستستمر معاناته وإهمال قضاياه حتى من قبل حكامه وظلامه ؟!

ـ وهل ستستمر صور الإلحاق والإذلال والعجز والدونية، معلقة مثل

تمائم مقدسة في أعناق الفقراء، والعرب والمسلمين من بين أولئك الفقراء ؟!

إن الصور التي تقدمها الحياة العربية والإسلامية، على الأقل، صور توحي بإمكانات كثيرة للتغيير، وتوحي بوجود أشعة وتوهج في نهاية النفق المظلم. فعلى هذه الأرضية المظلمة، أرضية المعاناة والبؤس وأكاد أقول اليأس، يوجد نضال ولو بالحجر والعصا والسكين، وتوجد مواجهة، ولو كلفت صاحبها حياته وخسارة سنوات من عمره، وحتى مستقبله. وكل هذا ليس بلا دلالات، كما أنه ليس بلا نتائج ترتجى وتنتظر بأمل وثقة.

إن المثقف العربي الذي يلملم شتات نفسه أو يبحث، بشيء من السلحفائية والجبن، أو ربما بتأثير ظاهر من المصلحية والرغبة في السلامة الذاتية، عن دور؛ إن ذلك المثقف يمكن أن يلعب دوره ليعيد تشكيل صورة العالم من حوله، وليقدم المخرج النظري الذي تقدمه الثقافة للناس، ولهذا المنطلق نحو رؤية مجال آخر نفصل القول فيه إن شاء الله تعالى.



الهوامش :

(١) العمليات الخداعية : تأليف : دافيد. شارترز وموريس. ا. ج. توغويل. ترجمة نافع أيوب لبس ــ منشورات : مركز الدراسات العسكرية بدمشق ١٩٩٣ م ــ ص ٣٨.

(٢) المصدر السابق ص ٤٢.

(٣) ــ (إن الكومنترن وقف بقوة، في فترة التحالف النازي ــ السوفييتي، اعتبارا من شهري آب وأيلول ١٩٣٩ م حتى شهر حزيران ١٩٤١ م ضد الحرب التي تشنها بولندا وبريطانيا وفرنسا والحلفاء الآخرون على ألمانيا. كانت تلك الحرب، من وجهة نظر السوفييت حربا إمبريالية، وقد طلب إلى الأحزاب الشيوعية في فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية أن تعبئ الرأي العام ضد الحرب مع ألمانيا، " ونظمت مظاهرات من أجل السلام " ولا سيما في الولايات المتحدة الأمريكية، بغية إبقائها خارج الحرب ضد ألمانيا. ولكن طبيعة هذه الحرب ما لبثت أن تغيرت فجأة في اللحظة التي حطم فيها هتلر حلفه مع ستالين وغزا الاتحاد السوفييتي، وأصبحت : حربا عادلة "تقدمية ". وطلب ثانية إلى الشيوعيين في كل أنحاء العالم تعبئة الدعم غير المشروط لها.) ــ العمليات الخداعية ــ الفصل العاشر ــ ايمرسون فيرمات ص ٤٥٠ ــ ٤٥١ ــ عن آ. روسي في كتابه : المعاهدة الألمانية السوفييتية التاريخ والأسطورة ــ منشورات : مركز الدراسات العسكرية ــ بدمشق ــ ١٩٩٣ م.

(٤ــ٥) جريدة نضال الشعب العدد ٥١٠/ دمشق. وهي جريدة الحزب الشيوعي السوري.

(٦) ــ بيان هونيكر أمام المحكمة في ١٩٩٢/١٢/٤. عن نضال الشعب، العدد ٥١٠ تاريخ ١٩٩٣/١/٧ م.

(٧) تقرير وزير الدفاع الأمريكي لمجلسي الكونغرس والرئيس الأمريكي ــ شباط ص. ١٨ ــ ٢٠ ــ منشورات : مركز الدراسات العسكرية بدمشق. وقال تشيني كلمة مهمة في وصف الجيش السوفييتي نثبتها هنا، قال : " إن الجيش السوفييتي السابق الذي لا يزال الأكبر والأثقل تسليحا في العالم، هو الآن جيش يواجه أزمة هوية " وقد ظهر حجم تلك الأزمة الآن في تقاسم الجيوش

والأسلحة وفي التقاتل بين مجموعة الدول المستقلة، وسواها مما كان الاتحاد السوفييتي. وأشار تشيني في نظرة إلى المستقبل قائلا : " كانت إستراتيجيتنا الدفاعية الجديدة حتى الآن ناجحة، ليس في الرد على التغيير السوفييتي فحسب، بل في جعل الولايات المتحدة في وضع يمكنها من مواجهة متطلبات النظام العالمي الجديد أيضا، والتي تتراوح بين التعامل مع الأحداث الإقليمية المحتملة من ناحية، وبين السيطرة على عملية خروج العالم كله من الحرب الباردة من ناحية ثانية ". المصدر السابق صـ ٨.

(٨) هذه الأرقام بملايين الدولارات وهي مأخوذة من : قوانين بيع السلاح، منشورات مركز الدراسات العسكرية بدمشق ـ ١٩٩٢ م.

(٩) جريدة نضال الشعب صـ ٣ العدد /٥١٦/ نيسان ١٩٩٣ عن جريدة النهار الروسية. عدد أواسط آذار ١٩٩٣ م.

(١٠) بيان مارتن انديك عن سياسة كلنتون ـ نشرة السفارة الأميركية بدمشق ـ صـ ٣ العدد ٣٩٤٩ تاريخ ١٩٩/٥/٢١.

(١١) المصدر السابق ص ٤.

(١٢) لقد وقف كثير من الشيوعيين على تاريخ سابق. واستدركوا معنى أن يعيد الآن الرئيس يلتسن ـ وهو شيوعي وقيادي سابق ـ العلاقة مع المحافل الماسونية ولا سيما محفل مالطا الماسوني. الذي أحدث بالقرار رقم ٨٢٧ تاريخ ٧ / ٨ / ١٩٩٢ م.

(١٣) جريدة السفير صـ ١٢ تاريخ ١٩٩٣/٧/١٧ م.

(١٤) يقول خالد بكداش في لقائه مع جريدة السفير البيروتية : " الصهيونيون اشتغلوا بجد للسيطرة على الحزب الشيوعي الفلسطيني، وحاولوا السيطرة على الحزب الشيوعي اللبناني والمصري والحزب الشيوعي العراقي.. إلى آخره. وكانت هناك عناصر يهودية في الكومنترن في موسكو. ولم تكن جيدة لنا نحن الشيوعيون العرب " جريدة السفير صـ ١٢ تاريخ ١٧ /٧ /١٩٩٣ م. وقد ذكر بكداش أن بونا ماريوف الذي كان يشرف في السنوات الأخيرة على نشاط تلك الأحزاب الشيوعية، وهو يهودي، وقد لعب دورا في تمزيق بعض تلك الأحزاب.

ويعيدني هذا قليلا إلى الزمن الماضي لأذكر أنه حينما كان جمال الحسيني عام

١٩٣٦ م يؤكد ذلك وينبه إليه كان الغضب يجتاح ساحة الشـــيوعيين العـــرب، ويتهمونـه هم والصهاينة بالنازية والعمالة لهتلر وبالشوفينية، ويطال مثل هـــذا الاتهام عرب هذه الأيام إذا ما أشاروا إلى ذلك، لا سيما قبـــل ســـنوات. كـــان الحسيني قد قال " أما بالنسبة للمبادئ الشيوعية وأفكار اليهود المهاجرين، تلك المبادئ التي جلبها اليهود ونشروها في البلاد، مما لا حاجة للتوسع في شرحه لأنه معروف، إن الجالية اليهودية هي التي جلبـــت تلـــك الأفكـــار. " جمـــال الحسيني ــ عن محاضر اللجنة الملكية الفلسطينية ــ لنـــدن (ص ــ ٢٣٦) عام ١٩٣٦م.



العنف والإرهاب



يمكن أن نرد بداية استخدام مصطلح الإرهاب بمفهوم سياسي عصري إلى الثورة الفرنسية وممارساتها وتصرفات رجال مثل "روبسبير" الذي كان يرى شرعية ثورية في استخدامه القتل ضد رجال العصر البائد ومن والاهم، وضد أولئك الذين يرى فيهم مناوئين له أو أعداء للسلطة الشعبية التي يمثلها. وكان يصدر، هو ومن معه، في أحكامهم وممارساتهم، عن اقتناع تام بأنهم "وجدان" الشعب وأدواته السلطوية، ويرون أن إرادتهم تشكل التشريع والمحكمة والقاضي والسلطة التنفيذية.

هذا لا يعني أنه منذ أقدم العصور لم تمارس أعمال اغتيال سياسي وتصفيات، وأعمال مخالفة للقوانين والشرائع والأعراف في ظل الثورات والطغيانات المتنوعة وعهود الاستبداد، ولا يعني أيضا أن الخارجين على الطاعة وعلى قانون الإمبراطور أو الملك أو الدولة؛ أولئك الذين يجدون دون أنهم محقون وعادلون في خروجهم على طاعة الشخص أو القانون الظالمين، لم يمارسوا عملا أخذوا فيه القانون والسلطة التنفيذية بأيديهم، واعتقدوا أنهم إنما يقومون بما يرسخ العدل أو يعيده إلى نصابه بما يفعلون.

فالذين اغتالوا يوليوس قيصر في مجلس الشيوخ في روما خرجوا على طاعته ورأوا في ذلك علاجا لميول طغيانية يستحق صاحبها أن يصفى من أجلها.

والذين قاومهم إخناتون، وكذلك الذين قاوموه، تبادلوا عنفا ولربما إرهابا.

وفي عهود متفرقة نجد الثورة والثورة المضادة، والسلطة والمعارضة،

ونجد من يقاتل ويقاوم إما ليصل إلى سدة الحكم أو ليحافظ عليها، ونجد من يقاتل ليحق حقا ويزيل ظلما ويوسع هامش حريته؛ ومن يقوم بأفعال تحت ذلك الشعار ثم يأخذ الأمر بيديه فيفعل ما كان ينهى عنه ويناضل ضده !! ونجد أيضا من يمارس عنفا مرضيا ويدخل نفسه وغيره في دوامة الرعب والموت.

فهل يمكن أن نسمي كل ما اتصل بذلك وشاكله إرهابا، وكل فعل من ذلك القبيل : عنفا مدانا ؟ أم أن هناك معيارية مستقرة، أو لا بد من أن تستقر على أسس وقيم، لنستطيع من خلالها أن نمايز بين الأفعال والأحكام عليها، ونميز بين الإرهاب الأسود والعنف المشروع ؟! سواء صدر ذلك عن شخص أو فئة أو حزب أو دولة؟!؟

إن كل تغيير للسلطة والنظام والعلاقات بين الأفراد والجماعات والطبقات والمصالح والعلاقات، بين الدول والمجتمعات، خارج حدود التفاهم والتعاون والنظام المتعارف عليه، ينطوي على استخدام عنصر القوة لفرض الأمر الواقع، ولفرض علاقة ما أو طاعة أو قرار إذعان بأسلوب يتجاوز المألوف؛ وقد تدخل الحروب في دائرة العنف المكثف المستمر الذي يؤدي إلى تغيير في الجغرافيا والعلاقات الاجتماعية والدولية بقسوة فائقة، وإلى مشروعية الدفاع عن مصالح وحقوق وحريات أساسية، أو تؤدي إلى نبذ فرض هيمنة ومصالح وعقائد وثقافات وأيديولوجيات يراد لها أن تفرض " بالإرهاب المكثف = الحرب " أو المخفف.

لقد أقر القانون الدولي، والقوانين الخاصة بكل دولة على حدة، وشرعة حقوق الإنسان، والعقائد والأعراف الاجتماعية والدولية، أقر مشروعية الدفاع عن النفس والأرض ضد المعتدي والمحتل، ومبدئية ذلك وقيمته، كما أقر حق الشعوب في الدفاع عن أوطانها وسيادتها ومصالحها، وأقر لها بحق تقرير المصير واختيار نوع الحكم الذي تريد.

وتحمي الشرائع والتشريعات والمنظمات الدولية، الأفراد والمجتمعات والدول، من كل أشكال الاضطهاد والقمع والاستلاب والإبادة، ولكن ذلك يبقى، في أغلب الأحيان،في إطار النظريات والمثاليات الخلقية،والشعارات والنصوص

المستقرة على الورق، أما على أرض الواقع وفيما هو معيش مـــن علاقـــات وفعاليات وأفعال، فإن القوة، والقوة الغاشمة أحيانا، هي وحدها التي تحـــدد : العادل، والشرعي والإنساني والمشروع والقانوني، وحتى الخلقـــي. وتراهـــا تلون الأفعال والممارسات بالألوان التي تراها ملائمة لمنظورهـــا ومصالحـــها ومنطقها، في تلك الفترة أو المرحلة من الزمن أو البقعة من الأرض، ومع ذلك الشخص أو تلك الفئة أو ذاك البلد؛ وتجد ذلك معبرا عما هو قانوني وإنســـاني وخلقي إلى الدرجة التي تجعلنا نطرح السؤال المـــؤرق لأرواحنـــا وضمائرنـــا وعقولنا معا، وهو : إلى أي حد تملك القوة تحديد المفاهيم والقيم، وإلـــى أي مدى تستقل الأخلاق والمثل، أو يمكن أن تستقل، في أحكامها ومقوماتها عـــن القوة ؟!

وإذا أردنا أن نبحث عن أمثلة لتلك العلاقات أو الممارسات، في الصلات والفعاليات الدولية والسلطوية والاجتماعية والحزبية والفردية، في كل بلد وكل عصر، فسنجد الكثير الكثير مما يصلح أنموذجا.

وربما، وصولا إلى علاقات وقوانين ومعايير، إنسانية ودولية وخلقيـــة، أكثر عدالة واستقرارا وشمولا، وسعيا وراء مشاركة بشرية أوسع وأعمـــق، ربما من أجل ذلك، سعت الشعوب والأمم إلى إيجاد صيغ قانونيـــة ومعـــاهدات واتفاقيات تخفف من العدوانية المطلقة لبعض القوى، وتحكم الصلات الدوليـــة، وتضع حدا للكوارث التي تلحق بأفراد ومجتمعات وشـــعوب وبلـــدان، جـــراء حروب وأعمال وإرهاب دولي فرضتها المصالح والغطرسة وشهوة الســـلطة، والأطماع التي لا حدود لها بالسيطرة والسلب وإخضاع الآخريـــن وإبادتـــهم؛ والرغبة في إرواء أنواع التعصب القومي والديني عنـــد البعـــض، والـــنزوع العدواني والعنصري والطغياني عند أفـــراد وأقـــوام ودول، مـــن ذوي القـــوة وشهوة النفوذ؛ وكل ذلك يستفز قوة مضادة تؤدي إلى عنف مضاد.

وبعيدا عن شرعية العنف أو عدم شرعيته فإن النتائج تنعكـــس علـــى حيوات أفراد كثيرين وعلى مصالح وحضارات وقيم وأجيال.

غير أن الصيغ التي وصلت إليها البشرية، حتى بعد حربين عـــالميتين

مكلفتين ساحقتين، بقيت محكومة بسيطرة الأقوياء على الضعفاء، وبرغبة كل قوي في أن يكون الأقوى، وبقواعد الخوف وتوازن الرعب الذي لا يلبث أن يختل ليزيد من كمية الرعب ومساحات الظلم وتلاوينه الكثيرة.

وبقيت تلك الصيغ تشير إلى وصاية، مباشرة أو غير مباشرة، على المنظمات والهيئات الدولية التي أقيمت لأغراض وأهداف حقانية وإنسانية، ومن أجل الوصول إلى صيغ تعامل وعلاقات دولية، وقواعد وقيم وأعراف ومعايير أكثر عدالة واستقرارا وأقدر على إشاعة الأمن والازدهار.

وبعد ما يمكن تسميته بالحرب العالمية الثالثة، في تسعينيات القرن العشرين، أصبحت القوة الأميركية، قوة وحيدة القطب مهيمنة على المنظمات الدولية ومؤسساتها، تتزعم القوى الكبرى وتقودها جميعا، بالقوة أو بالمنفعة المتبادلة أو بالخديعة، إلى خدمة مصالحها هي، ولتعزيز هيمنتها وتنفيذ سياستها، وتجرها إلى الإذعان لأوامرها والقبول بتفسيرها للأحداث والقرارات والقوانين، وتجبرها بالتالي على إعلان " الطاعة " أو الامتثال لإرادتها في كل ما ترى وتفسر وتقرر.

وسواء أتم كل ذلك خوفا أم طمعا أم بتواطؤ مشترك بين الأقوياء، فإن إرهابا من نوع فريد أضيف إلى تاريخ الإرهاب وهو ما تمارسه القوة الأعظم اليوم على صعد ومستويات شتى، ويشمل ما بين تصفية الأفراد والأفكار والمصالح والقضايا والحقوق، وتصفية البلدان والشعوب.

وهذا الذي تفعله الولايات المتحدة الأميركية اليوم مع دول العالم، وتوظف له مجلس الأمن الدولي، الذي أصبح مؤسسة أميركية، جعلها وجعل حلفاءها يمارسون إرهابا دوليا من نوع فريد، حتى باسم مكافحة الإرهاب، الذي تتعدد ألوانه وتفاسيره بتعدد مصالح الأقوياء ورؤاهم وسياساتهم.

لم يتوقف مفهوم "الإرهاب " كمصطلح، وأداة سياسية، وفعل ذي تأثير، في الحياة والتفكير وعلى الناس، لم يتوقف عن التطور والتلون والانتشار السرطاني أحيانا، منذ تلك البداية التي اخترنا أن نبدأ بالإشارة إلى أنها محطة انطلاق المصطلح حتى عصرنا الحالي.

كما أنه لم يتوقف عند حدود ممارسات الأفراد الذين قد يهددون أفرادا أو جماعات أو حتى سلطات، ولا عند حدود سلطات تهدد شعبها، أو شعوبا وجماعات أخرى، ولم يتوقف أيضا عند صراع " المعارضات والتسلط " في لعبة الوصول إلى الحكم. بل تعدى ذلك إلى مفهوم " إرهاب الدولة " المغطى باتفاقيات وتحالفات دولية وإعلامية تشوه المفاهيم كما تشوه التاريخ والوقائع ومقومات الحكم والعدالة والمعيار السليم.

وهي تمارسه إما مباشرة أو بدعمها لأفراد وأحزاب وأقليات وشرائح اجتماعية معينة، للقيام بأعمال إيجابية أو لإشاعة سلبيات ذات تأثير قتال، وصولا إلى غايات وتحقيقا لسياسات، تحت أسماء وشعارات وادعاءات عديدة. وتمارسه أحيانا مجموعة من الدول مثل الدول الغربية، ضد دولة أو مجموعة من الدول بهدف خنقها أو إبقائها في حالة تخلف دائم، واستنزاف طاقاتها، ومنعها من القيام بدور مؤثر في محيطها وداخل حدودها؛ وذلك منعا لها من المشاركة في فعاليات قومية، أو لتمرير مشاريع استعمارية وتصفوية واسعة، شأن الممارسات الغربية بقيادة الولايات المتحدة الأميركية ضد بعض البلدان العربية والإسلامية؛ أو تمارسه تعطيلا لطاقة الشعب والبلد، وإحكاما للسيطرة على الإرادة والقرار، وصولا إلى تنفيذ خطط بعيدة الأثر على مستقبل القضايا القومية والمصيرية للأمة.

وإذا أردنا تلمس مظاهر نمو الإرهاب في الماضي المؤثر الذي أشرنا إليه، وحددنا ذلك ببداية انطلاق المصطلح، وجدنا ممارسات تمتد منذ بدايات الفوضوية والفوضويين " تشرعن " ذلك الفعل. فهم كانوا يبيحون لأنفسهم تصفية الآخرين المخالفين لهم، والأعداء " الرجعيين"، ويحرمونهم من كل أنواع الحريات وأشكالها؛ ويمارسون القمع الفكري والجسدي تحت أسماء واعتبارات ومسوغات مختلفة. وقد حدث ذلك عند الثوريين لأسباب وأهداف يجدونها مشروعة وضرورية لنجاح الثورة وترسيخها وللقضاء على " أعدائها "، وتحقيق أهدافها؛ وكذلك عند اليمينيين والمحافظين وسلطاتهم.

وهكذا وجدنا ذلك عند الشيوعيين والنازيين والشوفينيين والرأسماليين، حتى ليكاد يختلط الأمر فيتعذر التمييز لكثرة حجج كل فريق

واعتباراته وتسويغاته، ولكثرة الفلسفات و" الأيديولوجيات " التي تتقدم رافعة راياتها للدفاع عن ذلك؛ من كل فريق ومجتهديه ومنظريه، وفي كل بلد من البلدان أو في كل حزب وشريحة اجتماعية. وكلها تغلف أفعالها وأقوالها وتوجهاتها بالعدالة الاجتماعية والحق والشرعية والمصلحة الإنسانية العليا؛ وتقيم متاريس القيم والأخلاق واعتبارات الدفاع عن النفس والوطن والحرية، ومقاومة الظلم والقهر والعدوان والتسلط والهيمنة... الخ.

حتى إننا وجدنا أن النازيين وضعوا ممارساتهم للإرهاب تحت اسم " الإرهاب ضد الإرهاب " كما كان يقول " الغستابو " وكما يقول " الموساد " والعنصريون الصهاينة اليوم، في سياق تسويغهم لممارساتهم الإرهابية ضد العرب الذين يقاومون بمشروعية ويقاتلون ضد الاحتلال؛ فقد قال شلومو غازيت، في أثناء الاجتياح الإسرائيلي للبنان : " إن السلاح المجدي الوحيد لمكافحة الإرهاب هو " الإرهاب " وإن "إسرائيل" لديها خيارات تتخطى ما استخدمته بالفعل من أجل الحديث باللغة التي يفهمها الإرهابيون".

لقد أدرج موضوع الإرهاب الدولي أول مرة في جدول أعمال الجمعية العامة للأمم المتحدة في الدورة السابعة والعشرين عام ١٩٧٢، وشكلت لجنة من /٣٥/ دولة لمتابعة هذا الموضوع. وفي عام ١٩٧٩ في الدورة ٣٤ اعتمدت الهيئة العامة نتائج أعمال اللجنة التي " أدانت بصورة قاطعة جميع أعمال الإرهاب الدولي التي تعرض للخطر أرواحا بشرية أو تودي بها أو تهدد الحريات الأساسية، وأدانت استمرار أعمال القمع والإرهاب التي ترتكبها النظم الاستعمارية والعنصرية والأجنبية، سالبة الشعوب حقها المشروع في تقرير المصير والاستقلال وغيره من حقوق الإنسان والحريات الأساسية" (١) ودعت الدول إلى عقد اتفاقيات ثنائية تساعد على مكافحة الإرهاب الدولي؛ وسلمت بأنه ينبغي للجمعية العامة والأمين العام، من أجل المساهمة في القضاء على الأسباب الكامنة وراء الإرهاب الدولي ومشكلة الإرهاب الدولي، أن يوليا اهتماما خاصا لجميع الحالات، بما في ذلك في جملة الأمور، الاستعمار والعنصرية والحالات المنطوية على الاحتلال الأجنبي التي تدفع إلى الإرهاب الدولي وتعرض السلم والأمن الدوليين للخطر..." (٢).

وفي الدورة ٤٢ صدر القرار ٤٢/ ١٥٩ الذي حث جميع الدول على " أن تولي اهتماما خاصا لجميع الحالات، بما فيها الاستعمار والعنصرية والحالات التي تنطوي على انتهاكات عديدة وصارخة لحقوق الإنسان والحريات الأساسية، والحالات التي تنطوي على سيطرة أجنبية واحتلال أجنبي، التي يمكن أن تولد الإرهاب الدولي وتعرض السلم والأمن الدوليين للخطر ".(٣)

واستمر السجال بين معسكر يتحدث عن " إرهاب " يعرض السلم والأمن الدوليين للخطر، و "احتلال واستعمار وممارسات عنصرية وقهر وعدوان أجنبي استيطاني يولد ما يسمى "إرهابا " وما هو في واقع الأمر إلا ممارسة مشروعة للمقاومة الوطنية ضد الاحتلال، التي هي حق شرعي للشعوب التي تسعى لتحرير أوطانها وامتلاك حقوقها وحريتها، وفي مقدمتها حق تقرير المصير.

وكانت حركات التحرير والبلدان التي تشكو من الهيمنة على قرارها وإرادتها واقتصادها، وتلك التي تناضل ضد عنصرية بغيضة، تستند إلى قوة تحمي موقفها وتجعل لأقوالها وتفسيراتها وممارساتها سندا وشرعية.

ولكن بقيت كلمة " الإرهاب " تضفي ظلالها على ممارسات مشروعة وغير مشروعة في آن معا، وبقي التوازن الدولي للقوى يلعب دورا في توازن مواز للتفسيرات إلى أن حدث انهيار الاتحاد السوفييتي، وتفردت الولايات المتحدة الأميركية بالسيطرة ــ عن طريق القوة ــ على قرار كثير من الدول، وعلى المنظمة الدولية ومؤسساتها؛ الأمر الذي نتج عنه خلل واضح في ميزان القوى تبعه خلل في توازن التفسيرات والمواقف والأفكار، وفي النظر إلى الأفعال والمصطلحات معا.

وقد أدى هذا ــ كما هو معروف ــ إلى انهيارات كثيرة، وتغيير جذري في مواقف بلدان وأحزاب من قضايا مركزية، كما أدى إلى اتخاذ قرارات دولية، أو باسم المنظمة الدولية، خلقت خللا أعمق في مستندات قانونية وخلقية كثيرة؛ وسأكتفي بالإشارة إلى قيام الولايات المتحدة الأميركية بدعم

"إسرائيل" ضد العرب في كل المجالات، وقيادتها لحملة أدت إلى إلغاء القرار ٣٣٧٩ الذي يساوي الصهيونية بالعنصرية، وتبعه إلغاء أكثر من ثلاثين قرارا من قرارات مجلس الأمن أدانت "إسرائيل" بالعدوان والممارسات العنصرية والإرهابية؛ وجاء كل ذلك تحت شعار " إزالة ما يكدر "إسرائيل" "، حيث قال ماكوري المتحدث باسم الخارجية الأميركية :" إن الوقت قد حان لنرى إذا كانت هناك قرارات للأمم المتحدة " تتضمن أشياء مكدرة " بحق "إسرائيل" يمكن إلغاؤها أو تعليقها(٤).

وهكذا أخذت الجهود تتواصل " لتنقية صفحة "إسرائيل" ـ الصهيونية ـ العنصرية " من كل ما يشوهها، بحكم طبيعتها وممارساتها، بهدف رسم صورة أخرى لها، وصنع تاريخ مغاير لما استقر لها من تاريخ في المنظمة الدولية والعالم الثالث. وازداد بالمقابل تكثيف الجهد لتشويه صورة العرب ونضالهم وكفاحهم المشروع ضد الاحتلال والاستعمار ـ الاستيطاني العنصري، وأخذت المقاومة الوطنية المشروعة للاحتلال والعدوان تأخذ شكل " الإرهاب " وتدمغ به، ويصنف كل من يؤيدها على أنه يرعى الإرهاب ويمارسه؛ ودوى ذلك بصوت واحد من قوة غربية ـ صهيونية مهيمنة، وقادرة على تسخير القرار الدولي لمصالحها ومصالح حلفائها، وصبغ الأمور وتفسير القرارات والأحداث بما يلائم منطق القوة التي تملكتها الغطرسة التي تعززت بضعف الآخرين الواقعين تحت ضغوطها الهائلة.

وأخذت الولايات المتحدة ـ حكومة كل العالم ـ تسعى علنا لتصفية حساباتها مع كل من كان يقف في وجه مشاريعها ومؤامراتها، ومن يعارض خططها لتصفية القضية الفلسطينية وإلحاق الوطن العربي كليا بالقرار الأميركي وإخضاعه لهيمنة الشركاء العنصريين، والإدارة الأميركية " وإسرائيل "، اللتين أعلنتا بوضوح، على لسان الرئيس بيل كلنتون في لقائه مع رابين ١٥ ـ ٣ ـ ١٩٩٣ إذ قال : " لقد بدأنا حوارا يهدف إلى رفع علاقاتنا إلى مستوى جديد من الشراكة الاستراتيجية : لنكون شركاء في السعي إلى السلام وشركاء في السعي إلى الأمن " (٥).

ولأن ما نود التركيز عليه هنا هو الواقع الراهن وليس الماضي

والتاريخ، وينصب على الممارسات اليومية وما يؤدي إليها ويتصل بـها مـن حملات إعلامية وسياسية وأمنية، وما ينتج عن ذلك من أفعال مؤثرة تقوم بها دول ومؤسسات وهيئات دولية، وتقع نتائجها على أفـراد وأحـزاب وبلـدان وأبرياء، وتشمل في تعميمها ـ أحيانا ـ معتنقي دين، وتطاول ملامح أصولـه لتطالها ـ هو الإسلام ـ ولأن "الإرهاب " أخذ يشكل سلاحا من الأسلحة التـي تشهر على العرب الذين يقاومون الاحتـلال والهيمنـة الأميركيـة والوجـود الاستيطاني ـ العنصري الصهيوني، وعلى المسلمين والإسلام ذاته، في سياق إعلان الولايات المتحدة الأميركية ـ بعد انتهاء حرب الخليج الثانيـة ـ عـن غزو مفتوح للآخرين، ولا سيما العرب والمسلمين، حيث قال الرئيس بـوش :" إن القرن القادم سيكون قرن انتشار وهيمنة القيم الأمريكية والسلوك الأميركي والثقافة الأميركية". وعزز مفسرون ومتطرفون غربيون ذلك ووضحوه بالقول : " إنه كما شهد القرن الحالي انهيار الشيوعية والماركسية سيشـهد القـرن القادم انهيار العروبة والإسلام. "، أقول لأن الدراسة ترمي إلى تركيز الكـلام وإثارة الحوار حول الإرهاب في الواقع الراهن، وما يتصل بذلك من ممارسات؛ ولأن صراع " السلطة والمعارضة " في بعض الأقطار العربية أخذ شكل العنـف والعنف المضاد، أو " الإرهاب والرد على الإرهاب " ـ كما يحب البعـض أن يقول ـ فسوف نحاول أن نركز على بعض المفاهيم والنمـاذج التـي تتصـل باستخدام الإرهاب سلاحا نفسيا وسياسيا وإعلاميا ضدنا، وتسـويغ عمليـات الإبادة البطيئة التي تتم باسم "مقاومته "؛ وعلى استخدام فئات منا لجعل فعلها المقاوم يتجه اتجاهات ضارة تساهم في رسم الصورة التي يريدهـا أعداؤنـا وترويجها تلك الصورة، واستخدام قوانا ليفني بعضها بعضا بدلا من أن تتوجه كلها لمقاومة إرهابه واحتلاله ومشاريعه ومخططاته؛ مكتفين بإشارات ونماذج من الفعل لرسم بعض ملامح هذا الواقع الراهن وصولا إلى بعض الاستنتاجات العامة.

بعد حملة اختطاف الطائرات، والقيام بعدد من العمليات الفدائية الموجهة ضد العدو الصهيوني خارج الأرض المحتلة، وازدياد المواجهات حـدة بيـن أجهزة الأمن والمخابرات " الإسرائيلية " والمنظمات الفلسطينية العاملـة فـي

بلدان مختلفة؛ تنامت خلال العقود الثلاثة الأخيرة من هذا القرن الجهود الرامية إلى تحديد أسباب "الإرهاب " ومقاومته، وازدادت معها حملات الإعلام والسياسة والتهديد، التي جعلت مفهوم الإرهاب يكاد يلتصق بالعربي ويصبح من صفاته، ثم يكون من صفات المسلمين ونتيجة " للإسلام "، وساعد عرب ومسلمون، رسميون وغير رسميين، عن قصد منهم أو من دون قصد، ساعدوا على ترويج ذلك وتسويغ استخدامه أحيانا، والتمكين من نشره واستقراره في الأذهان.

وأصبحت الحصيلة العامة لذلك، منذ بداية التسعينيات من هذا القرن وحتى الآن، التصنيفات الآتية :

أ ـ دول على قائمة الإرهاب، كلها تقريبا عربية وإسلامية منها " ليبيا ـ سورية ـ إيران ـ العراق ـ السودان "، وذلك حسب تصنيف وزارة الخارجية الأميركية، الذي يردده الغرب ويعتمده إلى حد كبير، ويعمل سياسيا وإعلاميا انطلاقا منه، ومن كونه من الأمور المسلم بها.

ب ـ منظمات وأحزاب وشرائح اجتماعية، مصنفة كجهات أو فئات "إرهابية " حسب المنظور الصهيوني الغربي، وحسبما يردده الإعلام، وما تروجه الجهات الإستخباراتية والسياسية التابعة له، وينبغي محاربة تلك التنظيمات والأحزاب والمنظمات وتصفيتها، حتى من قبل الدول العربية والإسلامية، التي لا توافق على ذلك التصنيف، كما يرى الغرب "وإسرائيل "، ونذكر من تلك التنظيمات : حماس ـ الجهاد الإسلامي ـ حزب الله ـ المقاومة الوطنية اللبنانية بكل الفصائل والأحزاب التي تدخل في إطارها مثل : السوري القومي الاجتماعي ـ البعث العربي الاشتراكي ـ الشيوعي اللبناني ـ التقدمي الاشتراكي... الخ.

ج ـ تنظيمات وأحزاب سياسية إسلامية :" أصولية ـ سلفية " من

تيارات متعددة بأسمائها المعروفة وتوجهاتها في المغرب والمشـــرق، وهي تخوض مواجهات دامية مع السلطة في بعض البلدان العربيـــة : الجزائر ــ مصر العربية ــ تونس، وتدخل حلبــــة العنـــف والعنـــف المضاد، أو ترد على العنف بالعنف المضاد، وصولا إلـــى " العـــدل أو السلطة "، " الأمن أو الاستقرار في السلطة " حسب طرح كـــل مـــن المعارضة والسلطة وموقعهما في البلدان المشار إليها.

وهذه التنظيمات التي تضمها الفقرة الأخيرة من فقرات مـــا يمكـــن أن نسميه ــ تجاوزا ــ تصنيفا أوليـــا، وهـــو مـــا اخترنـــاه تســـهيلا للتعـــرف والاستخلاص، هي فئات اجتماعية منظمة يطلق الإعلام العربي على أجنحتـــها العسكرية وعلى ممارسات تلك الأجنحة في بلدانها وفـــي البلـــدان العربيـــة، والإعلام الغربي والصهيوني صفة : الإرهاب، وتتم مقاومتها، في البلدان التـــي يقوم بها تبادل العنف، رسميا على هذا الأساس.

وقبل أن نلتمس سبيلا إلى التمييز بين المقاومة المشروعة والإرهـــاب الأسود، بين العنف الذي تبيحه شرعة حقوقية وشـــريعة ســـماوية وأعـــراف دولية، وذلك الذي يحكم عليه، ولا مؤيدات أو مســـوغات خلقيـــة وقانونيـــة وشرعية له من أي نوع؛ يحسن بنا أن نتوقف عند حدود معيارية ما وأســـس ومواصفات وقواعد نحتكم إليها، ونتقصى أهدافا وأسبابا، لفعل ما، فتجعل منـــه مقاومة مشروعة في حالات ومواقع ومواقف، ولآخر فتجعـــل منـــه إرهابـــا ممقوتا في حالات ومواقع ومواقف أخرى؛ حتى لا نقع فـــي فـــخ ازدواجيـــة المعيار والحكم التي نشكو منها، وحتى نصل إلى رأي وموقف ورؤية، متخذين من أسئلة مدخلا إلى أجوبة تجلو لنا ذلك ما أمكن:

١ – فما –هو– الإرهاب، ومن –هو– الإرهابي ؟

يقول نعوم تشومسكي، وهو يهودي أميركي، وباحث في علوم اللغـــة: " نستخدم تعبير الإرهاب للإشارة إلى التهديدات باستخدام العنف، أو اســـتخدامه بالفعل للتخويف أو الإكراه لتحقيق غايات سياسية في معظم الأحيـــان، ســـواء أكان إرهاب الجملة الذي يمارسه الأباطرة، أم إرهاب التجزئة الـــذي يمارســـه

اللصوص."(٦) ويقول يهودي ــ عنصري من غلاة الصهاينة الذين يشاركون في قيادة الكيان الصهيوني، هو بنيامين نتنياهو، زعيم حزب الليكود الآن : " إن العامل المميز للإرهاب هو : القتل والتشويه المتعمد والمنظم للمدنيين والذي يستهدف إشاعة الرعب"(٧).

وإذا اكتفينا بهذين الاجتهادين لتقديم تعريف للإرهاب من مصدرين "أميركي وإسرائيلي " ومن يهود متطرفين ويهود أقل تطرفا، وتلمسنا في ضوئهما، وفي ضوء ما ورد في النصوص التي سبقت الإشارة إليها في تقارير الهيئة العامة للأمم المتحدة، وقرأنا بعض الوقائع والأحداث على هدي ذلك، نجد الآتي بالنسبة للفقرتين : أ ــ ب من التصنيف السابق :

أن "إسرائيل" قامت بالمذابح الآتية بهدف الإرهاب والتخويف والإبادة ضد مدنيين في :

ــ قرية الدوايمة ١٩٤٨ حيث أبادت مئات المدنيين.

ــ قرى قبية ونحالين ودير ياسين وكفر قاسم في الخمسينيات، حيث ذهب مئات الضحايا من المدنيين ومثل بهم.

ــ قرى الجنوب اللبناني وبعلبك واجتياح بيروت بعد الجنوب عام ١٩٨٢، ومذبحة صبرا وشاتيلا، حيث ذهب عشرات الآلاف ضحايا، ودمر وطن اللبنانيين بعد أن سرق وطن الفلسطينيين، وقال يوسف بورغ وزير الداخلية الإسرائيلي :

" قتل الإرهابيون (١٠) من اليهود، وفي عام ١٩٨١ قتلوا (٨) ولكننا قتلنا حوالي ألفا من الإرهابيين. في عام ١٩٨٢ فقد آلاف من الأعداء حياتهم؛

وهذه النتائج تبين أننا نقتل آلافا مؤلفة في مقابل ٦ أو ٨ أفراد من ضحايا اليهود. ولا شك أن هذا موقف مدهش ونجاح غير عادي للصهيونية وقد أستطيع التجرؤ في القول إنه أكثر من نجاح"(٨)

ـ معسكرات أنصار ومخيمات اللاجئين، وإبادة قرى بكاملها في فلسطين المحتلة وفي الجولان وجنوب لبنان والأردن، وبلغ عدد القرى المبادة في الجولان وحده (٢٤٠) قرية، إضافة إلى تدمير القنيطرة تدميرا تاما بقصدية عنصرية، خارج إطار العمليات العسكرية، بالديناميت والجرارات.

ـ مشروع شارون " أزهار الصحراء " في سيناء أدى إلى هدم القرى والبلدات العربيات هناك.

ـ قام " مستوطنون إسرائيليون " بعمليات إرهابية ومذابح جماعية امتدت طوال العقود الماضية، وذهب ضحيتها مدنيون أبرياء ووسطاء للأمم المتحدة، أي شخصيات رسمية دولية مثل : فولك برنادوت، ومصلون يسجدون إلى ربهم باطمئنان في الحرم الإبراهيمي، حيث قتل " باروخ غولد شتاين " عشرات المصلين وجرح المئات وتعاطف معه اليهود، رسميون وشعبيون، ومجدوا فعله الشنيع الذي لم يكن منفردا في أدائه على الرغم من الادعاءات المغايرة :

فقد قال إسحاق رابين :

" إن منفذ مجزرة الخليل شخص منفرد ولكن لن يمكننا أن نتجاهل دعم الرأي العام لهذه المجزرة وليس فقط مجموعة هامشية قومية روحية"(٩).

وأثبتت التحقيقات اللاحقة أن كل مستوطن يهودي يحق له أن يقتل من شاء ومن يشاء من العرب من دون أن يحق " للجيش " أن يعترضه أو يمنعه من القيام بذلك؛ وليس هناك أكثر تواطؤا وانكشافا للعدوان والإرهاب والعنصرية، المنظمة من قبل " السلطة " والمحمية منها، أكثر من ذلك.

وفي كل العمليات التي كانت تقوم بها سلطات الاحتلال العنصري الصهيوني، وفي جميع المراحل، كانت تلك العمليات والأفعال توجه إلى مدنيين بقصد الإبادة وبقصد التخويف، لتفريغ الأرض من السكان، ولإبادة المطالبين بفلسطين ولإجبار العرب على الخضوع والاستسلام والتسليم بسيادتها تحت

قوة القهر.

ويمكن أن نقرأ ملامح ذلك في المقتطفات الآتية :

ـ قال سيمحا فلابان Flapan : " إن المنظمات الصهيونية أسست نظما من الإرهاب وهذه النظم هي التي تبنتها منظمة التحرير فيما بعد ذلك بثلاثين سنة " (١٠).

ـ قال الفريق بلرنز رئيس قوات الأمم المتحدة في غزة بعد عام ١٩٦٧:" إن الروح التي رافقت مذبحة دير ياسين مازالت مستمرة في القوات المسلحة الإسرائيلية " (١١)

ـ قال موردخاي غور رئيس أركان جيش العدو عام ١٩٧٨:" منذ ثلاثين عاما ونحن نحارب سكان القرى والمدن "(١٢) أي مدنيين".

ـ وقال دوبيك تاماري قائد المظلات الإسرائيلي الذي قصف مخيم عين الحلوة عام ١٩٨٢ قال في مقابلة مع مونتين عام ١٩٨٥ لأكتوبر " إن دولة "إسرائيل" كانت تقتل المدنيين منذ عام ١٩٤٧ وقتل المدنيين عن عمد باعتبار ذلك هدفا من أهدافها"(١٣).

ـ قال جاكوب إلياف / أحد إرهابيي "إسرائيل" المعروفين / الأرغون وليحي : " ظهر لي أنني استعملت جميع تكتيكات حرب العصابات، لهذا لجأت إلى أساليب أخرى، خطر لي أن أسمم مصادر المياه في لندن عن طريق وضع جراثيم الكوليرا فيها. رأيت أن الحرب الكيميائية يمكن أن تضرب بريطانيا ضربة قوية تساعد على تحرير (بلادنا) بعثنا أحسن شبابنا إلى باريس لهذا الغرض، كان بيتران مسؤولا عن شركة مياه باريس. سافر في إجازة إلى لندن لاستكشاف كيف يمكن تلويثها بالكوليرا حتى نقتل مئات الآلاف من سكانها... كان في معهد باستور قرب باريس عدد من العلماء اليهود الذين يعملون في حقل جراثيم الكوليرا، وقد تحمسوا لهذه الأفكار ورأوا

فيها الأسلوب الأمثل لتحقيق الاستقلال. كنا في حاجة إلى كمية زجاجات جراثيم الكوليرا حتى نستطيع إيصال الجراثيم إلى كل بيت في لندن. طلبنا من علماء اليهود في معهد باستور أن يؤمنوا لنا ألفا من الزجاجات المحتوية على جراثيم الكوليرا لتحقيق هذا الغرض المطلوب، اخترنا عددا من رجالنا اليهود لشحن الزجاجات وتم تغليفها ووضعها في الحقائب وفي آخر لحظة توقف تنفيذ العملية. فقد صدر قرار التقسيم كانت هذه العملية على وشك التنفيذ وما منعها إلا صدور قرار التقسيم " (١٣).

وهذا يوضح أن الإرهاب، حسب تعريف اليهود للإرهاب، هو الذي كانت تمارسه "إسرائيل" ضد العرب، وأن ما قام به العرب، مما يسميه الصهاينة والأميركيون "إرهابا " هو ــ حتى عند الأخذ بمسمياتهم ومعاييرهم ــ رد على ممارسات إرهابية مكشوفة ومستمرة وبشعة، وناتج عن وجود احتلال مباشر وقهر وظلم ومخططات إبادة، وعن ممارسات عنصرية ــ صهيونية أقرتها الأمم المتحدة وثبتها القرار ٣٣٧٩ الذي ساوى العنصرية بالصهيونية والذي ظل قائما إلى أن ألغته القوة الغاشمة المسيطرة على العالم "الولايات المتحدة الأميركية "، ولكنه لم يلغ ولن يلغى من التاريخ والوجود الفعلي والممارسة اليومية للإرهاب الصهيوني، لأن ذلك متصل بالطبيعة الصهيونية ــ التلمودية ونابع منها، وتغذية القيم التربوية ــ التلمودية المعتمدة في أشد المستويات اليهودية تدينا وتعصبا، حيث الأصولية اليهودية أنموذج للفعل العنصري البغيض ضد " الغوييم " وعلى رأسهم العرب والمسلمون؛ ذلك الفعل الذي يراه أرنولد توينبي " مأساة اليهود " ويبين مصادر ذلك في التاريخ الحديث حيث يقول :" إن اليهود قد عرفوا من خبرتهم الشخصية فظاعة ما كان يفعله النازيون ضدهم، ومأساتهم الكبرى أن الدرس الذي تعلموه في مواجهتهم للنازية لم يدفعهم إلى تجنب مثل هذه الأعمال الخبيثة، بل دفعهم إلى تقليد الجرائم التي ارتكبت ضدهم"(١٤)، ومع ذلك الفعل الإرهابي اليومي الذي يمارسه الصهاينة ضد العرب في فلسطين المحتلة، لا سيما شباب الانتفاضة

منهم، وضد المقاومة الوطنية للاحتلال والعدوان والاستيطان ومسلسل إبــادة الجنس، الذي يتم ببطء واستمرار وإصرار، في فلسطين وجنوب لبنان، علــى الرغم من ذلك فإن الولايات المتحدة الأميركيـــة تقــول، بألســنة رؤســائها، وآخرهم الرئيس كلينتون، ويسجل آخر إعلان رسمي لذلــك مــايك مــاكيري الناطق باسم الخارجية الأميركية، تقول :" عــاش الشــعب الإســرائيلي فــي الإرهاب على مدى عقود من الزمن، إننا نقف إلى جانبه فــي هــذه اللحظــة الصعبة ملتزمين بأمن "إسرائيل" وبمكافحة الإرهاب، وبدفــع عمليــة الســلام العربي ــ الإسرائيلي إلى الأمام "(١٥). وقد جاء ذلك بعد عملية العفولة التــي نفذها الشهيد " زكارنة " في إطار الرد على مذبحة الحــرم الإبراهيمــي فــي الخليل تلك المذبحة البشعة التي أخّرت الولايات المتحدة الأميركية قرار إدانـــة مجلس الأمن لها مدة /٢١/ يوما حتى أكملــت ابتزازهــا للأطــراف العربيــة وفرّغت القرار من مضمونه، وحمت "إسرائيل" ومواطنيها من تأثيرات (نفسية) تكدّر مزاج " الإسرائيليين " !؟.

ودائماً يتبادل الأميركيون و" الإسرائيليون " التأييد، ويدعمهم الغــرب كله، في كل الممارسات الإرهابية التي يسمونها " انتقاماً " ــ "ثأرا " "ضربـــة وقائية " ــ "إطلاق النار الوقائي " ــ " تقديــم الحســاب أو ردّ الحســاب " ــ ويعطي كل منهم الحق والشرعية للآخر بأن يقوم بما يشاء القيام به من أفعال في هذا المجال. وهاهو عضو الكنيست الإســرائيلي " أمنــون روبنشــتاين " يلخص ذلك الموقف المتحد في الغطرســة واللــؤم والعنصريــة وازدواجيــة المكاييل بقوله :" إننا نجد أن "إسرائيل"، مثلها مثل الولايات المتحدة الأميركية، من حقها أن تشن هجمات إرهابية لتمنع هجمات إرهابية محتملــة قــد تشــن ضدها" (١٦).

وهذا يقودنا إلى التركيز قليلاً على التصنيف (آ) الذي يضــع دولاً فــي دائرة الإرهاب الدولي ــ رعاية أو ممارسة ــ ويبيح للأقوياء ممارسة أشــكال العدوان والحصار والابتزاز والإرهاب ضدها، ويسوّغ لهم كل فعل يؤدي إلــى تشويه الصورة والسمعة، وليسوا على الإطلاق بحاجة إلى مؤيدات قانونيــة أو وثائق أو مستندات ووقائع محددة ثابتة، فإن اتهامهم قرار، ومصلحتهم تسوّغ

كل اتهام، وعندما يصدر الأمر المبني على المصلحة ـ سياسية أو اقتصادية ـ أو يتقرر القيام بإجراء كيدي، فإنه يكفي أن تكذب جريدة، أو يدعي صحفي واقعة ما، حتى يصبح ذلك كافياً للقيام بكل الممارسات والأفعال والقرارات اللازمة(؟!؟). وهناك، عند الولايات المتحدة الأميركية "وإسرائيل "، تاريخ حاضر للاستخدام، وتاريخ منسي قيد الإتلاف، وهناك أيضاً صناعة للتاريخ وإعادة صوغ له، وإعادة إنتاج وعرض للوجوه والأشخاص والأفعال والممارسات، وكذلك للوقائع، وكل ذلك يرافَق بالتفسير والتوظيف الملائمين لصاحب المصلحة والمخطط.

وسوف نتوقف عند بعض الوقائع والمعطيات لتكوين رأي ورؤية في المسار (أ) الذي يصنف دولاً على أنها إرهابية أو ترعى الإرهاب، بنظر الغرب والصهاينة.

فما هو الفعل الإرهابي الذي قامت به، ولماذا هي دول مساندة للإرهاب ؟ كما يؤكد المعيار الخاص بوزارة الخارجية الأميركية ؟؟

يقولون بوضوح : إنها دول تساند المنظمات "الإرهابية " وتقدم لها العون، ولا تمنعها من أن تتخذ مقرّات لها في بلدانها. وبعض تلك الدول " رعى " و " مارس " عملاً إرهابياً ضد الطائرات: حادث (لوكربي والطائرة الفرنسية)* والمقصود / ليبيا / وبعضها يساند أحزاباً تقاتل ضد "إسرائيل". لكن أين تقاتل ضد هذه الـ "إسرائيل" ولماذا ؟ وتحديداً لأية أسباب، وممارسة لأية حقوق، وظهوراً لأية ظواهر، كما حاولت قرارات الأمم المتحدة وتوصيات لجان تلك الهيئة، حول الإرهاب وأسبابه وأساليب الخلاص منه أن تبين !! فلا يوجد إضاءة على هذا الجانب، ولا رغبة في التوقف عنده.

فالأعمال التي تقوم بها منظمات مثل " حماس والجهاد الإسلامي وصقور فتح " في فلسطين المحتلة، وتلك التي تقوم بها المقاومة الوطنية اللبنانية في الشريط الذي تحتله " إسرائيل " من جنوب لبنان وتتخذه " حزاماً أمنياً لها " والموجهة ضد الاحتلال والاستيطان ومخطط إبادة الجنس الذي تقوم به "إسرائيل"، وضد الممارسة العنصرية البغيضة التي تطبع التكوين

الفردي والجمعي للصهاينة، الذين يسرقون وطن الفلسطينيين ويريدون فرض سيادتهم وهيمنتهم على المنطقة العربية، ويعوّقون نموّها وتقدّمها، ويشكّلون رأس حربة للاستعمار الذي ينهب ثروات المنطقة وطاقاتها ويتخذ منها سوقاً استهلاكية ورصيداً لحل أزماته الاقتصادية عند اللزوم، تلك الأعمال لا ينظر لشرعيتها، ولا ينظر إليها على أنها مقاومة مشروعة أقرّها القانون الدولي، وشرعة حقوق الإنسان، ومواثيق الأمم المتحدة، والأعراف الدولية، وأيدتها قرارات مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة، في تاريخ القضية الفلسطينية !؟ وإنما ينظر إلى حق "إسرائيل" في النظر إليها كإرهاب، وإلى حقها في القضاء على ذلك الإرهاب بكل الوسائل. وهذا التوجه مستمر منذ قامت "إسرائيل" ومتواصل على الرغم من كل الممارسات البشعة التي تقوم بها؛ فدائما عندهم :" "إسرائيل" تعاني من الإرهاب ومبتلاة به "، أمّا المبتلون بإرهاب "إسرائيل" ووجودها واحتلالها وعنصريتها فهؤلاء ودولهم ليس لهم لا حقوق الشعوب ولا حقوق الأفراد ولا حقوق الدول، وعليهم أن " يطيعوا"، وأن يطيعوا فقط.

من المعروف بالنسبة لنا نحن أصحاب التاريخ " المنسي " أن أول واقعة تسجل اختطافاً لطائرة مدنية تمت في المنطقة قامت بها "إسرائيل" وكان ذلك عام ١٩٥٤ عندما اعترضت الطائرات المقاتلة الإسرائيلية طائرة مدنية سورية وأجبرتها على الهبوط في مطار اللد(١٧)، وقد كان اختطافها بهدف إرهابي هو احتجاز رهائن أبرياء من المدنيين، وقد كتب موشيه شاريت رئيس وزراء "إسرائيل" في مذكراته عن أسباب ذلك قائلاً:" إن رئيس الأركان موشيه دايان كان يهدف إلى احتجاز رهائن حتى نتمكن من إطلاق سراح مسجونينا في دمشق، وكان هؤلاء المسجونون جنوداً إسرائيليين ألقي عليهم القبض في مهمة تجسس داخل سورية "(١٨).

ولم تكن تلك آخر حادثة اعتداء على الطيران المدني العربي أو آخر اعتداء يتعرّض له، فقد أسقطت "إسرائيل" طائرة مدنية ليبية فوق سيناء، مما أدى إلى مصرع /١١٠/ أشخاص مدنيين أبرياء. واعترضت الطائرات " الإسرائيلية " طائرة ليبية كانت في رحلة عادية من طرابلس إلى دمشق عن طريق قبرص، وأجبرتها على الهبوط في فلسطين المحتلة يوم ٤ شباط

١٩٨٦، ونظرت إلى أعمالها تلك على أنها تصرفات تتفق مع القانون الدولي ؟!؟

وإذا أردنا أن نتتبع تلك الأعمال الإرهابية، وأعمال القرصنة الجوية والبحرية التي قامت بها "إسرائيل" ممارسة إرهاب الدولة، محمية بالإمبراطور الكبير الذي يرعى الإرهاب الدولي ويعطيه شرعية بفعل امتلاكه للقوة ويمارسه من علٍ ، ونقصد الولايات المتحدة الأميركية، فإننا سوف نجد أن " القائمة الدولية طويلة عن أعمال " البلطجة الإسرائيلية " كما يقول جود فري جانسن.

ولكن كل ذلك لا يسمى "إرهابا " في معيار الغرب، ولا يحاكم على أنه كذلك من قبل المنظمة الدولية ومجلس الأمن الدولي المحكوم بالإرادة والمصلحة الأمريكيتين، والذي يمارس ازدواجية معايير صارخة، ويكيل لأحداث متشابهة بمكيالين، واحد للعرب والمسلمين، وآخر له ولمن تحالف معه؛ ولا أدلَّ على ذلك من مسيرة القضية الفلسطينية، والحصار المفروض على شعب العراق والشعب العربي الليبي، ومن الازدواجية القذرة، والتواطؤ العنصري البغيض في البوسنة والهرسك ضد المسلمين البشناق (**.)

إن الأقوياء ومصالحهم وتحالفاتهم وتوازناتهم هي التي تعطي الفعل الذي يمارسونه أو يرونه موجهاً ضدهم لونه ومدلوله وعدالته ومسوّغاته، وليس القوانين والعدالة والمعايير الدولية؛ وهذا فضّاح جداً بالنسبة للموقف من "إسرائيل" التي يناصرها الغرب، وبالنسبة للصرب الذين تناصرهم روسيا ويؤيدهم الغرب على أساس "ديني"، وفضّاح واضح في ممارسات الولايات المتحدة في أمريكا اللاتينية والصومال، وفي ممارسات "إسرائيل" في إفريقيا وبعض دول أمريكا اللاتينية، حيث كانت تدعم "الإرهاب " وتتاجر بالمخدرات وتصدر أسلحة الرعب؛ وهو على أوضح ما يكون فيما يتعلق بامتلاك الأسلحة النووية أو التوجه نحو امتلاكها في كل من : العراق ـ"إسرائيل" ـ كوريا الشمالية، إذ تكون لكل منها معاملة مختلفة حيال " معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية " حيث تصرخ ازدواجية المعايير من دون أن يلتفت إلى ذلك أحد؛ فقد وضعت تلك المعاهدة موضع التنفيذ عام ١٩٧٠، ووقعت عليها الدول

الخمس التي كانت تمتلك آنذاك أسلحة نووية بشكل معلن، ثم وقعت عليها مئة وخمسون دولة.

"وتلزم المعاهدة الدول التي تمتلك أسلحة نووية بالسعي من أجل نزع سلاحها النووي، كما تطالب الدول الأخرى بالامتناع عن امتلاك أو حيازة أسلحة نووية ووضع المنشآت النووية تحت الرقابة الدولية "(١٢). ونحن نعرف ما حلّ بالعراق، وما يفرض عليه بشأن الرقابة على تلك الأسلحة، والتهديدات التي توجه إلى كوريا، وندرك تماماً أن "إسرائيل" التي تمتلك أكثر من مئتي رأس نووي، وتعمل سرّياً في هذا المجال منذ الخمسينيات، وأعلن في عدة مناسبات عن قدرتها النووية، أنه لم يطرح أحد من " الكبار " عليها سؤالاً حول هذا الموضوع، بل تُدعم قواها تلك بسرية واستمرار.

أيكون ذلك يا ترى لأن أسلحتها موجهة ضد نوع من المخلوقات لاعلاقة لها بالبشر، أو لأن من توجه إليهم تلك الأسلحة هم " أعداء " للولايات المتحدة الأميركية والغرب والصهيونية، بحكم العرق والعقيدة والثقافة والتاريخ ؟؟!

ربما كانت الإجابة محجّبة بألف قناع، ولكنها لا تستطيع أن تخفي الانحياز والعداء المقيتين، وازدواجية المكاييل، والنفاق الغربي العريق؛ على أنني سأركز ما أمكن، على موضوع الإرهاب، والدول المصنفة " أميركياً " على أنها مساندة له.

إن أهم ما يوجه إلى تلك الدول، وأبرز ما يطلب منها، يمكن تلخيصه في الآتي :

١ــ ألا تقاوم الاحتلال الإسرائيلي، وألا تحمي من يقاومه، وأن تطرد كل من تشتبه في أنه " وطني " ويريد أن يقاوم "إسرائيل" من العرب والفلسطينيين والمسلمين الذين قد يقيمون في تلك الدول أو يمرون بها، أو يطلبون دعمها.

٢ــ أن تحمي الحدود " الإسرائيلية " ــ المتوسعة ــ وتجعلها آمنة،

ولاتسمح لأحد بتعكير صفو الأمن والاستقرار فيها.

٣ـ أن تعمل على توطيد سلطة الاحتلال وتوسعه الاستيطاني، وأن تقبل بكل ممارساته، وبتفسيره وتسويغه لكل تلك الممارسات، وأن تعترف بسلطته وبشرعية ما يقوم به في الأرض التي يحتلها، وفي المدى الذي يراه مدى استراتيجياً لأمنه العسكري والاقتصادي والاجتماعي.

٤ـ أن تعترف "بإسرائيل " وبحقها في الوجود، وبسيطرتها على كل ما يقع تحت سلطتها وسطوتها من أرض وبشر، وأن تنهي الصراع العربي الصهيوني بما يثبت حق تلك الدولة وسيادتها في المنطقة، وتطبيع العلاقات معها إلى الحد الذي تغدو فيه تلك الدول وشعوبها ـ أي دول الوطن العربي ـ سوقاً استهلاكية وامتداداً استراتيجياً للمشروع " الإسرائيلي" المستقبلي، ذاك المتحالف مع مشاريع أميركية ـ وغربية ـ (فرنسية الآن).

إن أهم استخدام " للإرهاب الذي ترعاه سورية داخل لبنان كان يتمثل في فرض انسحاب القوات "الإسرائيلية " ومشاة البحرية الأميركية(٢٠) كما يقول باري روبن، وسورية تشارك إيران، أو إيران تشارك سورية في حماية الشيعة في جنوب لبنان وتمكنهم من المقاومة لتحرير الجنوب، وتلك " تهمة " تعاقب عليها الولايات المتحدة الأميركية و "إسرائيل" والغرب ومجلس الأمن الأميركي المسمى دولياً. وعلى سورية غضبة أساسية لسبب رئيس آخر هو إيواؤها للفصائل الفلسطينية العشرة التي ترفض / غزة ـ أريحا / ولا تريد الاعتراف "بإسرائيل " والتنازل عن وجودها.

أمّا المأخذ الأساس على السودان كدولة إرهاب فهو أنه يقبل بأن تقيم فيه عناصر من حماس والجهاد الإسلامي ممن يفرون من اضطهاد " إسرائيل " وتصفياتها الجسدية وملاحقاتها الأمنية، وكأناأن المطلوب منه أن يسلمهم إلى الموساد أو إلى الإدارة الأميركية لتقوم بتصفيتهم لأنهم يطالبون بتحرير وطنهم وبالعيش الكريم فوق أرضهم بحرية واحترام ؟!!

أمّا التهم الموجهة إلى ليبيا فهي كثيرة، تبدأ من دعمها وتمويلها وتأييدها لمنظمات فلسطينية تقاوم "إسرائيل" وترفض وجودها، مثل منظمة أحمد جبريل، وانتهاء بدعم ليبيا لثوار ايرلندا والهنود الحمر، وكل أولئك الذين كانوا يوماً على قائمة : حركات التحرر في العالم.

ولأنها تعارض مؤتمر مدريد، وقد تكون فاعلة ـ إذا لم تحصر وتحاصر وتلاحق ـ في التأثير عليه سلبياً، ولأنه لن يسمح بحضور عوامل تؤثر على المناخ الذي أصبح ملائماً لفرض تسوية على العرب بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وكارثة حرب الخليج الثانية، التي قاد إليها رأي خائب وقرار مُصنّع لخدمة الأغراض والمصالح الأميركية.

لقد قال برنارد لويس في محاضرة له في جامعة تل أبيب: " إن صعود الإسلام الأصولي، وهبوط العروبة، وانهيار الاتحاد السوفييتي، خلقت واقعاً سياسياً جديداً في المنطقة، يمكّن الزعماء العرب من انتهاج سياسة براغماتية تجاه "إسرائيل" " (٢١) وقد يكون القذافي معوّقاً أو معطّلاً في مثل هذا المناخ والواقع السياسيين.

كما أن ليبيا متهمة من قبل الولايات المتحدة الأميركية بإسقاط الطائرة الأميركية PAN -AM رحلة رقم ١٠٣ فوق لوكربي، ومتهمة أيضاً بإسقاط الطائرة الفرنسية رحلة رقم ٧٧٢، إضافة إلى رصيد حسابات خاصة تمتد طويلاً وعميقاً، لم يكف في تصفيتها العدوان الأميركي على طرابلس /فيما يشكل إرهاباً دولياً فريداً من نوعه /ولا مهاجمة الطائرات الليبية وإسقاطها في خليج سرت، ولا القرصنة البحرية والحصار وأشكال الضغط والقمع والاضطهاد.

وإيران لها تاريخ حديث يتصل بهذا التاريخ الذي تقدمه كل من أميركا و"إسرائيل" والأحداث وعالم اليوم، وكله محكوم برأيها ورؤيتها. فإيران تدعم الحركات الإسلامية الأصولية التي ترفض الاعتراف "بإسرائيل "، وهي تساعد السودان الذي " يحمي الإرهابيين ". ولكن حقيقة أن السودان بدأ يقاوم الانفصاليين في الجنوب ويؤسس لصيانة وحدة أرضه وشعبه، ويدافع عن

الثقافة العربية الإسلامية عند البوابة الإفريقية؛ فتبقى خلفية حقيقية للأحداث والأحكام لا بدَّ من أن يفكر فيها أولئك الذين لا يسيطر عليهم تماماً الإعلام الغربي، والمنظور الأميركي ـ " الإسرائيلي " للأحداث.

أمّا قصة العراق، فهي معروفة إلى الحد الذي لا أرى ضرورة للتوقف طويلاً عندها.

تبقى ملاحظات واستيضاحات تتصل بالفقرة الأخيرة /ج / من التصنيف، أي بالعنف والعنف المضاد اللذين يمارسان في بعض الأقطار العربية، لا سيما مصر والجزائر، بين سلطة ومعارضة كل منهما لجأت إلى العنف أو ألجئت إليه، وأدى تساقيهما كؤوسه إلى تجرع أبرياء للبؤس واليأس والموت جراء ذلك، فضلاً عن خسارة تلحق بالوطن وبكل أبنائه ومجالات نموه، وبالأمتين العربية والإسلامية.

إنني أفضل أن أنظر إلى هذا الأمر في إطار لعبة الوصول إلى السلطة والمحافظة على البقاء فيها، تأكيداً لأهداف وتحقيقاً لأغراض. ولا أود أن أنظر إلى ذلك على أنه صراع بين الكفر والإيمان، ولا بين التقدم والتخلف. ولا يمكنني أن أمر بذلك من دون الإشارة إلى خلفيات تدفع الأحداث والأطراف، قد يلعب فيها (التسميم) المخابراتي للقوى التي لا تريد بالعرب والمسلمين خيراً، دوراً كبيراً.

إن اللجوء إلى العنف، أتى في الجزائر بعد أن تعطل السير في طريق الانتخابات الديمقراطية، وتعطل الحوار. وربما نجد بعض الحق مع من يرفضون القول إنهم سوف ينهون الديمقراطية أو يلغونها بعد أن يصلوا عن طريقها إلى السلطة، لأن في ذلك نوعاً من المصادرة. فاللعبة الديمقراطية إمّا أن نخوضها مع الإقرار بكل ما ستسفر عنه ثم نقوّم الفعل والأحزاب والأشخاص والتنظيمات والممارسات في إطارها، وإمّا أن نحجم عن السير في طريقها. وليست مقبولة مقولة :(الديمقراطية لنا، وليست "لأعداء الشعب ") تلك التي طالما مورست ضد الديمقراطية والوعي والحرية والشعب؛ فمن الذي يحدد بدقة : من هم أعداء الشعب ؟! في وطن كل أبنائه يحق لهم أن

يكونوا مواطنين صالحين ما لم يثبت عكس ذلك ؟!؟

أمّا لجوء التيارات الإسلامية إلى العنف أو قولها ـ تأكيدها بأنها إنما اضطرت إلى ذلك بعد أن سُدّت عليها المنافذ، وأدركت أنها مستهدفة فاضطرت للدفاع عن نفسها، فذلك أمر يحتاج إلى تقويم وتدقيق وتمحيص، كما يحتاج إلى تفصيل في غير هذا المجال، واعتماداً على وقائع ووثائق ومعطيات لا أملكها؛ وكذلك الأمر فيما يتعلق بالآراء والمواقف والمعطيات التي تسوّغ سلوك السلطة.

والحال في مصر العربية يختلف عن الحال في الجزائر، ولكن الشكوى التي تبوح بها السلطات تتركز حول تدخل أجنبي يهدف إلى الاستيلاء على الحكم وتغيير توجهات البلاد، مما يسفر عن كذا وكذا من التحولات والمعطيات؛ والمعارضة لها اعتراضاتها ومآخذها وإيمانها ورؤاها. وما أريد أن أذهب إلى تبنيه من رأي يتلخص في الآتي :

ـ إن تمايزاً ينبغي أن يقوم بين الفعل الموجه للعدو الصهيوني من تيارات إسلامية وغير إسلامية، وذلك الموجه لأنظمة وتيارات وأحزاب داخل الأقطار العربية، ولا بدَّ من البحث عن صيغة ملائمة ومصطلحات ملائمة .

ـ إن المقاومة للاحتلال الأجنبي مشروعة ومطلوبة وتعدُّ عملاً قومياً ووطنياً، وفعلاً إنسانياً مشروعاً، أيا كان سلوك المحتل وسبب احتلاله ومسوّغات فعله، ومن ثم فإن اللجوء إلى العنف ضده لا يسمى إرهاباً وإنما مقاومة وطنية مشروعة وشريفة، خلقية وقانونية وإنسانية، إلى أن يتم التحرير والاستقرار في أرض الشعب والتاريخ بحرية، وتقرير المصير فوقها بملء الإرادة والاختيار.

ـ أمّا العنف المتبادل بين " سلطة ومعارضات " وصولاً إلى الحكم أو إلى فرض الرأي والرؤية فهو يغرق الأبرياء في دوامة تجعل الموت والظلم واليأس والقهر، كل ذلك يتعاون عليهم. ولا بدَّ من أن نبتعد

عن ذلك مختارين الديمقراطية النظيفة والخاصة بكل بلد وظروف ومرحلة، لنصل إلى علاقات عمل وتعامل، وإلى بناء مجتمع مدني لا يفقد عقيدته وهويته، وإيمان ديني لا يفقد صلته بالعصر والحضارة ومتطلبات العيش والدفاع والتقدم؛ بعيداً عن :" تسخير الدين واتهامه " من قبل المعارضة والسلطة في آن معاً، أو من قبل معارضة ومعارضة.

- إن العنف الذي يشل الحياة والأداء السليم للمواطن والوطن لا بدَّ أن يتوقف عن النمو، وألا يدخل في ثأرية كيدية مقيتة، وألا يقود إلى تسلط من أي نوع. وعلينا أن نبتعد " سلطة ومعارضة " تيارات إسلامية وغير إسلامية - عن الأخذ بمقولات الإعلام الغربي التي ترمي إلى اتهام الإسلام بالإرهاب، وتظهر العودة إلى أصوله العريقة والسليمة على أنها مصدر التطرف والعمل " الإرهابي ".

في النهاية أريد أن أسجل الخلاصة الآتية :

١- إن الإرهاب الدولي الذي تمارسه الولايات المتحدة الأمريكية و"إسرائيل"، ومسلسل الإبادة العنصري - الصهيوني الذي يستمر ضد السكان العرب في الأرض المحتلة، كل ذلك عمل إرهابي - عنصري - يشكل جريمة ضد الجنس البشري وضد الإنسانية، وتُحاكم عليه القوانين الدولية، ولا بدَّ من أن تتوقف هذه الممارسات ضد شعبنا؛ كما أنه ينبغي أن تعيها ذاكرتنا، لأن ما ارتكب منها ضد شعبنا ينبغي ألاَّ يمر من دون حساب قانوني عادل في المستقبل.

٢- إن الولايات المتحدة التي تكيل بمكيالين، وتحابي، وتنافق بوضوح، تنفذ مخططاً ضد شعبنا ودولنا وأمتنا وعقيدتنا وثقافتنا؛ وعلينا أن ننتبه إلى ذلك فلا نغرق في المستنقع الذي تصنعه لنا، وأن نتعامل مع الواعين من مفكريها وسياسييها لتخرج إلى دائرة ضوء أفضل، ومعيارية خلقية أسلم، وإلى علاقات لا يحكمها الحقد وتاريخ البغض، علاقات تحترم سيادة كل الأمم

والشعوب والبلدان وثقافاتها وخصوصياتها، وتراعي مصالحها والصلات الطيبة معها.

٣- إن "إسرائيل" سوف تبقى وفية لطبيعتها العنصرية، وسوف تبقى كياناً استعمارياً ـ استيطانياً معادياً، وسوف تمارس ضدنا إرهاباً وتفتعل الحوادث والأسباب لشن حروب علينا ولتشويه صورتنا في العالم؛ وما لم نملك قوة في كل مجال من مجالات القوة /علمية ـ اقتصادية ـ عسكرية ـ اجتماعية ـ تقنية...الخ / فإننا لن نحسم صراعنا معها، الذي كان وسيبقى صراع وجود مع وجود، وليس نزاعاً على حدود، مهما أقرت السياسات الحالية ونفذت من اتفاقيات.

إن "إسرائيل" كيان دخيل يعوق تقدمنا، ويغتصب أرضنا، ويشوّه صورتنا و كرامتنا وتاريخنا، ويجلب علينا الويلات، وليس له وجود بيننا وفي وطننا إذا أردنا أن يكون لنا فيه وجود؛ وعلينا أن نعمل بنفس طويل ولنبدأ من التربية والمدرسة والنفس البشرية في أعماقها، لنقيم قدرة وإرادة ومسؤولية ومؤسسات مجتمع تسمح بولادة مناخ الوعي والتحرير والعمل من أجلهما.

٤- إن معظم عوامل ضعفنا متأتية من أنفسنا، ومن تمزقنا وموالاتنا لأعدائنا، ومن ضياعنا بأشكال مختلفة، ومن البحث الرديء عن خلاص شخصي أو قطري أردأ وأقل جدوى، وليس لنا مخرج مما نحن فيه إلا بتأسيس علاقات نظيفة على أسس وقيم ومعايير سليمة، نستمدها من تاريخ العروبة والإسلام في وحدتهما المتألقة، ومن تعاليم الدين الحنيف ومعطيات العلم والعقل، كما أنه لا يوجد خلاص /فردي قطري/ من أي نوع، فالخلاص يكون قومياً أو لا يكون، في ظل المعطيات والمتغيرات الدولية والعربية الراهنة، وفي ضوء معطيات العلوم الإنسانية والعلوم المحضة التي تطالعنا بعطاءاتها ونتائجها المذهلة.

وقل " إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم ".

صدق الله العظيم

المراجع :

(١) :تقرير الأمم المتحدة ٤٨/١٠٠/ Aصـ ٤٢٦، ٢٣٩٢٦ - ٩٣.

(٣) : المصدر السابق، ص ٤٢٧.

(٤) : عن جريدة السفير، تصريح مايكل ماكوري، ١٨ ــ ٩ ــ ١٩٩٣، صـ ١.

(٥) : عن جريدة السفير في ١٦/٣/ ١٩٩٣.

(٦) : نعوم تشومسكي، الإرهاب الدولي : الأسطورة والواقع، صـ ١٣، ترجمة لبنى صبري، منشورات : سينا للنشر، القاهرة ١٩٩٠، ونورد هنا بعض التعاريف لرجال قانون يسوقها الدكتور محمد عزيز شكري في كتابه الإرهاب الدولي :

تعريف : ألِكس شميد وألبرت جونغمان Alex Schmed & Albert I. Jongman في كتابهما الإرهاب السياسي، يعرف الإرهاب بقوله :((الإرهاب هو أسلوب من أساليب الصراع الذي تقع فيه الضحايا الجزافية أو الرمزية كهدف عنف فعال، وتشترك هذه الضحايا الفعالة في خصائصها مع جماعة أو طبقة في خصائصها مما يشكل أساساً لانتقائها من أجل التضحية بها. ومن خلال الاستخدام السابق للعنف أو التهديد الجدي بالعنف، فإن أعضاء تلك الجماعة أو الطبقة الآخرين يوضعون في حالة من الخوف المزمن (الرهبة). هذه الجماعة أو الطبقة التي تم تقويض إحساس أعضائها بالأمن عن قصد، هي هدف الرهبة، وتعتبر التضحية بمن اتخذ هدفاً للعنف عملاً غير سوي من قبل معظم المراقبين من جمهور المشاهدين على أساس من قسوة، أو زمن (وقت السلم مثلاً) أو مكان (في غير ميادين القتال) عملية التضحية، أو عدم التقيد بقواعد القتال المقبولة في الحرب التقليدية، وانتهاك حرمة القواعد هذا يخلق جمهوراً يقظاً خارج نطاق هدف الرهبة. ويحتمل أن تشكل قطاعات من هذا الجمهور بدورها هدف الاستمالة الرئيسي.

والقصد من هذا الأسلوب غير المباشر للقتال هو إمّا شل حركة هدف الرهبة وذلك من أجل إحداث إرباك أو إذعان، وإما لحشد أهداف من المطالب الثانوية (حكومة مثلاً). أو أهداف للفت الانتباه (الرأي العام، مثلاً) لإدخال تغييرات على الموقف أو السلوك بحيث يصبح متعاطفاً مع المصالح القصيرة أو الطويلة

المدى لمستخدمي هذا الأسلوب من الصراع)).

عن د. محمد عزيز شكري من كتاب الإرهاب الدولي صـ ٤٦، عن شميد وجونغمان في كتاب الإرهاب السياسي صـ ٢-١.

يعرف أ. د. شريف بسيوني الإرهاب بما يلي :

((الإرهاب هو استراتيجية عنف محرم دولياً، تحفزها بواعث عقائدية (أيديولوجية)، وتتوخى إحداث عنف مرعب داخل شريحة خاصة من مجتمع معين لتحقيق الوصول إلى السلطة أو للقيام بدعاية لمطلب أو لمظلمة بغض النظر عمّا إذا كان مقترفو العنف يعملون من أجل أنفسهم ونيابة عنها أم نيابة عن دولة من الدول))، يسوق هذا التعريف د. محمد عزيز شكري في كتابه الإرهاب الدولي صـ ٤٨ ط/١، منشورات : دار العلم للملايين عام ١٩٩٢.

أمّا الدكتور عزيز شكري فيقول :

((يمكن للمرء أن يستنتج بأن عدم وجود تعريف لأعمال الإرهاب الداخلي وعقوبة خاصة بها في تشريعات غالبية الدول ينفي وجود توصيف " جريمة" للإرهاب (....) وطبقا للمبادئ العامة للقانون التي أقرتها الأمم المتمدنة " بمعناها الوارد في المادة ٣٨ من النظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية، كمصدر من مصادر القانون الدولي العام، توجد جريمة دولية للإرهاب مستقلة عن غيرها من الجرائم ".

الإرهاب الدولي، صـ ٥٦-٥٧.

(٧) : المصدر السابق صـ ٥٩.

(٨) : نعوم تشومسكي : الثالوث الخطر والمصير المحتوم، صـ ٧١، ت : علياء رافع.

(٩) : عن السفير في ٢٤/٣/ ١٩٩٤.

(١٠) : سيمحا فلابان، الصهيونية والفلسطينيون صـ ١١٦.

(١١) : نعوم تشومسكي، الثالوث الخطر صـ ٩٣.

(١٢) : نعوم تشومسكي، الإرهاب الدولي، صـ ٨٧.

(١٣) : المصدر السابق، صـ ٨٨.

(١٣) : عن الحياة ٣. ٥. ١٩٩٤ ص ١٥، السفير محمد الفرا، سوابق قتل السلام في سجل الإرهاب الإسرائيلي.

(١٤) : أر نولد توينـــبي، دراسة في التاريخ مجلد ٨ ص ٢٩٠ عن جريدة الحيـــاة في ٣. ٥. ١٩٩٤ ص ١٥.

(١٥) : نشرة السفارة الأميركية بدمشق رقم ٤٠٨٣ تاريخ .٤١٩٩٤. ٧-٦.

(١٦) : نعوم تشومسكي، الإرهاب الدولي، صـــ ٩١.

* : موضوع قرار المجلس رقم ٧٣١ الصادر في كانون الثاني /يناير من عـام ١٩٩٢ وحسب المفهوم والتفسير والتصوير الأميركي :

" يطالب هذا القرار ليبيا بالتعاون الكامل مع السلطات الأميركية والبريطانية في التحقيق بشأن حادث تفجير طائرة الركاب الأميركية PAN - AM بان أم رقـم ١٠٣ عام ١٩٨٨، كما يطالب ليبيا بالانصياع لمطالب القضاء الفرنســـي فـي حادث تفجير طائرة الركاب الفرنسية رقم ٧٧٢ عام ١٩٨٩، ولقد قتل في هذين العملين الوحشيين من أعمال الإرهاب الدولي أكثر من ٤٠٠ شـــخص (.....) ويطالب قرار مجلس الأمن الدولي ليبيا بتسليم الليبيين المشتبه في تورطـــهما في حادث تفجير الطائرة الأميركية فوق لوكربي للمحاكمة في الولايات المتحـدة أو في بريطانيا. كما يأمر القرار ليبيا بالتعاون مع الســلطات الفرنســية فيمـا يتعلق بحادث تفجير الطائرة الفرنسية رقم ٧٧٢ وعلاوة على ذلك فـــإن ليبيـا مطالبة بدفع تعويضات لأقارب ضحايا حادثي التفجـير والكـف عـن دعمـها للإرهاب الدولي.".

نشرة السفارة الأميركية رقـــم ٤٠٩٧ تـــاريخ ٢٧ ـــ ٤ ـــ ١٩٩٤ صـــ ٤

ولكن هذه التهمة وجهت لأكثر من دولة، فقد وجهت لـــ : إيـــران ـــ ليبيــا ـــ سورية ـــ أحمد جبريل، وكانت سلاحاً بيد الولايات المتحدة ترفعه بوجـــه مـــن تشاء عندما تشاء، وقد أحييت هذه التهمة بعد نهاية حرب الخليج ثانية وركزت الاتهام على الجماهيرية الليبية، ولذلك أيضاً علاقة بمؤتمر مدريد وما تلاه.

(١٧) : هذه الواقعة مسجلة في الصحافة والوثائق العربية، وقد اخترت أن أشير إلى توثيق نعوم تشومسكي اليهودي لها في كتابه "الإرهاب الدولي " صـــ ٨٠.

(١٨): تشومسكي، الإرهاب الدولي صـــ ٨٠.

(**) قالت مادلين اولبرايت ممثلة الولايات المتحدة الأميركية في مجلس الأمن فـــي خطاب لها أمام المجلس بتاريخ ٢٤ ـــ ٤ـــ ١٩٩٤

(لقد تعرض المدنيون في غوراجدا لهجمات قاتلة يوماً بعد يوم من قبل صـوب

البوسنة. وليس لهذه الهجمات الجائرة على المدنيين مسوّغ عسكري وغايتـــها هي إرهاب سكان غوراجدا لحثهم على ترك منازلهم ومدينتهم وهدفـــها هـــو التطهير الإثني. وهي أعمال يستنكرها ضمير هذا المجلس وتشكل إهانة للقانون الدولي)، نشرة السفارة الأميركية بدمشق رقم ٤٠٩٦. تـــاريخ ٢٦ ــ ٤ ــ ١٩٩٤ صـــ ٥.

ولكن أحداً لا يقدم الصرب على أنهم إرهابيون، ولا يذكرهم الإعلام الغربي على أنهم عنصريون يمارسون إبادة الجنس على أساس " عرقي ــ ديني " فهل ذلك لأنهم قبل سنوات أعلنوا تحالفاً مع الصهاينة وقال فيه مسؤولون من الطرفيـــن إنهم يتعرضون ــ هم والصهاينة للاضطـــهاد، فصـــدق الأمـــيركيون خاصـــة والغربيون عامة أنهم يقومون بأعمال الإرهاب المضاد، أو الدفاع عن النفـــس بضربات " وقائية " تتقن ""إسرائيل" " اســـتخدامها والحديـــث عنـــها، وتتقـــن الولايات المتحدة الإصغاء إليها وتفـــهم مغازيـــها وتقـــوم بتغطيتـــها سياســـياً ودبلوماسياً كما تحسن تشجيعها وجعلها تعس تحت الرمـــاد، وتحـــرق ببـــطء خبيث؟! ربما.. فلم يعد أمام الولايات المتحدة إلا أن تتكلم علناً بعد كـــل هـــذه السنوات من الصمت، والكلام لا يتحول إلى قرارات على الفصل السابع مـــن ميثاق الأمم المتحدة كما هي الحال مع العراق، لأن الصـــرب ليســـوا العـــرب وليسوا من المسلمين، ولذلك يبقى القرار /٧١٣/ الصادر عن مجلس الأمـــن الدولي بشأن حظر السلاح على البوسنة مطبقاً على " البشناق " فقـــط، وغـــير قابل للتعديل، بينما يمد الروس الصرب بالسلاح والمقـــاتلين، وكذلـــك تفعـــل "إسرائيل" فالمعركة واحدة في النهاية لأنها ضد أعداء مشتركين؟!؟

(١٩) : نشرة السفارة الأميركية بدمشق ٤٠٩٧ تاريخ ٢٧ ــ ٤ ــ ١٩٩٤ مقتطف من تعليق إذاعة صوت أميركا يوم ٢٧ ــ ٤ ــ١٩٩٤ الذي يعبر عن وجهـــة نظر الحكومة الأميركية، وقد تقصّدت أن آخذ النص من هنا وليس من المعاهدة لأن هذا يؤكد موقف الإدارة الأميركية اليوم من المعاهدة والنـــص، والمطالبـــة بالتنفيذ والمحاسبة في ضوء ذلك.

(٢٠) : نعوم تشومسكي، الإرهاب الدولي.

(٢١) :دافيد أفيدان، دافـــار ١٩ /١١/ ١٩٩٣ عـــن السـفير ١٩٩٣/١٢/٢٠ ترجمة كمال إبراهيم.



ختـــــــام



أيها الزاحفون إلى قبوركم تنبهوا جيداً فأنتم على مشارف تلك القبـــور، ولن يزيدكم ذلك إلاّ حسرة وأسى، إذ قد تصلون إليها ولا تغيبكم فيها، وهـــذا أقسى بكثير مما لو فعلت، لأنكم ستبقون في دائرة العـــراء تنوشـــكم عيـــون الاحتقار والاستصغار، وتشتفي منكم قلوب، مادام لكم مـــن الوجـــود مظـــاهر وقشور.

إنكم تخرجون من دائرة الوهم ــ الحلم، أو الحلـــم ــ الوهـــم، دائـــرة الشعار ــ المبدأ، تلك التي لم تحموها جيداً بعلم وعمل ورؤية واحتشاد، إنكـــم تخرجون منها وترتمون بعيداً في دوامة العري التي تجلب العار.

على عتبة الواقع، والواقعية الجديدة، نُتِفَ ريشكم، ولم يبق لكـــم مـــن الطواويس التي كنتموها سوى ذكريات تزهو واندفاعة المواكب وتزاحم الركب في المراكب، حيث الهجرة إلى الصمت واللاحضور.

وحين تفتحون العيون وتحدقون إلى الآخر ــ المرآة، لتروا حالكم مـــن بعد الترنح والترزّح، تتبينون وجوداً غير وجودكم، وأن الدود قد نخر عيونكـــم وخدودكم وقلوبكم. أينما توجهتم تحيط بكم الذكريـــــات والشـــعارات وأشـــلاء المبادئ والأوطان والقضايا، وتسيِّج رؤاكم أعجازُ نخل منقعر، ورؤوس فــــي أعواد مشانق، ويهمي فوقكم مطر الدمع ليغرقكم في ملح أُجاج، تنحنـــي فـــي خضمّه الهامات لتطرد ظمأ فلا تزداد إلاّ ظمأ، ويعلو أنوفها زبد ورماد.

يزحف بكم الزمن إلى ساعة محتومة، ليست تلك التـــي تحمـــل راحـــة الموت، بل تلك التي تحمل ذلاً في حياة أفضل منها الموت.... ويا تعس ســـاعة تطلب فيها الموت ولا يأتيك، وتود فيها أن تغيب عن العيون فـــتزداد ظـــهوراً

وعريا أمامها !؟!

وتسألون أنفسكم وأنتم محمولون على أجنحة الوقت : كيف السبيل إلى نسيان شامل يمسح من الذاكرة كل ما كان، ويعيدكم هيولى قبل التشكل في كيان ؟! أغلقوا نوافذكم.. لا يوجد أي أمل بشيء من ذلك، ولا يوجد أي نوع من أنواع الخلاص في مثل هذا المنحى؛ فمحو الذاكرة في العري يحتاج إلى طمس الوعي به، وإلى فصام من نوع نادر لا يواتي في كل حين، ولا يستجيب لدمع وتوسل وأنين. فبعد سقوط حر من برج الوهم ـ الحلم، تبرد الأرض تحت الساقط عليها، ويحاصره الوعي بحقيقة من هو وبما هو فيه فيحجب عنه المخرج مما تردى فيه، ويتعرى تماما من قدراته ويستلقي في الصقيع، محبطا وجامدا وضائعا.

في مثل هذا الوقت يحتاج المرء إلى جلد التمساح ويتمناه، ويتمنى لو يفقد سمعه والبصر، ولكنه لا يحوز من ذلك شيئا، فما يتراكم في مجرى العصب يفتك بالقلب والعصب، ويلقي المرء قصبة في مهب الريح تعبث بها الريح.

اليوم أيها الوطن، نلمس، نحن الزاحفين إلى قبورنا، نلمس ترابك ونشمه، يضمنا ونضمه، وتتضوع منا ومنه في وضع العناق حناء الشهادة.

اليوم نستشعر الحزن والتراب في قبضة اليد، نستشعر أننا نفقدك إذ نستعيدك، لأننا نأخذ قبضة التراب ملء اليد، ونتمتع من شميم ما فيها من عرار، ونغادر المكان تاركين الأرض، وشيئا فشيئا يذهب ما في القبضة، وتغيم الرؤى، وتتلاشى الملامح، ويغيب المكان، وتبقى الحسرة في القلب، ولاشيء سوى الحسرة في القلب، فما بعد العشية من عرار.. وما بعد العشية من عرار.. وما بعد العشية من عرار .

فالأرض التي تسرق قدميك، تسرق أرضا من تحت قدميك وتمضي زاحفا في مدى الحلم والأرض إلى أن تصل إلى قيصر يطردك أو يحتقرك... ثم تدنو منك حفرة لا تعرف أين موقعها من الأرض ولا متى تقع فيها، وتواريك شجونها ولا تواريك إذ قدرك أن يتخطفك العار في العراء.

أرض تأتيك أخذت منك، تأخذ منك أرضاً كانت لك، وتضيع رؤاك بيـــن الضحك والبكاء، يضيع يقينك؛ أرض تأتيك تأخذ أرضاً منك وتأخذ يقينك وقلبك ورؤاك، ويضيع بين أشبار الأرض وأمتارها العمر والكرامـــة وحلـم بوسـع التاريخ وعمق الحياة؛ ويغور في متاهـات المصـالح والمبـادئ؛ السياسـية والنخاسة وعي وتاريخ وحضور ودم كثير... دم أكثر من كثير.

على أرض الواقع بين.. صلبه وترائبه، ينبجس سيل من ودق المصالح وخَبَثِها، دبق ونتن ومقيت، يندلق في الحلوق مـن دون اسـتئذان، ويعطـي للإنسان منا صورة وتطلعاً وطموحاً، يجعله ملعوناً من جده وأبيه، خارجاً على ملته وذويه.

على تلك الأرض... أرض الواقع... أرض النسل الذي لم يبق احترامـاً لذاك النسل في الأرض.. هناك تنتصب رحى ذات قطبين، قطب من ماس وآخر من صوّان، تلقينا فيها وتتلقفنا، وتتهاوى عندها أحلامنا، وتنـهار شـعاراتنا، وتتقزم طموحاتنا، وتتقلص إرادتنا، ونغدو بحجم بذر الخردل إن لم يكن أحـط وأقل؛ ونغيب في فضاء غثّ رثّ، يكاد ينسانا صوتاً وصدى.

ونخاطب ذواتنا من خلف حجاب وهم وسجف هم نقول :

لقد تضخمت أصواتنا وذواتنا في ماض قريب عشناه رغـوة ورغـاء، وامتدت ظلال قاماتنا فيه أطول بكثير من تلك القامات، وركبنا خيـل الأجـداد وسافرنا على أجنحة مجدهم ذكراهم، وفتحنا بالسيف في عصـر الصـاروخ؛ وعندما وصلنا تخوم الصحراء على وقع الحداء، تحسسنا زادنا والماء وسـيفاً يحتاج إليه المسافر في البيداء، فلم نجد إلاّ الشعر والسحر، ومـا تجـود بـه الذاكرة من أسماء وأحداث ورموز وذكريات، وما تحفظه من وصَفَات وصِفَات، لصداقات وعلاقات، فجلسنا عند تلك التخوم، لا نستطيع اجتياز المفـازات، ولا يليق بنا الرجوع إلى حيث الواقع المضني والوقائع المـهلكات. كلنـا تحـت السقف... كلنا تحت السقف الذي غيّب النجوم.والسماء ونور الشمس، وغـدا ثقيلاً كئيباً، كلنا تحت سقف يصنعه تضافر الخوف والوقائع، ويقدم لنا صفيحة ساخنة نُشوى على سطحها، نارها نارنا ونار العدو، ومادتها واقع عالم اليـوم

ووقائعه؛ ذاك الذي لم يبق لنا فيه إلاّ موقع اليتيم على مائدة اللئيم، ومع ذلك يدّع بعضنا بعضاً ونحن نتزاحف إلى أعتاب اللئام.

كلنا تحت السقف الثقيل الكئيب، سقف الواقع الذي صنعه ضعفنا وخوفنا وتفرقنا وتزاحمنا على أعتاب الغير، كلنا تحت رحمة ذلك الواقع ـ السيف : من كان يعمل منا ومن كان يهمل، من كان يصرخ منا أن استيقظوا ومن كان يغط في نوم عميق، من كان يخرق السفينة ومن كان يرمم كل الخروق فيها.. كلنا على مساحة الرمل المحرقة يُشوى بنار الحدث المتقدة، ويجني الحنظل بيد كانت تروم جنيَ المجد.

هناك من يستشعر مساحة الرمل ويشم رائحة الحرق، وهناك من يغيب عن الوجود جراء ما يواجهه من وجود، وهناك من يرى نفسه على شاطئ السلام والأمان، يعيش في بساتين العشق، ويتفحص تفاصيل ما بين التعابير، ويشتد نحو يوم يصبح فيه والعدو في صف واحد يحاربان حرباً " مقدسة " ضد من كان الأخ والشقيق والمواطن والصديق.

يا تعس يوم يزحف علينا يحمل في ثناياه ثقل الواقع وصدمات الوقائع، ويظهر لنا السكاكين التي في ظهورها بأيدٍ كانت تمتد لتصافحنا بأمان، وتغدق علينا من عيونها اللطف والحنان. يا تعس يوم يأتي.. والعدو فيه " صديق " والصديق فيه مغيّب في ثوب العدو، ويا تعس ساعة نقف فيها على مشارف قبورنا فترفضنا قبورنا، ويا تعس ساعة ننظر فيها إلى الوجه ـ القناع وقد تعرى عن قناع ـ وجه، لا نعرف متى ينتهي تحوّله وتلوّنه وتساقطه.. وهو يترهل ويتحوّل ويتهزّل، ويلبس لكل حالة لبوسها، ويسوقك وينساق معك، حتى إذا أشرفت لحظة ملائمة له ذبحك من الوريد إلى الوريد.

ولكن لا بدّ من تلك الصّاخّة، ولا بدّ من مواجهة الاستحقاقات في أوانها، وعلينا أن نتجهز لذلك ونحن نزحف إلى قبورنا.. فيا حبذا يوم يكشف الأيام، ويا بؤس عيش يظلم فيه الأنام ويعيشون الغفلة. فرب ضارة نافعة، وبعد كل شدة فرج.. وعلينا حتى ونحن نزحف إلى ميقات تنخلع منا عنده القلوب أن نكون على استعداد لأن نعمل من أجل ولادة من رماد. فنحن طائر "

السيمورغ " ونسل " الفينيق " وأمة العرب، وأتبـــاع الذكـر الحكيـم، ومـن ينهضون من رمادهم كلما احترق بهم الرماد.

فليكن يوم موت... وليكن يوم حياة، فليكن يوم مواجهة لعدو يراد لنا أن نراه " صديقا" لكي تولد فينا بصيرة تميز العدو من الصديق، وتصنع بـــالوعي والعلم والإيمان والعمل، قوة تنزلنا المنزلة التي تليق بنا بين أمم الأرض، وإلا فموت كريم خير من حياة ذل.

فيا أيها الزاحفون إلى قبوركم... فليكن زحفكم نحو الأمل فإنه يليق بكـم النصر والأمل، ويليق بكم النصر والعز وزهو الحياة.



المحتـــوى



عرسان، د. علي عقلة، المثقف العربي والمتغيرات، دراسة،
الطبعة الأولى، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٥،
ص ٢٣٢، قياس ٥ر١٧ × ٢٥ سم

*

مطبعة اتحاد الكتاب العرب

١٩٩٥/٢٠٠٠


اتحاد الكتاب العرب
ARAB WRITERS UNION
DAMASCUS دمشق

